

الإمام محمد أبو زهرة

الوحدة الإسلامية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
11 ش. جوار مسكن الفالقة
ص. ب. 130 ت: 395553

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأُمى رسول
الوحدانية ، وجامع الانسانية ، وعلى آله وصحبه أجمعين +

١ - أما بعد ، فقد روى في الصحاح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
قد قال : « بدأ الاسلام غريبا وعاد غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » ، وأى غربة
للالسلام أكثر من أن تنتزع أقاليم الأرض أهله ولا جامع يجمعهم ، وأن
نمزقهم الجنسية والعنصرية ؟ ويقول خاتم النبيين « كلكم لآدم وادم من
تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » وأى غربة أشد من أن
تحارب جماعة اسلامية أخرى من غير أى جريمة دينية ، بل أى غربة للالسلام
أشوى من أن يستنصر أمير مسلم بأعداء الله وأعداء الاسلام وينسى قوله
تعالى : « لا تجزى قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ،
ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » +

ان الفرقة بين المسلمين هونت أمرهم ، وجعلتهم حجة على الاسلام
ومبادئه ، حتى لقد قال الأعداء : لو كان الاسلام خيرا ، ما كان أهله على هذه
الحال من الخلل والاضطراب والبعد عن أسباب القوة + وقد تحكموا فينا ،
فان حاولنا أن نجتمع خذلونا ، خذلنا الرؤساء الذين يوالونهم ، ويستمدون
القوة منهم ، ويسيروا في مسارهم ، ويدورون حول قطبهم ، وأى غربة للالسلام
أشد من أن من يدعو الى الوحدة الاسلامية تكون دعوته غريبة ، وصوته منكرا ،
تأنه يهاجم الاسلام ، وفي كل الأحوال تكون دعوته صرخة في واد +

٢ - لقد نادى الامام جمال الدين الأفغانى بضرورة انشاء جامعة
دولية اسلامية ، وما كانت لدعوته استجابة ، الا حث الشعب الاسلامى

عليها ، وانهاض الأمة الاسلامية للاتجاه نحوها . وطوف في أرض الاسلام ما طوف يحرض ويجمع ، وما دخل اقليما اسلاميا الا أيقظ أهله ، وأزال الغمة ، وحاول بعث المهمة ، ولكن لا يلبث حكام المسلمين أن يخرجوه من أرض الاسلام حتى ألجأوه الى دار الكفر ، فظن أنه يستطيع أن ينادى من أرض غير اسلامية ليجمع الأمة الاسلامية ، زاعما أن أهل أوروبا أحرار ، كما يوهمون المسلمين ، فأتخذ منبره هناك في مجلة العروة الوثقى ، ولكن ضاقت صدورهم حرجا بها ، فألغوها بعد بضعة أعداد ، فأخذ يطوف ، وقد أعطاه الله قوة روحية مؤثرة ، فأراد أعداء الاسلام ، أو أعداء الوحدة الاسلامية أن يمنعه فلم يجدوا الا أن يلجئوه الى ما كان يسمى دار الخلافة الاسلامية في ملك آل عثمان ، فدخل القسطنطينية وكانت السجن لذلك الحكيم ، فانقطع صوته الذي كان يدوى ويعلن صوت الحق في وسط جلجلة الباطل ، ومنع شخصه من التجول في الأقاليم الاسلامية وبثت حوله العيون .

٣ - ولعل الزمن لم يكن هو اتيا لدعوة الامام جمال الدين ، وان حاول التنبية والابقاظ ، وحسبه ذلك شرفا ، فالأمة كانت خاملة ، وأعداء الاسلام هم المتحكمون في مصائر المسلمين ، وهم يحاولون بين كل داع للوحدة ودعوته ، ولا يريدون للمسلمين الا أن يكونوا قوما بورا .

والآن ، قد حالت الحال ، وكف أعداء الاسلام أيديهم . وان كانوا لم يكفوها الا بعد أن كان لهم من المسلمين من لا يزالون يتبعونهم نفسيا وعقليا . وليس للاسلام فيهم الا الاسم الاسلامي ، وذكره في تعدادهم ، وكان للتحكم في الاسلام أثره في قلوبهم ، وقد كانوا يدنونهم ، ويقربونهم زلفى اليهم .

ومهما يكن من هؤلاء الذين خلفهم عدو الاسلام في أرضه ، وكانوا هم المخلفين الذين يتكلمون في اعلاء شأن من كانوا يتحكمون ، وخفض الحقائق الاسلامية ، وتجميد الشرائع غير الاسلامية .

ومهما يكن أمر هؤلاء ، فان في المسلمين يقظة ابتدأ نورها خفيها ، وسينبثق نورا وهاجا ، ولذلك لا نياأس من أن تعود الوحدة الاسلامية ، كما

بدأت قوية ، وتجعل من المسلمين جماعة واحدة تفتأ أمام الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وغيرهما من الكتل التي تتجمع وليس فيها للإسلام مكان ، وأن الجماعة الإسلامية ستكون مصدر خير للإنسانية ، كما كانت في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعصر الراشدين من بعده . بل عصر الملوك الذين كانوا يحكمون المسلمين ، وهم مجتمعون ، سواء كان الحكم ، كما جاء في القرآن والسنة ، أم خالفوه في مناهج قلت أو كثرت .

٤ - ولا يصح لنا أن نسكت ، لأن السكوت تخاذل ورضاً بغير المقرر الثابت في الإسلام ، ومادام القرآن قائماً ، والسنة النبوية تروى ، فإن الوحدة ممكنة لتوافر أسبابها ، وهوانعها ليس من المستحيل إزالتها ، ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله تعالى وسنتي » وفي رواية الترمذي « وعترتي » .

إن الطريق للواضح ، وإن كانت فيه عقبات فهي من المسلمين أنفسهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « تركتكم على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها » فالطريق واضح لا يضل فيه السارى .

وإننا إذا اتجهنا إلى الكتابة في الوحدة الإسلامية ، كما يجب على كل مكلف أن يتكلم فيها بالقلم واللسان والمواجهة ، والانتقال واللقاء ، إذا اتجهنا إلى ذلك يجب أن ندرس كيف تكونت بتوفيق الله للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتأليف الله لأهل الإيمان ابتداءً . كما قال تعالى : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي آيدك بنصره وبالمؤمنين » وألف بين قلوبهم ، أو أنفقت ما في الأرض جميعاً ، ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ، يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

٥ - وإن الرجوع إلى أصل تكوين الجسم ، هو السبيل لجمعه إذا تفرقت أعضاؤه بحيث يوضع كل عضو في موضعه ، فيكون التلاؤم الأصلي والتناسق الوجودي ، فيجب أن نبين كيف تكونت الوحدة ابتداءً . ولقد نتبعنا في بحث

الموحدة أسباب الفرقة والانقسام ، ويظهر أنها قديمة من بعد عصر أبي بكر وعمر ، ففي عصر ذى النورين عثمان ظهرت الفتن الطاحنة ، وفي عهد امام الهدى على ، ظهر البغى مع الفتن *

وبذلك وجدت نابتة الفرقة ، وتغلخت في المجتمع الاسلامى ، وتحقق قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعري « ستكون فتن الفائم فيها خير من القاعد والقاعد خير من الفائم » ونمت بذور الفرقة في عهد ملوك بنى أمية حتى أن الامام زيادا يقول : لو علقت في الثريا ، وقطعت اربا على أن تجتمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو كما قال ثالث الشهداء من عترة محمد صلى الله عليه وسلم *

ولقد وجدنا أن العصبية العربية ، ثم الشعوبية ، ثم الانحياز الاقليمي ثم احياء اللغات القديمة ، والملوك الذين أقاموها حربا بين المسلمين ، كانوا من أسباب الفرقة ، وقد حاولنا أن نعالج هذا *

دعونا الى احياء اللغة العربية ، وجعلها لغة الثقافة والتفاهم الاسلامى ، ودعونا الى توحيد السياسة والحرب بإنشاء جامعة اسلامية ، ودعونا الى محو العنصرية بين المسلمين *

وإذا كان الناس يرون ذلك مستحيلا اليوم ، فانه بالايام والعزيمة ، والرغبة في حياة عزيزة كريمة ، يقرب البعيد ، ويتحقق المستحيل • اللهم هبى لنا من أمرنا رشدا ••

• ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ

• ٢٠ مايو سنة ١٩٧٦م •

محمد أبو زهرة

الوَحْدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ :

(تكوينها - قيامها - انقسامها - طريقة جمعها)

الوحدة الاسلامية حقيقة ثابتة بمقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية فلا يعرف الاسلام الفرقة بالألوان أو بالعناصر والأجناس ، أو باللغات والثقافات ، وقد كانت حقيقة ثابتة في الوجود ، كما هي مقرررة في النصوص ، وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وعهد الراشدين ، وما والاه من العهود التي قاربتة في عهد ملوك بنى أمية ، وبنى العباس ، وان كانت العصبية الاقليمية ، أو الشعبوية كما سميت في التاريخ الاسلامى ، قد أخذت تنتسل الى انجماعات الاسلامية ، وكانت في الوجود وراء العصبية العربية التي انبعثت من مراقدها في العهد الأموى ، فكانت العصبية الجنسية وراء العصبية العربية ، وكلتاهما جاهلى في معناه ، ناف للحقائق الاسلامية ، والموصايا المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم *

والآن قد صغار المسلمون الى افتراق ، وفي بعض الأحيان يكون بأسهم بينهم شديدا ، ووالى كثير منهم من لا يود للاسلام وأهله الا خبالا *

فكان لا بد من جمع المتفرق ، ولم الشعث ، واتباع ما أمر به القرآن ، وقرره النبي صلى الله عليه وسلم في وصاياه ، واعادة أمر المسلمين ، كما ابتدأوا جماعة واحدة يتضافرون كالبنيان المرصوص ، ولا يخذل بعضهم بعضا ، وأن يبتدأ بأقرب الخطوات ، ثم التي تليها من غير موأناة ولا قصور *

وان الفكرة الباعثة لانشاء مجمع البحوث الاسلامية كانت الاتجاه الى انوحدة العلمية الاسلامية ، وهو الغرض الأسمى من وجوده ، واذا لم يتحقق هدفه كاملا ، فانه لم يتخلف عن السير وان كان بطيئا ، وان القصد الى الهدف أمر حسن ، وان لم تتحقق الاصابة الى الآن *

وإذا كانت الوحدة الإسلامية في الناحية العلمية هدف المجمع ، فمن الحق عليه أن ندرس الوحدة التي تحققها في هذا الزمان ، وإذا لم تكن هي الكاملة ، فهي طريق المجمع الكامل .

ومن أجل هذا تقدمنا بهذا البحث ليلقى في المؤتمر الإسلامي الجامع ، ونرجو أن يكون البحث نواة لغرض يؤتى أكله في حينه ، وعندما يتكامل نموه في أبنائه .

ونحن في بحثنا ، لا نأمل أن تتعاد الآن الخلافة الإسلامية كما ابتدأت وارتفعت على الجماعة الإسلامية ، وإن كان يجب أن يكون غرضاً مقصوداً وهدفاً منشوداً .

وانما نكتفي بالحد الأدنى من الوحدة ، ونبنى عليه ما بعده من أدوارها حتى يصل المسلمون إلى أعلى مدارجها ، في أمر جامع لهم ، تحت أي شكل من الأشكال .

وانا نقسم البحث إلى أربعة عناصر :

الأول : تمهيد في بيان مقاصد الإسلام في وحدة الانسانية ، وبيان أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، مبعوث للناس كافة .

والثاني : في تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيامها في عهد الراشدين ومكان الخلافة في الإسلام .

والثالث : في أسباب التفريق بعد الاجتماع ، وفي هذا نبين أسبابه ، وما كان يرمى إليه المفرقون .

والرابع : في بيان الوحدة الممكنة الآن .

تمهيد

١ - ينظر الاسلام الى الانسانية على أنها وحدة ، لا فرقة فيها بالأجناس أو الألوان ، أو الأقاليم ، فان توزعت الأرض بنى آدم ، فقد جمعتهم الانسانية ، فكلهم لآدم وحواء ، خلقوا من نفس واحدة ، ومن دليلة واحدة ، وقد خاطب الله تعالى الناس بهذه الحقيقة ، فقال تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » *

فهذا النص القرآنى الكريم يوجه التالين له ، والمستمعين اليه ، الى أن هناك رحما يجب وصلها بين بنى الانسان ، شرقيهم وغربيهم ، وأبيضهم وأسودهم وأصفرهم وأحمرهم ، ومبتديهم وحضرهم ، وجاهلهم وعالمهم ، والمتكامل منهم والناقص *

وأن الاختلاف فى الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى فى التكون وقد أنشأها سبحانه من خلق السموات والأرض ، وخلق الأكوان ، والتباين فيما خلق من ظل ومن حرور ، وأرض خصبة هادئة ، وأرض قاسية غليظة ، وبذلك قال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين » *

وإذا كانت الأرض قد توزعت أبناء آدم ، وفرقت بينهم أجواؤها ، وأحوالها ، وتباينت الألسنة ، وأشكال المعاش ، فان الأخوة ثابتة بحكم الاسلام وبما جاء به القرآن ، والتعارف واجب ، وإذا فرقت الأرض فالمعانى الانسانية تقرب ، وتجمع . ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » *

وان التعارف هو تشييت الوحدة الجامعة ، وتأليف القلوب المتفرقة هو أساس العلاقة ، هذا وان التعارف بلا ريب يقتضى المساواة والكرامة الانسانية

أنتى أعطاهما الله للإنسان بمقتضى كونه انسانا ، كما قال تعالى : « وألقد
كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على
كثير ممن خلقنا تفضيلا » •

وان التعارف الانسانى يوجب أن يفيض أهل كل اقليم بفائض خيرهم
على أهل الاقليم الذى شحت أرضه بمثل ما عند الاقليم الذى يكون عنده
فائض الخير •

فالاقليم الذى يكثر فيه القمح لا يرمى فى البحار ، ويغالى فى الأسعار ،
بل يفيض به على من ليس عنده قمح ، ومن عنده مواد الكساء يفيض بها
على من ليس عندهم هذه المادة ، واذا كانت الأرزاق فى أرض الله تعالى
متباينة ، فانها بحكم الانسانية الموحدة تتلاقى فى ثمراتها ، وتجتمع ، ولذلك
ورد فى بعض الآثار المنسوبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انداس بخير
ما تباينوا ، فان تساوا هلكوا » •

وان التعارف يوجب التعاون فى رفع الحق ، وخفض الباطل ، وسيادة
الفضيلة والمساواة العادلة بين بنى الانسان ، وأن يدفع الظلم عن كل
بنى الانسان ، وأن يقف أهل كل اقليم أنفسهم لمساندة الضعيف فى أى أرض
من أرض الله ، حتى لا يفسد الظلم أهل الأرض ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى
ذلك : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل
على العالمين » •

٢ — وان القرآن اذ ينص على الوحدة الانسانية مع تفرق الأقاليم
والعناصر ، ينص على الوحدة فى الفطرة الانسانية ، فليس لأهل اقليم منزع
فطرى غير منزع الآخر ، بل أصل النزوع النفسى واحد ، فيه أسباب الاستقامة
والانحراف واحدة ، فليس الاختلاف ناشئا من طباع مختلفة • بل هو من فطرة
واحدة فلا يقال طبيعة الزنجى غير طبيعة الأبيض ، ولا طبيعة الأصفر غير طبيعة
الأسود ، بل الطبائع فى أصلها واحدة ، ولكن يكون الاختلاف من التوجيه
والتوجه لا من أصل الفطرة ، فهى واحدة ، ولذلك قال الله تعالى : « كان الناس

أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » *

وان هذا النص الكريم يدل على وحدة الانسانية فى الغرائز والمنازع ، وأصل الفطرة ومنازعة الأهواء الجامحة والشهوات الدافعة ، وأن الاتحاد فى ذلك يودى لا محالة الى الاختلاف والتنازع ، إذ أنه لو كان الحاكم هو العقل وحده ما اختلفوا ، انما تحكم الأهواء والشهوات ، وسيطرتها على بعض النفوس ، فكان لابد فيها من التنازع بين الخير الذى يدعو اليه العقل ، والشر الذى يدفع اليه داعى الهوى والشهوة ، ولهذه المنازعات فى داخل النفوس وبين الناس كان بعث النبيين ، ولقد صرحت آية أخرى بأن الوحدة النفسية فى أصل تكوينها يترتب عليها الاختلاف لا محالة ، فقال تعالى : « وما كان الناس الا أمة واحدة ، فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم شيئا فىسه يختلفون » *

ونرى من هذا أن النص يشير الى أن الوحدة يترتب عليها الاختلاف ، فانه اذا كانت كل النفوس متحدة فى وجود المنازع وأنها مستعدة للخير وللشر ، فانه لا محالة يترتب الاختلاف والتنازع بل التناحر ، فمن الوحدة النفسية كان الاختلاف ، ولقد قال تعالى : « ونفس بما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها » * وهكذا يصرح القرآن بوحدة النفس الانسانية فى منازعتها واتجاهاتها ، وانما التربية والبيئات الاجتماعية والتوجيهات هى التى توجد الاختلاف بين المجتمعات ، فلا يقال هذه نفس حر ، وتلك نفس عبد ، ولا يقال هذه نفس زنجى ، وتلك نفس أبيض ، ولا يقال هذه نفس بدوى ، وتلك نفس حضرى ، فالنفوس واحدة وانما يكون الاختلاف بسبب البيئات والمجتمعات *

ويظلم الحقائق ، والانسانية من يجعل لفريق نفسا ، وللاخر نفسا *

٣ — وان الاسلام لا يعد أهل جيل أمة واحدة ، بل يعد الأجيال كلها أمة واحدة ، تتحد فى معارضة الأنبياء ، والاستجابة لهم ، لأن النفس البشرية واحدة فى الماضى والحاضر ، والانسان ابن الانسان كما كان يقرره بعض أساتذتنا الأجلاء رضى الله عنهم *

ولقد ذكر القرآن تلك الوحدة النفسية في الأجيال كلها ، فنقال تعالى في سورة (المؤمنون) : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، اني بما تعملون عليم ، وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فانتقون » ، وقال تعالى في سورة (الأنبياء) : « والتي أحصنت فرجها فننفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين ، ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » *

فهذا النص الذي تلوناه انما يدل على وحدة الأقوام في حدودها عن الحق أن قامت دلائله ، وإيمان كثيرين به ، وقد ظهرت أماراته كالضوء فمشوا فيه ، وهم يعلمون *

الرسالة المحمدية للكافة :

٤ — ان الانسانية أمة واحدة كما قرر القرآن الكريم معجزة الوجود الكبرى وأن وحدة الانسانية ثابتة لا في جيل واحد ، بل الأجيال كلها متحدة في نفوس المنحرفين ، ومتحدة في نفوس المهتدين ، فالناس أولاد الناس منهم من ضل وغوى ، ومنهم من آمن واهتدى ، والانبعاث الى الهداية واحد في الأجيال أيضا ، والله تعالى هو العليم بذات الصدور ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ومن سلك سبيل الضلالة وصل الى غايتها *

وان الرسالة المحمدية كانت للناس كافة لا لاقليم ، ولا لجنس ولا لفريق من الناس * بل كانت عامة في دعوتها ، وعامة في هدايتها *

خطب بها الناس جميعا في ابان نزول الوحي ، وخطبت بها الأجيال كلها من بعد محمد الى يوم الدين ، فدين محمد هو الدين الخالد الى يوم القيامة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم آخر لينة في صرح النبوة ، وهو خاتم النبيين ، ولا وحى من السماء من بعده ، فبه ختمت الرسالة ، ولم يبق للناس الا الكتاب الخالد الذي هو سجل الرسائل والمسفة النبوية ، وهو الحجة الباقية الى يوم زوال الأرض ومن عليها ، وليس للناس من بعد النبي صلى الله عليه وسلم الا فهم وتدبر في الكتاب والسنة والبناء عليهما ، من غير أن يخرج من دائرتهم بل يدور حول محورهما وبهدايتهم *

ولقد وردت النصوص بعموم الدعوة المحمدية ، وجاءت أعمال النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وان طبيعة الهداية المحمدية أن تكون عامة لا خاصة ، لان المبادئ الاسلامية هي الفطرة الانسانية ، والفطرة عامة لا خاصة ، ويقول الله تبارك وتعالى في وصف الحقائق الاسلامية ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الذين القيم ، وإلكن أكثر الناس لا يعلمون » ، فلا تبديل لخلق الله تعالى لاختلاف اقليم عن اقليم ، ولا جنس عن جنس ، ولا عنصر عن عنصر ، بل كلمات الله تعالى عامة في حكمها وفي موضوعها ، فلا تبديل فيها ولا تغيير ، بل فيها الشمول الكامل ، والعموم الذي لا يتخلف ، ولا يخرج عنه بخصوص الا اذا استمد التخصيص من نص عام يميز قاعدته ويؤكد معناه .

ولقد صرح القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية ، فقال عز من قائل : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . وقال تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، فان هذين النصين يدلان بصريح العبارة على عموم الرسالة المحمدية التي خوطب بها الناس وكلف أن يقوم محمد بها عامة لا يخص اقليما ، ولا جنسا ، ولا لونا ، ولا عنصرا .

ويقول تعالى أمرا نبيه : « قل يا أيها الناس ، انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض » وأن أوصاف الرسول الكريم في القرآن الكريم تدل على عموم رسالته ، فالله تعالى يقول في محكم آياته : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم ، وان تكفروا فان لله من فى السموات والأرض ، وكان الله عليما حكيما » فالرسول جاء بالحق ، والحق هو الأمر الثابت الدائم الذى لا تختلف فيه العقول ، والأمر به لا يكون الا عاما .

ويقول سبحانه وتعالى فى مخاطبة أهل الكتاب بالدعوة المحمدية : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شىء قدير » .

وإذا ذكر للعرب على أن الدعوة فيهم ابتداء + ذكر أنها للناس كافة
انتهاء — فإِنَّه تعالى يقول : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا
عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال
مبين » ثم يقول من بعد ذلك ما يدل على عموم الدعوة والرسالة : « وآخرين
منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » +

ويقول تعالى : « ولئن نذر أم القرى ومن حولها » +

هـ — ولقد صرح القرآن الكريم بأن رسالة محمد ظاهرة على ما سبقها
من الرسالات ، وأنها الخالدة دون ما سبقها ، وهذا معنى قوله تعالى : « هو
الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله
شهيذا + محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم
ركعوا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر
السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ،
فأزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد
الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » +

وان هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن دين محمد هو الدين الحق ، بعد أن بعث محمد صلى الله
تعالى عليه وسلم ، فلا حق عند أهل العصور التى جاءت بعد الرسالة المحمدية ،
وبعد أن يبلغوها الا دين محمد لأنه الحق ، وأن ديانة موسى وعيسى قد
انتهتا + وما لأحد أن يستمسك بهما الا فيما قررتة رسالة محمد صلى الله عليه
وسلم ، كما قال عليه السلام : « لو كان موسى حيا ، ما وسعه الا أن يتبعنى » +

ثانيا : ان الرسالة المحمدية هى الظاهرة بمقتضى الأمر الأول على الديانات
كلها ، لأنها الحق الثابت الباقي وحدها بعد أن جاء بها الرسول الأمين محمد صلى
الله عليه وسلم ، وهى فى زمانها هى وحدها الحق +

ثالثها : أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم هم الذين حملوا أمانة
التبليغ للكافة من بعده ، فهم أشداء فى دعوة الحق ، متراحمون فيما بينهم ،

وأن الدعوة بالدعوة الإسلامية بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين يتولون نشرها للأقرب فالأقرب ، وأنها بين أيديهم كزرع أخرج شطأه ، والله يؤازره ، حتى يستعلاظ ويقوى ويثبت في الوجود ، وقد استوى على مسوقه •

٦ — والقرآن الكريم قد ذكر الله تعالى فيه بأن هدايته عامة ، لا تخفى فقد وصفه الله تعالى بأنه « هدى للعالمين » ، ووصفه سبحانه بأنه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، فقال تعالى : « الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » • ويقول تعالى : يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نورا هبينا » •

ويقول سبحانه في وصف الهداية المحمدية : « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » •

ويلاحظ هنا أن الخطاب في شأن القرآن الكريم وبنصه كان للناس • وهذا نص شامل لكل من يتصف بالانسانية ، وبأنه ناس فلا يختص بعربي دون أعجمي ، ولا بأحمر أو أبيض ، دون الأسود والأصفر ، إذ أن الجميع ناس من الناس •

ويقول تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ وادا ، ولم يكن له شريك في الملك ، وخالق كل شيء فقدره تقديرا » •

هكذا نجد التصريح من القرآن الكريم بعموم الرسالة المحمدية ، وبيان القرآن في الهداية وهو حجة النبي صلى الله عليه وسلم وسجل شريعته ، فهو ما كان الا للناس كافة •

النبي عربي ونزلت الشريعة في العرب :

٧ — ومع عموم الرسالة المحمدية ، فإن المبعوث رحمة للكافة كان عربيها تطبيقا للقاعدة الكريمة التي قررها القرآن الكريم « وما أرسلنا من رسول

الا بلسان قومه » ، فقد كان المخاطبون الذين حملوا هذه الرسالة العامة هم العرب ، ولقد قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤؤفاً رحيماً * فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » +

وان النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى العرب الأميين ، كما قال تعالى ذمنا تلونا : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » +

ولقد كان القرآن الكريم ، الآن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم عربى ، وبعث فى العرب ، كان القرآن عربياً ، فقد قال تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكراً » +

وقال تعالى فيه « حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصات آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما نزعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فأعمل اننا عاملون » ، وقال تعالى فى القرآن الكريم : « وانه أنزل ربه العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وانه لفى زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يجعله علماء بنى اسرائيل * ولو أنزلناه على بعض الأعجميين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » +

فهذا يدل على أن القرآن نزل بالعربية لكي يفهمه العرب ، وأنه لا يفهمه الأعاجم ، لأنه بلسان عربى مبين . ولقد قال تعالى فى ذلك أيضا : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » +

لقد ذكر سبحانه أنه أنزل القرآن عربيا لكي يفهمه العرب فوق أن النبى عربى ، وقد قال سبحانه وتعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » +

وهكذا نجد الرسالة المحمدية أخذت الصفة العربية ، ولكنها ليست مقصورة على العرب بل هي للناس كافة ، وذلك لأن ابتداءها عربى ، وغايتها عامة شاملة ، لأنها جاءت لاصلاح بنى الانسان أيا كانت لغتهم وأيا كان لونهم أو جنسهم *

ولكنها فى ابتداء الدعوة اتجهت الى العرب ، ليكون منهم الرعيل الأول الذى يحمل أعباء الرسالة المحمدية ، ولذلك عندما أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر به وأن يعرض عن المشركين قال له عز من قائل : « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَاخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** » *

فالدعوة ابتدأت موضوعية فى دائرة ضيقة ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت العرب ، ابتدأت فى أسرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم عشيرته المقربون ، ثم اتسعت دائرتها ، حتى شملت قريشا ، وانبثق نورها الى ما حول أم القرى من الأرض العربية حتى اذا تجاوزت أصدائها فى ربوعها ما بين جاحد مخالف ، ومؤمن موافق ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم الى خارج الديار العربية ، فأرسل الكتب الى الملوك ليمكنوه من أن يدعو أقوامهم الى الاسلام ويبلغوهم الرسالة التى حملها الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ، الى كسرى فى فارس ، والى هرقل فى بلاد الروم ، والى المقوقس فى مصر ، والى غيرهم يدعوهم بدعاية الاسلام ، وأن يخلوا له طريق الدعوة لتسير الى أقوامهم ، فمن استجاب لها واهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها *

ولكن منهم من أجاب مترفقا فى الرفض ، ومنهم من خشن فيه ، ومنهم من قتل من أسلم من رعيته ، فكان حتما على النبى صلى الله عليه وسلم أن يحمى التابعين للرسالة المحمدية من أن يفتنوا فى دينهم ، ولقد جرد لذلك جيشا للاقتاة الروم ، لأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام *

وخالصة القول فى هذا المقام تستبين من قول النبى صلى الله عليه وسلم ، عندما خاطب عشيرته ، اذ قال صلى الله عليه وسلم : « **انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة** » *

العرب حملة الرسالة المحمدية الى الناس كافة :

٨ - اختص الله تعالى العرب بأن يكونوا هم المبلغين - التبليغ الأول بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، على أن يعلنوها للناس كافة ، وينشروها بينهم ، ويشقوا الطريق لدفع الظلم عن المظلومين ، المرهقين من حكامهم الطاغين ، ولكنهم لم يختصوا بموضوعها ، بل هى للناس كافة واختصاصهم اختصاص فى عبء التبليغ الأول لأنهم تلقوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين شافهوه ، وعايينوه ، فكان أول واجب للتبليغ عليهم .

وذلك لأن الشريعة المحمدية ، كما ذكرنا ، الى الناس كافة ، وليس من المعقول ، ولا من طبائع الأتشاء أن يخاطب صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وحده بها الناس ، بحيث يذهب الى أهل كل اقليم ، وكل جنس ، يذهب اليهم فى ربوع ديارهم وأن يخاطبهم بلغاتهم المختلفة ، وأن يبثر جهوده فى الناس قاطبة اقليما اقليما ، وجنسا جنسا ، وقد يتضافرون جميعا ضده متآلبين على دعوته ، وبمكائرتهم له يقضون على الدعوة فى مهدها ، ولا تخرج الى أى مسار فى سيرها .

انما المعقول أن تبتدىء دعوته بعدد من الناس يكونون حواربييه وصفوته المختارة بين من بعث اليهم ، حتى اذا أشربوا الدعوة حملوها لمن وراءهم ، كما قال تعالى : « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة لينفقوا فى الدين ولينبذوا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

لذلك كانت الدعوة المحمدية التى بعث صاحبها محمد صلى الله عليه وسلم فى العرب ابتداء ، وسار بها الدعوة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم انتهاء ، وابتدأت فى أضيق دائرة حتى كان المؤمنون الأشداء فى دينهم ، وان كانوا قتيلا ، لأنهم بقوة ايمانهم يصبرون على الدعوة والجهاد فى سبيلها ، ويصابرون المعاندين ، ويتحملون الأذى فى سبيلها ، غير وانين ولا مقصرين ، والدعوات لا تأخذ طريقها بكثرة أتباعها ، ولكن بقوة ايمان الدعوة ، واخلاصهم وقوة أخلاقهم .

وما زالت الدعوة من بعد ذلك تنسب في الطريق ، حتى حملها الجموع المتكاثرة ، ولكن الصبر دائما يكون في الصدمة الأولى ، كما قال محمد صلى الله عليه وسلم *

ولقد تجاوزت الدعوة أرض العرب الى الفرس وما وراءهم ، والشام ومصر وما وراءهما ، حاملة النور والهداية والقوة التي تنف في وجوه الظالمين ، وأطرتهم الى الحق أطرا ، ثم عمت الرسالة المحمدية ، ووصلت الى الكافة في مشارق الأرض ومغاربها ، وأفاضت بمبادئ الحق والعدل على العالم كالغيث ، فنهل منه من نهل ، وأصاب خصب النفوس وجديها *

الله أعلم حيث يجعل رسالته :

٩ - لماذا اختص الله تعالى العرب بأن يكون في أرضهم مشرق النور الذي انبعث الى كافة الخليقة ؟ ونقول في الاجابة عن ذلك : ان هذا اختيار الله تعالى العليم الخبير ، وما كان لنا أن نعلل اختيار الله تعالى ، فهو لا يسأل عما يفعل ، ولكن نلتمس الحكمة ، ونتعرف المآلات التي ظهرت في الماضي وكانت تظهر آنا بعد آن *

ونقول ابتداء ان أرض العرب كانت مهذا للنبوة الأولى ، فقد قال المثقات من المؤرخين ان ادريس عليه السلام ، وقد كان صديقا نبيا ، وهو أقدم من نوح ظهر بدعوته في أرض العرب ، وعاش بها ، ونوح عليه السلام قالوا ان دعوته كانت بالبلاد العربية ، ويرجح ابن جرير أنه دفن في البلاد العربية *

وهود ، وصالح ، وشعيب ، كل أولئك كانوا عربا ، وبشروا دعوتهم في البلاد العربية ، وموسى عليه السلام لم يبعث الا في أرض عربية ، فاذا كان قد ربي في قصر فرعون ، وعاش في جنبات مصر وخصبها ، فانه لم ينزل عليه الوحي الا في أرض مدين ، ولم يتلق كلماته الا فيها ، ولما استنقذ الله تعالى به بنى اسرائيل كان مأواهم في سيناء ، حيث مشارف الأراضي العربية *

وإذا كانت رسالة الكافّة التي حملها محمد صلى الله عليه وسلم ، قد كان مهبطها في البلاد العربية ، وفي أوسط ديارهم وأكرمها عند الله تعالى ، فإن ذلك لم يكن بدعا بين الرسالات الالهية ، وخصوصا أن مهبط دعوته كان في مكة التي بها حرم الله الآمن في الجاهلية والاسلام ، وهي بناء أبى الأنبياء ابراهيم وأبى العرب من ولد عدنان *

لذلك نقول ان أرض العرب فيها آثار النبيين التي تدعو الى الاعتبار وفيها العبر وفيها المثالث لأنها أرض الرسالات الالهية التي بعث بها النبيون الذين دعوا الى الله تعالى مبشرين ومنذرين *

١٠ - وأن العرب في طبيعة أرضهم ، وفي طبيعة نفوسهم ، ما يجعلهم أصلح الناس لحمل عبء الرسالة المحمدية بمبادئها العامة الشاملة *

فأرضهم لا مطمع فيها لتتحكم أو مسيطر ، أو كما كانت ابان الدعوة المحمدية وهي لم يغلب عليها قوى ، وإذا كانت فيهم عيوب ، فإنها لا تتعلق بالنفس العربية ، وإنما تتعلق بالمعرفة التلقينية ، إذ كانت أمة أمية ، وعرفوا في التاريخ باسم الأميين ، وقد عبر القرآن الكريم عنهم بذلك التعبير *

ولم يجز على نفوسهم الذلة التي يفرضها حكم الطغاة من الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال تعالى حكاية عن بلقيس :

« ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة أهلها أذلة ، وكذلك

يفعالون » *

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هي التي حملت رسالة العزة ، وهي أرض الحرية والشجاعة ، ولا يمكن أن ينقل الى الناس دين العزة والكرامة والاقدام الا الذين أبوا ذل الملوك والذين تحمّلوا شدايد أرضهم وقسوة الحياة فيها *

وانه لا ينقل دين الكرامة الانسانية والعمل الصالح الا الأحرار الذين
يأبون الدنيا ، ويرضون ببذل النفوس في دفعها ، وليس ذلك الا في العرب
• وأرض العرب •

ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام وخرجوا من ديارهم دعاة بدعوته الى
الحق الا شقوا طريق النور والحرية والعدالة فكانوا يهدون الى الحق من غير
مواناة ، ولا فرار من شدة أو بأس ، ولا يتركون الشدة ، الى الدعة والرخاء ،
لأنهم تحملوا آلام الصحراء ، وعاشوا في حرورها •

وترى لو تصورنا أن تكون النبوة العامة الشاملة في غير أرض العرب
أنكون في أرض القياصرة حيث يتنظم من العامة لحكم القيصر ، ويدينون نفوسهم
بالصغار ، حتى يحسبوه من طينة غير طينتهم ، وحيث لا يحكم فيهم الا الهوى ،
وحيث العنصرية الجائمة على النفوس لهوى الحكام ، والخروج عن مبادئ
السلوك الانسانية •

واذا لم تكن أرض الرومان صالحة لدعوة الكافة الى دين تمحى فيه
العصبية والعنصرية والتعصب للجنس واللون والقومية ، أفنكون أرض فارس
هي أرض النبوة ، حيث فرض كسرى الذلة على الشعب ، وتوزعتهم سيادة
الأشراف اذا تزايدت أو وهنت سلطة الملك ، وانتقل الشعب من الذل والهوان
الملكي الى ذل الارستقراطية • وهوان الناس في ظلها •

وفي الحاليين قد لانت نفوسهم ، وضعفوا وهانوا واستكانوا • وما كان
هذا الشعب في ذلته هو الذي يحمل الدعوة الى العزة والكرامة الانسانية التي
قررها الاسلام في قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » •

لا يمكن أن يحمل عبء الدعوة الى الحق والعزة والكرامة من أمات الظلم
والتحكم نخوتهم وألفوا الخضوع المطلق للحاكم ، ورضوا بالحياة الدون ،
والمنزلة الهوان ، فانه لا يدعوا الى العزة الا الأعداء ، ولا الى الكرامة
الا الكرماء •

١١ — وهل يتصور أحد أن تكون أرض الفراعنة هي التي تدعو الى اسقاط حكم الفراعنة وبيان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وما انتقلوا من حكم الفراعنة الا الى حكم لا يقل عنه طغيانا وعتوا وفسادا ، انتقلوا الى حكم اليونان ، ثم الى حكم الرومان ، فهم يسارعون في الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جانب الى جانب وينغضون رؤوسهم على من يحاول أن ييئ فيهم روح العزة والكرامة قال لهم فرعون : أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم : أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتى ، غم يكذبوه ، وقال لهم : ليس لكم من اله غيرى * فقلوا : أنت الاله *

ان موسى عليه السلام ، بعث في غير أرض مصر ، ولما دعا فرعون وملأه الى دخول الحق ما آمن معه الا قليل وخرج باليهود ناجيا بهم ، وكانوا قد تمرسوا بالذل في أرض فرعون ، وهانت نفوسهم ، وماتت الهمة عندهم *

١٢ — ولو تجاوزنا شرقى الجزيرة العربية وشمالها وغربها ، واتجهنا الى ما وراء ذلك حيث خراسان ، وحيث البراهمة في الهند فاننا لا يمكن أن نتصور أيضا أن تكون الهند صالحة الآن تتزعزع فيها المبادئ التي أتى بها الاسلام من مساواة بين الناس ومحو الطبقات بينهم ، وأن يكونوا سواسية كأسنان المشط كما قرر الاسلام ، وكما دعا الى ذلك محمد صلى الله عليه وسلم ، فان الديانة البراهمية كانت تجعل الناس طبقات ، طبقة العلماء البراهمة ويزعمون أنهم خلقوا من رأس الاله براهما ، وطبقة الجنود ويزعمون أنهم خلقوا من ساعديه ، وطبقة الزراع والتجار ويزعمون أنهم خلقوا من ساقيه ، وطبقة الخدم ، ويزعمون أنهم خلقوا من قدميه ، ووراء ذلك أنجاس الناس الذين ينجس لمسهم كل شيء *

وقد ارتضى الشعب تلك الطبقة ، وتغلغل في نفسه ، لأنه حسبها دينا واجب الاتباع وأوامر واجبة الطاعة ، فهل كان يتصور أن هؤلاء هم الذين يدعون الى مبادئ المساواة والعدل الاجتماعى ، وأن الجميع سواء أمام الله تعالى وأمام القوانين والنظم التي شرعها الله تعالى ، والناس أمامها سواء ،

وقد يتفاضل الناس فيهما بينهم ، ولكن معاملة القانون لهم واحدة ، فمن أساء فعليه أساءته ، ومن أحسن فلنفسه ، وما ربك بظالم للعبيد .

العرب أصلح الناس لتلقى الرسالة الى الكافة :

١٣ — العرب هم الذين يستطيعون تعميم الرسالة الى الأجناس كلها ، والى الأقاليم في شتى الأرض ، لأن الرسالة العامة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تعم بقاع الأرض في الأجل القصير الذي عاشه فلا بد أن يحمل تبعة التبليغ من بعده قوم شداد ، وليسوا غلاظا لكن أقوياء متراحمون ، وقد توافرت عدة عناصر فجعلتهم المختارين لتحمل عبء التبليغ بالرسالة العامة :

أولها — أن العرب لم يخنعوا ولم يذلوا الملك أو طاغية كما ذكرنا ، بل تأنت الحرية طبعاً فيهم ، ولم تتكون فيهم الطاعة للحكام التي كانت في غيرهم ، وصحراؤهم عودتهم قوة النفس والجلد ، وتحمل الشدائد ، مع ضمير نقى خالص وقوة شكيمة ، وأن الحضارات وترفها تولد في النفس رخاوة لا يكون معها قدرة على التحمل والصبر على الشدائد .

وثانيها — أن الأرض العربية ابان ذلك لا مطعم فيها لمستعمر كما أشرنا ، ولا يستطيع مسيطر أن تستغرق سيطرته جميع العرب ، فكانت الأرض العربية حصناً يمنع الغزاة ، وكانت النفس العربية حصناً آخر لمبادئ الحرية والمساواة والعدل ، ولم تترك النفوس بذل الملكية ، ولا بطغيان الأشراف ، واعتبر ذلك بحال العرب مع الدولتين اللتين كانتا تصاحبانهم ، فما استطاعت واحدة من الدولتين أن تتغلغل في داخل الأرض العربية ، وما تجاوز سلطانها نفوذاً على بعض الأطراف العربية كنجران ، في الجنوب وغسان في الشمال .

وثالثها — أن العرب فيهم قوة شكيمة وقوة خلق طبعتها فيهم أرضهم وامتياز العربى بالسماحة والجود ، وحسن تأت للأمر ، اذا وجد الوجه ، ووجد القائد الحكيم ، فان العربى أنف ، وان أبلغ كلمة في وصف العربى قول الامام عمر رضى الله عنه اذ يقول « مثل العرب مثل جمل أنف فليعلم قائده أين يقوده » .

وبذلك اجتمع في العرب قوة في النفس تقاوم ولا تستسلم ، وصفاء نفس
وقوة مدارك ، احتفظوا بها في جاهليتهم ، كما حافظوا عليها في اسلامهم ،
وذلك مع صدق النفس ، والصدق في القول ، وصدقهم في القيام بالعمل الذي
يوجهون اليه .

وكانوا مع ذلك ذوى أنفوسة ، لا يطبقون أن يعيشوا في ذلة ، بل يتبعون
في هداية ورشد مختارين غير مجبرين ، ولقد جاءت رسالة محمد صلى الله
عليه وسلم ، فهذب نفوسهم وبدت سجاياهم ، وشقوا بها طريق النور
في وسط الظلمات .

١٤ — ان الدعوة الاسلامية تحمل في مغزاها ، أمرين جليين ، والعرب
أصلح الأتوام في عصر الرسالة المحمدية لحملها :

أولهما : العقيدة الاسلامية ، وهي عقيدة التوحيد ، وأن الله تعالى واحد
أحد فرد صمد ليس كمثلته شيء ، وهو السميع البصير .

ثانيهما : الشريعة الاسلامية التي تقوم على مبادئ العدل والمساواة ،
والعزة والحرية ، والكرامة الانسانية ، وقد أشرنا فيما مضى من قولنا الى أن
أصلح الناس في عصر البعثة المحمدية لتلقى مبادئ الحرية والعزة والكرامة
والمساواة هم العرب الذين لم يرهقهم ذل الطاعة للطغاة ، بل اقتضى مطلب
العربي أن يعيش حرا في خبائه آمنا في سريه ، لذته في أن يستقبل الحر ،
ويستبرد بالظل والريح ، وما دام عنده قوت قومه فعنده الدنيا بحذاقيرها .

ولم يكن العربي قد خضع لعادات أهل الحضارات من رخاوة في العيش
أورثتهم رخاوة في الجسم والنفس ، ولم يكن عندهم تقاليد وعادات حضرية
تقف محاجة بين الدعوة وتغلغلها في النفوس ، وسيطرتها على القلوب ،
فنفسهم على الفطرة أو أقرب اليها ، فهي كالصفحة البيضاء صالحة لأن تخط
فيها خطوط العدل والمساواة ، والحرية بكل ضروبها . ومثل البدوي والحضري
المحكوم بالملوك والطغاة أو من يتشبه بهم ، كمثل — صفحتين احدهما خالية

بيضاء تسر الناظرين ، تخط فيها خطوط الشريعة السماوية من غير محو وإزالة
أولا . وهى متقبلة لكل ما يرسم ، والأخرى صفحة مملوءة بالرسوم المختلفة
لا يرسم فيها الجديد النقى إلا بعد محو وإزالة ، وبعدها تبقى مغبرة ، حتى
يصقلها الزمان ، ويمحو منها ما أبقاه الماضى السحيق ، وما له من أثر عميق .

تلك مثل للصفحة العربية ، وهذه مثل للصفحة الرومانية أو الفارسية
أو المصرية أو الخراسانية . وأن الجزء الأول ، وهو العقيدة ، وقد ذكرنا أنها
الوحدانية ، وحدانية الله سبحانه وتعالى والايمان به سبحانه ، ونقول ان
العرب فى عصر البعثة المحمدية كانوا أصلح الناس قاطبة لحمل دعوة التوحيد
لذات الله تعالى وصفاته ، لأن الشرك كان يعم النفوس ، فالرومان كانوا على
مقربة من عبادة التماثيل ، ولما دخلت النصرانية أرضهم شوهوها قبل أن
يدخلوا فيها ، فعبدوا الثالوث المقدس فى زعم النصرارى ، ولم يعرفوا الله
الا وله ولد ، ومعهما روح القدس ، ومثلهم فى ذلك أهل مصر ومن وراءها من
غرب أفريقية .

والفرس كانوا يعبدون النار ، ويتصورون أن المعبود فى النار المشتعلة
وكان من ورائهم فى مشارق الأرض الديانة البrahمية التى آل أمرها الى أن
كانت تعبد كرشنو ، على أنه مولود براهما ، وذلك مع ما ذكرنا من أن الطبقة
متغلغلة فى اعتقادهم على أنها جزء من الدين لا ينفصل عنه .

والبوذية التى انبعثت من البراهمية ، وفارقتها ، وخلصت الى مبدأ
المساواة وهجرت الطبقة وقامت على الزهد المانع لما تتقاضاه الفطرة وتتطلبه ،
ولكن آل أمرها الى وثنية ، فقد صار بوذا يعبد فيها على أنه ابن الاله ، كما
كان الأمر بالنسبة لكرشنو .

ويلاحظ أن هذه الديانات كانت فى بلاد لها حضارة وفيها تقاليد ، فالعقائد
فيها راسخة ثابتة عميقة فى النفوس متغلغلة فى أجزائها ، والقلوب مملوءة بها ،
لا سبيل لتغييرها بيسر ، بل انها تأثبت فى النفس واستغرقتنا ، وتحتاج

لاخراجها منها الى زمان قد يمتد ، لأن الزمان قد ثبتها ، فاحتاج الى زمان
لازالتها .

١٥ — والنفس العربية كانت أقرب الى الاستجابة لدعوة التوحيد من
غيرها من الذين ذكرناهم ، وذلك لأن العرب وان كانوا وثنيين ، كانوا أقرب
الى التوحيد من الفرس والرومان والمصريين ، البراهمة وغيرهم .

اذ أنهم لم يكن لهم عقيدة مستقرة ، كما لم يكن لهم عادات وتقاليد في
نظم الحكم لا تتسع للحرية والنظم الاجتماعية التي جاء بها القرآن ، بل كانت
عقائدهم في الأوثان غير متغلطة في أعماق نفوسهم ، كعقائد النصراني في
الثالوث ، وعقائد الفرس في النار ، وعقائد الصابئة في النجوم ، وعقائد
البراهمة في براهما ، وكشينو ، وعقائد البوذيين في بوذا ، بل كان الغشاء الذي
يغشى صفحة الاعتقاد في نفوسهم واهيا غير صفيق ، وغير ملاصق للنفوس
بحيث يصعب فصله عنها .

وذلك فوق أنهم يؤمنون بأن الله تعالى خالق كل شيء وحده ، وأنه الفاعل
المختار ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين ، وكانوا اذا حزبهم أمر لا يلجأون الا اليه
واذا مسهم مرض لا يدعون غيره ، كما قال الله تعالى : « واذا مس الانسان
الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى
ضره مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ، ويقول تعالى : « هو الذي
يسيركم في البر والبحر ، حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا
بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم
دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجبتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما
أنجاهم اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس انما بغيكم على
أنفسكم ، منع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » .

ويقول سبحانه وتعالى آمرا نبيه بمخاطبة العرب المشركين : « قل من
يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي
من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل .

أفلا تنتقون ، فذاكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون ،
كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم
من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل
هل من شركائكم من يهتدى الى الحق ، قل الله يهتدى للحق ، أفمن يهتدى الى
الحق أحق أن يتبع أمن لا يهتدى الا أن يهتدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع
أكثرهم الا طغيا ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون »
وان هذه الآيات الكريمات تدل على أن العرب كانوا يؤمنون بأن الله تعالى خالق
السموات والأرض ، وهو المدبر ، وهو المنجى عند مشارفة النفس الى التهلكة ،
وأنة الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه لا أحد من شركائهم ، وهم الأوثان ، في
قدرته أن يفعل ما يفعل الله الحكيم العليم ، وأنهم يتجهون اليه وحده في
شدائدهم ، وما ينتابهم من كوارث *

ويدل أيضا على أن عقائدهم في الأوثان تصيب صفحة النفوس ، ولا تتغلغل
في أعماقها ، ولذلك قال الله تعالى عنهم « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن
لا يغنى من الحق شيئا » *

وعقيدة الوجدانية في كمالها تتضمن عناصر ثلاثة ، وهي وحدة التكوين
والخلق ، فالله وحده الخالق المدبر لكل شيء ، ووحدة الذات فلا يماثله في ذاته
وصفاته أحد « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » والعنصر الثالث من
الوجدانية ألا يعبد سواه سبحانه وتعالى *

والعنصران الأولان ثابتان عند العرب ، فهم يذعنون لارادة الله وحده في
الخلق والتكوين ويعلمون أنه لا شيء يشابه ذاته الكريمة *

ولكن مع اقرارهم بوجدانية الخلق والتكوين والذات والصفات يشركون
في العبادة مع الله تعالى الأوثان « ولئن سألتهم من خالق السماوات والأرض
ليقولن الله » واكتهم يقولون مع ذلك : « وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »

١٦ — وعلى ذلك نقرر أن العرب دون غيرهم من معاصريهم كانوا يعرفون

الله سبحانه ، ويعرفون أنه وحده الخالق ، الفعال لما يريد ، وأن ذاته الكريمة منزهة عن مشابهة الحوادث ، وأن صفات الذات العلية منزهة عن أن تكون كصفات الناس أو الأثمياء ، وإذا كانوا منحرفين الى الوثنية فان ذلك في العبادة .

ومن السهل أن تثبت لمن يعرف الله بطلان عبادة غيره ، فان ذلك أسهل بلا ريب عن حمل من لا يعرف الله تعالى على الايمان به ، لأن الأول لا يحتاج الا الى خطوة واحدة وهى بطلان عبادة الأوثان مع الله الخالق المدبر السميع البصير ، وأن هذا يؤيده الحس لأن الحجر لا ينفع ولا يضر .

أما الآخر ، فانه يحتاج الى السير فى خطوتين : احدهما — أن تعرفه بالله تعالى أنه وحده الخالق ، لا الشمس ولا النجم ولا النار ، وليس لواحد من هذه الأثمياء قدرة على الخلق والتكوين ، وليس ذلك سهلا على الواعظ المرشد ، ودخوله الى العقول الجاحدة أشد صعوبة ، والخطوة الثانية اثبات وحدانية المعبود ، وليست فى صعوبة الأولى ، ونقرر هنا أن الذين يقولون أن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولون أن لله ولدا ، لا يعرفون ذات الله تعالى ، ولكى يقنعهم المرشد الى وحدانية الله تعالى يحتاج أولا الى التعريف بالله تعالى وصفاته ، وتلك خطوة ، ويحتاج ثانيا الى نفي البنوة ، ثم يثبت الوحدانية .

وأن العرب كانت فيهم بقية من الحنيفية ديانة ابراهيم ، وقد وصلتهم به الكعبة ومناسك الحج ، فان البيت الحرام الذى كان مثابة للناس وأمنا قد بناه ابراهيم وابنه اسماعيل ، وقامت مناسك الحج على أساس من شريعة ابراهيم عليه السلام ، فكانت بذلك لها نوع من الاستمرار ، ولقد كانوا يقومون بالاحرام ، كما فرض فى شريعة ابراهيم التحريف فى بعض أفاظه . ليقاربوا بهذا التحريف القليل بين ما أثر عن ابراهيم عليه السلام ، وما اعتراهم من انحراف فى الاعتقاد توجه بهم الى الشرك .

وإذا كانت الأصنام قد أحاطت بذلك المعبود الذى هو أول بيت وضع للناس كما قال الله تعالى : « أن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا » ،

فان هذه الأصنام لم تقطع العلاقة النفسية بينهم وبين ابراهيم عليه السلام ،
وان انحرفت بها عقولهم وأفكارهم وحادوا عن الجادة المستقيمة بها •

وان ابراهيم أبا الأنبياء هو أبو اسماعيل الذى يعتز به العرب ،
وأبو اسحاق ومن جاء من ذريته من الأنبياء ، فكان الاتصال النسبى موجدا
لهم عزة ، وملقيا فى نفوسهم بالتأثر الى حد بعقيدته ، وقد كانت عقيدة
التوحيد الخالصة ملته ، وقد ذكرهم القرآن بذلك ، فقال تعالى :
ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ،
وتكونوا شهداء على الناس » •

وأخيرا ان العرب بوجود الاعتراف بالمخالق المنزه عن مشابهة الحوادث
وبانفرادهم بمعرفته مع وجود الوثنية فيهم ، عن غير اعتقاد جازم وعلم قاطع ،
بل على أنه وهم وظن لم يستغرق النفوس ، ولم يصل الى أعماقها • ان العرب
بهذه الحال التى كانوا عليها ، كانوا أقرب الناس لفهم عقيدة التوحيد التى هى
الدعامة الأولى للإيمان ، فلا ايمان بغيرها وذلك مع استعدادهم لكل مبادئ
الاسلام ، فلا غرابة اذا انبثق نور الاسلام فى أرض العرب ، وهبط الوحي بين
ظهرانبيهم ، الله أعلم حيث يجعل رسالته •

تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي ﷺ

١٧ - في التمهيد بيننا أن دين محمد كان دين الانسان في كل بقاع الأرض ، وأن العرب قد انبعث فيهم نور الاسلام لأنهم كانوا أكثر الناس قابلية لمبادئه ، وأصلحهم لحمل أعباء التبليغ بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن صاحب الرسالة الالهية هو خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن تكون دعوته متضمنة معنى الوحدة الاسلامية . وأن يكون خطابه للناس كافة لا للعرب وحدهم ، وأن كان بلسان قومه العرب ، وأول من تلقى الدعوة العرب أنفسهم ، وكانوا أول المخاطبين بها كما قال عليه السلام في خطابه لعشيرته الأقرين « انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة » .

ولنقرأ قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، وانك لتجد النص الكريم يخص ويعم ، يخص العرب بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من أنفسهم وأوسطهم وأعلامهم شرفا ، وأنه عليه السلام يعز عليه أن يضلوا بالاستمرار عنى وثنييتهم وأنه حريص على أن يؤمنوا ، ويرفع عنهم جيت الجاهلية . ويعم المؤمنين أجمعين بأنهم أهل رحمته ورافقه ، لا فرق بين أعجمى وعربى ، ولا أبيض ، ولا أسود ، ولا أحمر ، ولا أصفر ، لأن الجميع طبق عليهم وصف الايمان ، فالرحمة والرفاة بكل مؤمن .

وان أول من أجابوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا من أجناس مختلفة ، لا من العرب وحدهم . روى الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : « أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخديجة ، وبلال ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، والمقداد بن الأسود » وليست رواية الامام أحمد في بيان أول

الناس اسلاما ، انما هي في بيان أول من أظهر الاسلام وأعلنه جهرة أمام قريش مصابرا لأذاهم •

ويلاحظ أن أولئك يمثلون عناصر انسانية مختلفة ، ففيهم الرجال والنساء ، وفيهم الأشراف والضعفاء ، وفيهم الأحرار ، ومن كتب الله تعالى عليهم الرق ، وفيهم العربى والحبشى الأسود ، والرومى من بنى الأصمفر ، ففيهم بلال الحبشى وفيهم صهيب الرومى الذى قال فيه محمد صلى الله عليه وسلم : « صهيب سابق الروم » •

وورد في بعض الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل نبى بعث في قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحر وأسد ، وأن بلالا أول ثمار الحبشة ، وأن صهيبا أول ثمار الروم » •

وعندما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنقبة بأول ثمار فارس سلمان الفارسى الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت » •

فمحمد عليه الصلاة والسلام لا يكتفى باعلان الوحدة في شكلها الاسلامى انعام ، بل يعمل على ادماج الناس بعضهم مع بعض بالموالاتة ، فكان سلمان بحكم الموالاتة لمحمد من آل البيت •

وهكذا نجد عموم الدعوة في الواقع المحسوس ، ولا يكتفى بالقول المكتوب ، أو الخطاب المسموع ، بل يكون العمل هو الميزان الثابت •

١٨ — والنبى صلى الله عليه وسلم لم يحقق الوحدة بدعوته فقط • بل نبثها وأكدها وقواها طول حياته عليه الصلاة والسلام بعدد البعث وذلك أولا — باتصاله عليه الصلاة والسلام بالدول المختلفة ، ولقد ذكر ابن القيم للدعوة المحمدية خمس مراتب :

أولها : النبوة ، وثانيها : انذار عشيرته الأقربين ، وثالثها : انذار قومه ، والرابعة : انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله ، وهم العرب فاطبة ،

ويقول ابن القيم : الخامسة : انذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس الى آخر الدهر ، وأقام صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يدعو الى الله تعالى مستخفيا ، ثم نزل عليه « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة وجاهر بها قومه فقابلوه بالعداوة واثنى الأذى عليه وعلى المسلمين ، حتى أذن الله لهم بالهجرة •

ولنشر بكلمات مبينة لهذه المراتب ، وصحتها بالوحدة الاسلامية الجامعة :

فأولها : النبوة - كما سمي ابن القيم المرتبة الأولى ، وهي التي أعلم فيها محمد صلى الله عليه وسلم مبعثه من الله تعالى لخاصته ، وهى ذوى أصدقائه من أمثال أبى بكر ، ومن دخلوا معه فى دين الله تعالى ، من ذوى الثقة بالنبي صلى الله عليه وسلم الذين أدركوا موضع الحق فى دعوته عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم من نفوسهم الطاهرة المخلصة ما أدركوا الحق بمجرد التنبيه اليه ، وبيان نوره بين أيديهم من غير تلكؤ ، بل كان يكفى لأمثالهم أن ينبهوا الى أن ما هم عليه من عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ليعلموا الهدى من الضلال ، والحق من الباطل ، وكان هؤلاء الذين استجابوا للحق لذات الحق ، مطرحين الباطل الذى علموا بطلانه •

وكانوا يستخفون بعبادتهم ، وبما أخلصوا به لله تعالى ، وكانوا يجتمعون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، واسمه عبد مناف ، ويقول علماء السيرة الشريفة أن عدتهم لم تكن تجاوزت الأربعين أو ذرفت نحوها •

وكان يتمثل فى هؤلاء الأربعين - أو من دونهم عددا الذين آمنوا بالحق بمجرد انبلاجه - المجتمع الاسلامى المؤتلف فكان فيهم قرشيون من كل بطون قريش ، وكان فيهم الأعاجم ، فكان صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وكان فيهم الأشراف كأبى بكر وعثمان وطلحة بن عبيد الله ، وكان فيهم

الضعفاء الذين اختبرهم الله تعالى بالرق للذى استذل أجسامهم ، ونفوسهم
أعلى من نفوس الأحرار كصهيب وبلال ، وعمار بن ياسر وأبيه وأمه سمية الذين
أوذوا في الله من بعد ، حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر عليهم
يقول : « صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » •

أولئك كانوا المجتمع الأول للإسلام ، وهو مجتمع صغير يصور المجتمع
الكبير بعد أن دخل الناس في دين الله تعالى أفواجا ، وبعد أن شرقت الدعوة
الإسلامية وغربت •

وأولئك هم الذين كانوا الأبدال الألهة الذين كان علو الإسلام
بايمانهم •

١٩ — المرتبة الثانية من مراتب الدعوة ، جاءت بعد الأولى ، وكان فيها
عدد المؤمنين ينمو قليلا ويقوى كثيرا ، وقد مكث الاستخفاء كما يقول ابن القيم
نحو ثلاث سنين ، الدعوة في كن سائر ، وخلايا تتولد فيها النفوس ، حتى اذا
قوى الإسلام في خليته الأولى بقوة النفوس ، أمر الله تعالى نبيه بأن يصدع
بالحق ، ليشق بنوره ظلمات الجاهلية ، فقال عز من قائل : « فاصدع بما تؤمر ،
وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها
آخر فسوف يعطون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد
ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » •

وقد ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عشيرته الأقربين استجابة
لقوله تعالى : « وأندر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك
من المؤمنين ، فإن عصوك فقل انى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز
الرحيم ، الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع
العليم » •

وان هذا النص الكريم مع ما سبق يدل على أمرين :
أحدهما — أنه تكونت جماعة الحواريين الذين كانوا يستخفون بعبادتهم

ولا يستعلنون ، وان كانوا مستيقنين مذعنين مؤمنين ، أخذ يتجه الى الأقرب
فالأقرب من المتصلين ، لتكون الدعوة سارية بسنة التدرج فتكون للأقرب ،
وتتسع دائرتها شيئاً فشيئاً ، حتى تعم العالم كله .

الأمر الثاني — أن الابتداء بالعشيرة لا ينفى أن الأولين هم قوام
الدعوة ، وان كان فيهم ضعفاء ، ولذا قال سبحانه : « **واخفض جناحك لمن
اتبعك من المؤمنين** » وكررها في الآيات الثانية ، والآيات الأولى ليبين سبحانه
أن دعوة الأشراف لا تنسى الضعفاء ، وأنه يجب تأليف القلوب عامة ، وتقريب
النفوس كما قال تعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ
القلب لانفضوا من حولك** » .

والمرتبة الثالثة قريبة من المرتبة الثانية ، لأنها لقومه ، والقوم هم
الأسرة الأوسع ، كما أن العشيرة هي الأسرة الأقرب ، وبذلك تتدرج الدعوة
من الأسرة الصغرى الى الأسرة الكبرى ، وقال تعالى : « **أقصد جاءكم رسول
من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** » فان
تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

وفي الأمر بالتوكل من قوله تعالى : « **وتوكل على العزيز الرحيم** »
وقوله تعالى : « **عليه توكلت** » اشارة الى أن الابتداء بالعشيرة وقومه ،
لا للنصرة بهم ، لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم ، انما هو للتدرج في
الدعوة من القريب الدانى الى البعيد النائي ، ولتأليف الجماعات المتنافرة .

ففى دعوة قومه من قريش يحاول تأليف البطون المختلفة من بطون
قريش المتنافرة ، وفى اتباع بعض هؤلاء متناسين تنافر العصبية الأولى —
انشاء للوحدة ، وتأليف للقلوب .

وفى المرتبة الرابعة كانت الدعوة للعرب الذين ما أتاهم من نذير من قبل
محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس المعنى أنهم لم يأت اليهم نبي من قبل
الآن الله تعالى يقول : « **وان من أمة الا خلا فيها نذير** » ، وانما المعنى أن

الأنبي صلى الله عليه وسلم جاءهم على فترة من الرسل ، ونسوا التوحيد والبعث والنشور ، وان لم ينسوا الله .

وقد كانت الدعوة حينئذ للعرب أجمعين الذين فرقتهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم العصبية المتنازعة ، وكان لا بد أن يلتقى بالقبائل ، ويخرج من حيز مكة الى حيث مختلف القبائل والمنازع .

التقاؤه بقبائل العرب في موسم الحج :

وبعد أن آمن من آمن بمكة ، وعادى دعوة الاسلام من عادى ، وتحمل المؤمنون الصادقون ما تحموا ، وآذى المشركون الضعاف من قريش الذين ليس لهم عصبية تحميهم ، ولا قرابة تدفع عنهم حتى أنه لم يمنع الأذى الشديد والاستهزاء العنيد عن بعض الكبراء ممن آمن من قريش ، وكانت الهجرة الى الحبشة مرتين ، بل مع هذا الايذاء المتضافر ، والاستهزاء المتلاحق لم ين محمد صلى الله عليه وسلم عن الدعوة ، وتكوين الائتلاف العربى الذى تمحى فيه العصبية الظالمة والعنجهيات الجاهلية ، وأخذ يعمم الدعوة بعد التخصيص ، ويجمع القلوب المتنافرة ، والأهواء المتناحرة ، أخذ عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، ابتداءً فذهب الى الطائف فردوه عليه السلام رداً نكراً ، وبعد ذلك عاد عليه السلام الى مكة ليواجه الأذى بعد أن كلبت عليه قريش ، وأعلنت خلافه ، وناوأته وأخذت تكيل الأذى للمستضعفين ، بل لغير المستضعفين أيضاً ، من أمثال أبى بكر وغيره ، من الذين آذاهم الشرك بقوة طاغوته ، وان لم يكونوا فى عشائهم فى أنفسهم الضعفاء .

أخذ عليه السلام يتعرض للقبائل المختلفة فى موسم الحج يدعوهم الى الله تعالى ، ويثبت صدق دعوته للقبائل قبيلة قبيلة ، فيقول لكل قبيلة : « يا بنى فلان ، انى رسول الله تعالى اليكم يأمركم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله تعالى ما بعثنى به » .

وبينما النبى يدعو القبائل بدعاية الله تعالى ، ويخاطب القبائل بدعوته

كان من ورائه من يصد عن سبيل الله تعالى ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب .

أتى عليه السلام كندة في منازلهم في الحج ، وأتى بنى حنيفة ، ولم يكن من هؤلاء ولا أولئك سميع يستمع الى الحق ، ويجيب داعيته ، ولم ييأس عليه السلام ، فلم يكن اليأس من ديدن الرسل المبعوثين رحمة للعالمين ، الجامعين لوحدة الانسانية ، بل استمر دائبا قاضيا بدعوته على المنازع الجاهلية والآثرة التي تفرق ولا تجمع .

يروى في ذلك أنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم : لو أتى أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب . ويظهر أنه كان ذا فراسة ولكن لم يكن موفقا .

قال مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت ان نحن بايعناك عنى أمرك ثم أظهرك الله تعالى على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعد ، قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، قال الرجل : أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، فلا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

كانت هذه الاجابة من الرجل دالة على العصبية المفرقة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء لجمع القلوب . ودالة على الآثرة المقاطعة ، والآثرة تفرق ما بين الأحبة وتتأى بالآثرين عن الاستجابة للحق .

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته الى القبائل يرغبهم في دين الحق ، ويرغبهم في الوحدة الجامعة للمؤمنين ، ويجابه العصبية في مراتبها .

٢٠ — ولنذكر طرفا مما يدل على دعوة النبي صلى الله عليه وسلم الى الائتلاف بدل الاختلاف ، والى الوحدة بدل الوثنية ، جاء في الروض الأنف في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بنى ذهل بن ثعلبة يقول فيما روى :

دفعنا الى مجالس ، عليهم السكينة والوقار فتقدم أبو بكر ، وكان مقدما في كل خير ، فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من بنى شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر في قومهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك (رجال منهم) وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالا واسانا وكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر .

فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال له مفروق : انا لنزيد على الألف ، ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

قال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

فقال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : انا لأشد ما نكون غضبا حين نلتقى ، وانا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقحاح ، والنصر من عند الله ، يدينا مرة ، ويديل علينا ، لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أنه رسول الله ؟ فما هو ذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك يا أخا قريش .

فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أدعو الى شهادة أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأنى رسول الله ، والى أن تؤوونى وتتنصرونى . فان قريشا قد ظاهرت على أمر الله تعالى ، وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال مفروق : والام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « قل تعالوا أتدل
ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا
أولادكم من أطلاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها
وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به
لعلكم تعقلون » *

قال مفروق : والام تدعو أيضا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله يأمر بالعدل والاهسان
وأينساء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم
تتقون » *

فقال مفروق : دعوت والله يا أبا قريش الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن
الأعمال ، والله لقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ، وهذا هانىء بن قبيصة
شيخنا ، وصاحب ديننا *

فقال هانىء : قد سمعت مقاتك وأتى أرى ان تركنا ديننا ، واتبعناك
على دينك ، لمجاس جلسته الينا - زلة فى الرأى ، وقلة نظر فى العاقبة ،
وانما الزلة تكون مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكروا أن نعقد عليهم عقداً ..
ولكن نرجع وترجع ، وننظر ، وننظر .. وهذا المثنى بن حارثة شيخنا
وصاحب حربنا *

فقال المثنى : قد سمعت مقاتك يا أبا قريش ، والجواب هو جواب
هانىء ، فى تركنا ديننا واتباعنا اياك لمجس جلسته الينا ، ليس له أول
ولا آخر ، وانا بين صريان اليمامة وسماوة *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذان الصريان ؟ » *

فقال المثنى : أنهار كسرى ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرى

فذنّب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنّب مغفور ، وعذره مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى أنا لا نحدث حدثا ، ولا نؤوى محدثا ، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعوننا إليه هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسأتم فى الرد ، إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله إن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، رأيتم أن لم تلبثوا إلا قليلا ، حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ، ويغرنسكم نساءهم ، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟ »

فقال النعمان بن شريك من كبرائهم : الله لك ذا .

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا » .

٢١ — وقد ذكرنا هذا الخبر مع طوله ، كما ذكرنا غيره من قبله . لنعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم انتقل بالدعوة من حيز قريش إلى العرب قاطبة ، بدعوة عامة ، لينذر أولئك الأقوام الذين ما أتاهم على قريب من زمنه نذير من قبله ، ولأنه يريد أن يجمع على الرسالة المؤمنين جميعا ، لا فرق بين قرشى ، وغير قرشى ، ولتعم دعوته القاصى والدانى ، ليوجد ابتداء أهل الجزيرة ما كان منهم مصاقبا للروم ، وما كان مصاقبا للفرس . وحتى تصل إليهم أخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، همسا ، أو حديثا بين الأهلين ، قبل أن تأتيتهم الدعوة الجهيرة من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ تكون بعد أن تكون النفوس قد استشرفت لها ، وتسللت إليهم أخبارها .

ولنعلم أن السبيل أمام الرسول الذى هو من أولى العزم من الرسل ،

لم يكن ذللاً ، بل كان وعثاً تدعثره العصبية ، والأثنية ، وغلبة الشقوة عند بعض من يدعوهم .

فقد دعا أهل الطائف فعاندوه ، ودعا بعض الوافدين الى الحج ، واختلط بالقبائل في أسواقها فممنهم من أعرض ونأى بجانبه ، ومنهم من غلبت عليه الأثرة ، فاشتراط لاتباعه أن يكون الأمر من بعد محمد في الجزيرة العربية له ولقومه ، ومنهم من استنقام للحق ، وأدرك مغزى الدعوة ومراميتها وغايتها ، وقرر أن الملوك لا يقبلون مثل هذه المبادئ ، وتحفظوا في الاجابة ذلك التحفظ لأنهم أعطوا كسرى عهداً ، ألا يحدثوا أمراً ، أو يجيبوا محدثاً الا بعد أن يعرض عليه ، وقد بين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه داعية يمثل دعوته وأنها دعوة عامة لأنها رسالة الله تعالى لا يعلو عليها ملك مسيطر ، ولا تجفو عن رعايا مستضعفين ، وعندئذ أحسوا بمرارة السيطرة ، وبجبوح العزة والارادة الحرة المختارة .

وان ذلك يزكى عموم الدعوة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم على جمع الفريغين المتنازحين والمتناحرين . ولقد مكث عليه السلام يدعو العرب في جموعهم في أثناء موسم الحج زهاء سفتين أو تزيد ، حتى عمت الدعوة وتذاكرت بها الركبان ، وسرى أمرها في البلاد العربية سريان النور ، ومع هذه الدعوة النبوية كانت الدعوة الى الوحدة من القرشي الذي كانت قبيلته فوق القبائل فخاراً وشرفاً ومحتداً ، ولكن محمداً الداعي يرى الجميع أمام الله تعالى وأمامه سواء ، لا فرق بين قبيل وقبيل ، ولا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ولا بين حر وعبد ، ولا عربى ولا كسرى .

ولقد قال ابن اسحاق في السيرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل الى الله تعالى : والى الاسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، وهو

لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ، الا تصدى له ، فدعاه الى الله عز وجل ، وعرض عليه ما عنده » •

فكان عليه السلام ما كان ينتظر موسم الحج فقط بل يتتبع الواحدين طول العام ، ولا يجد امراء مسموع الكلمة في قومه الا التقى به لينبئ من وراءه من الأشراف والضعفاء ، لا يبنى عن جمع العرب حول كلمة الله تعالى بعد أن حملها معه الحواريون الأولون •

إلى يَثْرِب

٢٢ — في أثناء عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل كان المعارضون له أكثر من الموافقين ، والمناوئون أشد عليه ممن سالموه ، ولكن قوما من يثرب كانوا أسرع الى الايمان من المناوأة والاعتراض .

ذلك أنهم كانوا في فرقة وانقسام ، كان الأوس فيهم والخزرج ينتقاتلون ، وكانت الحرب بينهم شديدة تفرق جمعهم ، وتذهب بوحدتهم فجاءوا الى مكة يعقدون حلفا ، ليعين القرشيون الأوس على الخزرج .

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فرأى أن يستمعوا اليه بدل أن يعقدوا حلفا يزيد العداوة بينهم ، ويؤثرها ، ولا يطفئها ، فدعاهم الى الاسلام الموحد لجمعهم ، وتلا عليهم القرآن الذى نزل رحمة للعالمين .

فوجد سميعا من عدد ضئيل منهم ، ولكنه عليه السلام لم يبأس منهم لأنهم كانوا قد أوتوا بعض العلم بالنبوات ، مما جاء على ألسنة أعدائهم اليهود الذين كانوا اذا اعتركوا معهم ، وعضتهم الحرب بناهاها هددوا أولئك المشركين بنبي حان حينه وأدركهم ابانه ينصرهم على المشركين .

وكان عليه الصلاة والسلام يتزقب وفود الحجيج ، ويأنس بالوافدين من يثرب ويستشرفهم . ويقول ابن اسحاق : « فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذى لقي فيه النفر من الأتصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما يصنع في كل موسم ، وبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله تعالى بهم خيرا .

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من موالى يهود ؟ قالوا : نعم ،
فقال عليه السلام : ألا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا فدعاهم الى
الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن •

ويقول ابن اسحاق : كان مما صنع الله تعالى عليهم فى الاسلام أن يهود
كانت فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم على الشرك وأصحاب
أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم ان
نبيا مبعوث الآن قد أطل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم •

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم الى الله
قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود ،
فلا تسبقنكم اليه • فأجابوه فيما دعا اليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض
عليهم من الاسلام ، وقالوا له : انا تركنا قريتنا ، وبينهم من العداوة والشر
ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله تعالى بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم الى
أمرك ونعرض عليهم الذى أجبتك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله تعالى ،
فلا رجل أعز منك •

عادوا الى قومهم من الخزرج ، وحاولوا أن يتصلوا بأعدائهم من الأوس ،
لأنهم جاءوا بأمر جامع لا يفرق بين العناصر بل يجمع الأخوة فى الاسلام ،
فلا تكون ثمة الدعوة الجاهلية •

العقبة الأولى :

٢٣ — فى الموسم التالى جاء قوم من يثرب فيهم من الخزرج الكثيرون ،
ومن الأوس من دون ذلك عددا ، وان كانوا جميعا أقوىاء فى دينهم ، وكان

عنى رأسهم جميعا اثنا عشر نقيبا ، وقد بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على الأخذ بمبادئ الاسلام ، وقد سمي علماء السيرة هذه البيعة « بيعة النساء » . عن عبادة بن الصامت : كنت فيمن حضر البيعة الأولى ، وكنا اثني عشر ، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، قبل أن يفترض علينا الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئا . ولا نسرق ولا نزنى . ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا ، ولا نعصيه في معروف . ويقول الرسول : « فان وفيتم فلکم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شريئا . فأمرکم الى الله عز وجل ، ان شاء غفر وان شاء عذب » .

وعلى صاحب الروض تسمية البيعة في العقبة الأولى بيعة النساء . لأنها تتشابه مع ما طالب الله به من مبايعة النساء من بعد ذلك عام الفتح ، فقد قال تعالى في سورة الممتحنة :

« يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ألا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف فبايعهن ، واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » .

ويظهر على هذا أن تلك التسمية لم تكن وقت البيعة ولكن جاءت بعد ذلك لانعقاد المشابهة بين البيعتين . وذلك لأن بيعة النساء كانت بعد الهجرة إذ أنها كانت عند الفتح .

ولقد كانت تلك البيعة الطريق الى نفوذ الاسلام الى يثرب ، واتجاه أهلها اليه ، ولقد أرسل معهم صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير يعلمهم الاسلام وأركانه ويقرئهم القرآن ، ولذلك كان أول من سمى مقرئا : وشاع الاسلام في الأوس والخزرج ، حتى أنه ما كان بيت من بيوت الأوس والخزرج الا دخله الاسلام ، فكان لمحمد صلى الله عليه وسلم تابعون يدعون بدعايته بعد أن استجابوا لندائه .

.. وهنسا نجد الظاهرة الكبرى التي رحم الله تعالى بها أهل يثرب ، فقد اجتمعوا بعد افتراق وحرب ونزاع بين الأوس والخزرج ، وكان يوم بعث الذي قتل فيه بعضهم بعضا ، والاتصال بالنبى صلى الله عليه وسلم يأخذ طريقه ، وهم يأخذون طريقهم الى الشرع الاسلامى ، فكان نور الاسلام مؤلفا للقلوب ، ومزيلا لكل العصبية الجاهلية *

وظهر على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام الجامع المؤلف للقلوب الموجه للمجتمع *

العقبة الثانية أو بيعة المنعة والحرب :

٢٤ - وتسمى البيعة الكبرى ، لأنها التي حتمت الاتصال بأهل يثرب قبل انتقال النبى صلى الله عليه وسلم ، وهجرته الى المدينة ، وقد علمنا أنه عقب البيعة الأولى أرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى أهل يثرب مصعب ابن عمير يشرح لهم الفرائض الاسلامية ، ويقرأ القرآن ويدعو الى الاسلام ديننا وآخذا بقول الله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ومضت سنة على وفادته واقامته ، ثم عاد الى النبى صلى الله عليه وسلم ليتزود منه ب زاد التقوى ، وخرج من خرج من المسلمين الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار ، وكان معهم حجاج من قومهم الذين بقوا على الشرك * ولكن اختص المسلمون منهم أنفسهم بالعمل على لقاء النبى صلى الله عليه وسلم فترعدهم عليه الصلاة والسلام أن يلقاها بالعقبة فى أوسط أيام التشريق بمنى * وكانوا ثلاثة وسبعين *

واجتمع بهم عليه الصلاة والسلام ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب الذى فرض على نفسه حمايته من أذى قريش بعد عمه أبى طالب ، فقد ذهب معه يستوثق ، فلما كان اللقاء كان أول من تكلم العباس رضى الله عنه *

قال العباس : يا معشر الخزرج (يريد الخزرج والأوس) ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز

من قومه ، ومنعة من أهله ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم والحق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك * وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه * فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده ، فقاتلوا : قد سمعنا ما قلت * فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت *

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا القرآن الكريم ، ودعا الى الله تعالى ، ورغب في الاسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم » *

قال البراء بن معرور من كبرائهم : « نعم والذي بيعتك بالحق لنمنع مما نمنع منه ذراريها ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرا عن كابر » *

وقال أبو الهيثم بن التيهان من كبرائهم : « يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا (يعنى اليهود) وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، ترجع الى قومك وتدعنا » *

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » * قال ابن هشام في سيرته « يقال الهدم الهدم ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم » *

وقد طلب رسول الله أن يخرجوا من بينهم اثني عشر نقيبا ، فأخرجوا منهم أولئك النقباء ، وكان من الخزرج تسعة لكثرتهم ، ومن الأوس ثلاثة ، لأنهم كانوا في الحبحب دونهم عددا *

وقد قال ابن اسحاق : كانت البيعة في العقبة الأولى بيعة النساء وكان فيها « بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة

علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله
نومة لائم » •

وفي البيعة الثانية ، قال ابن اسحاق : بايعهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم على حرب الأحمر والأسود ، وأخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ،
وجعل على الوفاء بذلك الجنة •

بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على الايواء والمنصرة والمعونة ، وكان
أول من مد يده للبيعة البراء بن معرور ثم تتابع الإثنا عشر نقييا ، ومن
وراءهم ، حتى تمت البيعة ، واستوثق صلى الله عليه وسلم لنفسه ولدينه •
وجمع الله تعالى المختلفين ، وألف بذلك بين قلوبهم •

الهجرة

٢٥ — أخذ المسلمون يذهبون أرسالا الى المدينة (يثرب) زرافات
ويوحدا فارين بدينهم من الأذى والفتنة ، وتتابخوا في ذلك ، والأئصار من
الأوس والخزرج يؤوونهم وينصرونهم •

وقد هاجر الكثيرون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم
من هاجر مستخفيا ومنهم من هاجر في غير خفاء ، ولكن غير معلنين ، الا عمر بن
الخطاب ، فانه استعلن هجرته ، وخرج الى ظاهر مكة وقد لبس لأمته وشد
عنزته ، وقال : شامت هذه الوجوه ، وأرغم الله تعالى هذه المعاطس ، من أراد
منكم أن تتكلمه أمه ، وبيئتم ولده ، وترمل امرأته فليقلني وراء هذا الوادي •
كما قال عنه على كرم الله وجهه في ذلك •

والنبي قد علم أنه مهاجر لا محالة ، ولكنه ينتظر اذن ربه ، وكان صاحبه
أبو بكر يهم بالهجرة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يؤجله فيستأذن النبي
صلى الله عليه وسلم فيها فيحجزه ، وقال له : « لا تعجل لعل الله يجعل لك
صاحبا » فطمع أبو بكر في أن يكون صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ،
وبذلك استأنى ، حتى أذن للنبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة عقب اجتماع
الملا من قريش لينتساوروا في أمره بعد أن تسامع العرب بدعوته ، ووجد
المستجيبين وخصوصا من الأوس والخزرج ، وكانت بعض القبائل تتسارع
اليه ، وان لم تكن في قوة أهل يثرب الذين أحسنوا له المقام ، وآورا ونصروا •

اجتمع الملا من قريش في دار ندوتهم ، ودارت بينهم المناقشة : أيقتلونه
أم يخرجونه ، أو يثبتونه (يجبسونه) ؟ وانتهى أمرهم الى أن يقتلوه بأن
يخربوه ضربة رجل واحد ، حتى تتوزع القبائل دمه • فتعجز عن الشار

أسرته وتقبل الدية ، ويذهب ما أهمهم من أمره ، وهذا هو ما أشار إليه الله تعالى في قوله : « **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين** » كانوا يدبرون في أمر القضاء على الدعوة بأى طريق من طرق القضاء ، والله سبحانه مدبر أمر رسالته وحافظ رسوله الأمين ، ليؤدى الرسالة •

وقد هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أن أخذوا في تنفيذ ما استقر رأيهم عليه واعتزموه الى آخر ما هو مذكور عن الهجرة النبوية ، وما اكتنفها من صعوبات ، في تنفيذها وما انتهت اليه من استبشار المؤمنين بمقدمه المبارك على أهل يثرب •

وان الذين يقرون الأزمان بالوقائع التي كانت فيها يحسبون أن السبب هو ارادة القتل ، لأن الهجرة اقتترنت بها •

ويجب أن نقول أن الاقتران الزمني هنا لا يفيد أن ارادة القتل هي السبب الباعث المباشر ، بل انه مجرد اقتران زمني ليس فيه سبب ومسبب وأن السبب هو أن أرض مكة ، وان كانت صالحة لتربية الخلية الأولى لأنصار الدعوة ، فليست صالحة لحياتها وقوتها وسيطرتها بحيث تتكون منها دولة الاسلام الأولى ، فان الخلية الأولى تكونت لأنه كان بمكة ضعاف أقوياء في ايمانهم ولكنهم قليل بجوار أهل مكة ، فكانت غير صالحة لأن تقوم فيها دولة اسلامية ، لأن السيطرة عليها كانت للوثنيين •

وكان زعماءها قد سيطرت عليهم العصبية والرغبة في بقاء سيظرتهم وألا يحكمها دين غير ما ألفوا مما عبد الآباء •

هذا هو الأمر ، ولذلك اتجه النبي صلى الله عليه وسلم الى الخروج من البلد الحرام • وان كان أحب بلاد الله تعالى اليه وآلفها له ، وهى في نفسها أرض مباركة وان كان الشرك يقيم فيها •

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في السننين اللتين سبقتنا الهجرة يدعم

دعائم تكوين الهجرة بل تكوين دولة أخرى خارج مكة ، واتجه الى يثرب ، وما كانت البيعتان الا تمهيدا للهجرة النبوية ، فكانت البيعة الأولى لبث النظم الاسلامية ، التي يقوم عليها بناء الدولة القويمة المانعة للفواحش فان هذه الفواحش التي تمت البيعة على أساس ابعادها ، انما هي انهيار للأخلاق ، والدولة الفاضلة لا تقوم على بنيان منهار تخر قواعده من الأخلاق الفاسدة .

والبيعة الثانية كانت لتكوين الدولة بالذود عن حياضها ، وفي الحق أن البيعتين كانتا لتكوين الدولة الفاضلة ، أو المدينة الفاضلة ، كما يعبر الفلاسفة ، فان الدولة تقوم على الحماية الذاتية : وأن تكون لها شوكة ، وأن محاربة الفساد في الداخل ، والعدو في الخارج هما الدعامة لتكوين دولة لها قوة تحمي الذمان .

وأن الهجرة كانت أمرا لازما لتنفيذ أحكام الاسلام الشرعية في المدينة والأسرة ، وما يمكن محمدا صلى الله عليه وسلم والسلطان ليس في يده أن يقيم دولة تنفذ الأحكام الشرعية فتمنع شرب الخمر وتعاقب عليه وتحد انزاني والسارق والقاذف ، وتقتص من الجاني في عدالة من غير وكس ولا شطط .

٢٦ — كانت الهجرة اذن أمرا لا بد منه ، وهي دور من أدوار الدعوة الاسلامية ، ودور من أدوار تكوين الوحدة الاسلامية ، يجتمع المسلمون جميعا في دولة اسلامية لا تحكمها العصبية الجاهلية ولا الغطرسة الجاهلية ، ولكن يحكمها عدل الأحكام الشرعية القائم على المساواة في الحقوق والواجبات .

ولقد أوجب القرآن الكريم على كل مسلم أن يهاجر الى حيث المجتمع الاسلامي الذي يحكم بحكم الله لا بحكم الطاغوت ، وأن الأثليات الاسلامية التي تكون بعيدة عن المجتمع الاسلامي الموحد يجب عليها الهجرة اليه لتعزز بعزته ، ويقوى هو بانضمامها ، وهجرتها ، ولقد قال سبحانه وتعالى في ذلك بحث على الهجرة المستضعفين :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا • الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا • فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا • ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » •

وان هذه الآية الكريمة توجب على المسلم الهجرة الى الجماعة الاسلامية حيث النصر والمنة ليعيش فى عزها ويستظل بظلها ، وأنه يظلم نفسه ان لم يهاجر الى حيث الجماعة الاسلامية الا أن يكون من الضعفاء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا • وتدل الآية أيضا عن أن من خرج مهاجرا الى الله تعالى لنصرة الجماعة الاسلامية ثم أدركه الموت ، فان الله مجازيه على نيته التى صاحبها العمل ، وأجره عليه سبحانه •

وأن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، علمت كل مستضعف من المسلمين الطريق الى الجماعة ، وهى الهجرة ، حيث الوحدة ، والعزة المانعة •

وأن الدخول فى الولاية الاسلامية التى هى الجماعة الاسلامية وحكومتها سبيله الهجرة ، وانها واجبة ، ويقول سبحانه وتعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » •

وأن الميثاق يجب أن يكون متناولا حماية المسلم ، فليس لحاكم مسلم أن يعقد ميثاقا مع أى جماعة اسلامية يكون فيها تسليم المؤمن أو خذلانه ، والا نبذ عهده ، ورد اليه ميثاقه ، فالاستثناء لكىلا يكون القتال قبل التذكير بالميثاق فان لم يمتنع عن ظلم المسلم ، رد اليه عهده ، ونصر المسلم « فالسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ولا يسلمه ، ومن كان فى عون أخيه كان الله فى عونه » •

ومن هذا نجد أن الهجرة التي ابتدأها النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي لتجميع المسلمين في ظل دولة الإسلام ليحمى المؤمن ، ولينفذ أحكام الله تعالى ، وليطرح حكم الطاغوت قويا أميناً .

فكانت هجرة النبي وهجرة من اتبعه ، كانت في سبيل تكوين الوحدة الإسلامية وحمل راية الجهاد مجتمعة مؤيدة بروح من الله تعالى وبِعِزَّةِ الوَحْدَةِ التي لا تفرق ، ولذلك دعا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم المؤمنين الى الهجرة حيث النصر والمنعة ، فقال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

وبهذا يتبين أن التجمع الإسلامي في ظل دولة الإسلام هو أساس العزة الإسلامية للمستضعفين في الأرض حيث ينقلون الى دولة التوحيد ، وهذا كله يدل عليه ظاهر القرآن ، ويدل عليه مقصد الإسلام من تجميع المسلمين .

٢٧ - وقد وردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه منع من إقامة المسلم بين المشركين ، فقد جاء في كتاب (زاد المعاد في هدى خير العباد) لابن القيم ما نعه :

« منع رسول الله من إقامة المسلم بين المشركين اذا قدر على الهجرة ، وقال : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين . قيل : يا رسول الله ، ولم ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تراءى ناراهما » وقال عليه الصلاة والسلام « من كان مع المشرك وسكن معه فهو مثله » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تنقطع الهجرة ، حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ستكون هجرة بعد هجرة فخييار أهل الأرض أئزهم مهاجرا ويبقى في الأرض شرار أهلها ، تلفظهم أرضوهم ، تقذروهم نفس الله ، ويحشرهم مع القردة والخنازير » .

وأن هذه الآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم تبين مع الآيات الكريمة الدالة على وجوب الهجرة للقادرين عليها . والا كانوا ظالمين

لأنفسهم ، ولا يرفع الاثم الا عن المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا •

وقد يقول قائل : كيف يأمر القرآن بالهجرة المستمرة وبالخروج من بين غير المسلمين والاقامة بين المسلمين لمعاونة جمعهم ، وليستظل بلوائهم ولنكون موالاة المسلم وحده ، وقد ورد في بعض الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا هجرة بعد الفتح » ونقول في الجواب عن ذلك : ان ذلك الخبر لا يمكن أن يكون معارضا للأخبار المتضافرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي روينا ، ولا معارضا للقرآن الكريم وانه لكذلك غير معارض ، لأن الفتح في الخبر المراد به فتح مكة ، وأن الهجرة التي نفاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي الهجرة من مكة الى المدينة ، وهي بلا ريب منفية في موضوعها وذاتها ، لأن الهجرة من مكة الى المدينة كانت من أرض الشرك الى أرض التوحيد ، ومن أرض الفتنة الى أرض الأمن ، وبعد الفتح صارت مكة أرضنا اسلامية خاضعة للولاية الاسلامية في المدينة ، والاسلام قد أزر انبيها ، واطمأن بها ، وبقي أنها حرم الله تعالى الآمن ، وقبله المسلمين الى يوم القيامة ، فكيف تكون منها هجرة من بعد الفتح ، الا أن يراد تخريبها ، هي أحب أرض الله تعالى اليه سبحانه ، والى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، فالنفي الذي ورد في الخبر عنه عليه الصلاة والسلام مقرر الأمر ثابت ، وهو أنه لا يتصور بعد الفتح هجرة من مكة الى المدينة •

وخلاصة القول في باب الهجرة الذي لا نقصره على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من بسط القول • وانما نقصد هجرة المسلم الى أرض الاسلام ليكون التجميع الاسلامي الذي تقتضيه الوحدة المقررة الثابتة ، والتي عمل لها النبي عليه الصلاة والسلام • من وقت مبعثه الشريف الى أن قبضه رب العالمين اليه •

ما بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم :

٢٨ — ونعود كما بدأنا الى هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأينا أنها كانت لتجميع المسلمين ولاقامة دولة اسلامية تنفذ أحكام الاسلام ،

وتقييم الحدود ، وتأخذ من الظالم لالمظلوم ، وانها سنة التجميع التي سنها
النبي صلى الله عليه وسلم . ونعود الآن الى آثار الهجرة المحمدية على صاحبها
المفضل الصلاة وأتم التسليم .

وهنا نجد أن أول أثر لها كان جمع العرب في صعيد واحد متكلف بالوحدة
الاسلامية . فقد كان المسلمون من عناصر عربية مختلفة من كل بطون مكة ،
ففيهم من يمثل كل بطن من بطون قريش ، وفيهم من قبائل العرب الذين دخلوا
في الاسلام في أثناء عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل ، فكان
كل مسلم من أى قبيلة يجد أن من كمال ايمانه أن يعيش في بيئة الاسلام ،
ومدينة يثرب التي صارت مدينة الاسلام ومجتمعه الذي أرز المسلمون جميعا
من بلاد العرب شمالها وشرقها وجنوبها . وقد رأيت خبر الذين يجاورون
كسرى في أرضهم ، وأنهم ارتبطوا معه بالموثيق ، وما تحلوا منها أو هموا
بالتحلل منها الا أن علموا أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة .
وتلا عليهم الرسول النص القرآنى الذى يصرح بأنه مبعوث للناس كافة بشيرا
ونذيرا .

وقد جاء الى المدينة من أسلم من غير العرب ، وحسبك أن يكون سلمان
الفارسى الممثل لأهل فارس في الاسلام ، وقد روينا لك قول النبي صلى الله
عليه وسلم الذى يفيد أن أول ثمرة من ثمار الروم صهيب ، وأول ثمرة من
ثمار الحبشة بلال ، وأنا بالقياس نقول ان أول ثمرة من ثمار الفرس بل
ما وراء خراسان وما وراء النهر وسمرقند هو سلمان الفارسى ، وحسبه شرفا
وفضلا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، ألحقه بأسرته اذ كان قد ترك أسرته
المجوسية ، ودخل في الاسلام الأسرة الكبرى ، وقال صلى الله عليه وسلم :
« سلمان منا آل البيت » ، وهما من اضافة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونعما
ذلك التكريم لسلمان الذى كان في صدر الاسلام أمة وحده .

المؤاخاة :

٢٩ — كان لابد من جمع العناصر المختلفة ، والمزج بينها ، ليخرج من
تلك العناصر مزيج متحد في خواصه وأوصافه ، ويختلف عن أوصاف كل عنصر

من عناصر ذلك المترج ، والأوصاف الجديدة لهذا المزيج هي أمة اسلامية موحدة في الغاية والمقصد والاتجاه الى الله تعالى ، والقيام بالاصلاح في الأرض • ومنع الافساد فيها ، وأن يكونوا أهل المدينة الفاضلة الانسانية •

وأول عمل قام به عليه الصلاة والسلام هو مزج هذه العناصر بعضها ببعض وايجاد قوة متألّفة من بينها الاخاء أو المؤاخاة بين المسلمين جميعا ، عربهم ، وأعاجمهم ، وأبيضهم وأسودهم •

فلم يكن الاخاء لمجرد المؤانسة بينهم ، وايناس الغريب بمن آواه ، وان كان ذلك في ذاته غرضاً مقصوداً ، ولكن المراد من الاخاء وضع الدعامة لبناء وحدة اسلامية متجمعة غير متفرقة ، ومتحدة غير منقسمة ، ومؤتلفة غير متنافرة • وفوق ذلك فيه بث روح المعاونة بين أولئك المؤتلفين ، وذلك بتكوين أخوة دينية تقارب الأخوة النسبية •

اجتمع في بيت أنس بن مالك المهاجرون والأنصار ، وقد أحصى ابن القيم عددهم فقال انهم تسعون ، منهم من المهاجرين خمسة وأربعون ، ومن الأنصار مثلهم ، ونحسب أن الاحصاء مقرب لا معين ، لأنهم قد يزيدون •

وقد ألف بين كل واحد من المهاجرين ، وأخ له من الأنصار بأخوة تكون مثل أخوة النسب ، وكان الأخ الأنصاري يشاطر أخاه ماله ، وتغلّغت الأخوة في النفس ، حتى هم بعض الأنصار ممن له زوجتان أن يطلق احدهما ويزوجها لأخيه المهاجر • كما تذكر كتب السيرة أن تلك المؤاخاة كانت تجعل الأخ بالمؤاخاة في رتبة الأخوة النسبية •

واستمرت حالة الميراث على ذلك الى أن نزل قوله تعالى : « **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** » •

ونحسب أن آيات المواريث مع هذه الآية كانت هي المنهية للتوارث بالمؤاخاة •

٣٠ — المؤاخاة رويت فيها روايتان ، أولاهما : أنها كانت بين المهاجرين والأنصار فقط ، ولم تكن في المهاجرين فيما بينهم ولا في الأنصار فيما بينهم ، وهذه الرواية تجعل المؤاخاة كانت موضعية فيما بين الأنصار والمهاجرين لكي يتم الايواء ، وليتحقق قول الله تعالى في الأنصار والمهاجرين : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصانقون ، والذين تبوءوا الدار والايامن من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » *

الرواية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض ، وقد ضعف هذه الرواية ابن القيم في زاد المعاد ، وقال في ذلك : قيل انه آخى بين المهاجرين بعضهم وبعض مؤاخاة ثابتة واتخذ فيها عليا أخا لنفسه * والثابت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرباة النسب عن عقد المؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين لكان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه رفيقه في الهجرة وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال فيه : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الاسلام أفضل » وفي لفظ : « ولكن آخى وصاحبي » *

وهذه الأخوة في الاسلام ، كانت عامة ، كما قال النبي « وددت أن أرى اخواننا ، قالوا : ألسنا اخوانك ! قال : أنتم أصحابي ، واخواني قوم يأتون من بعدى ، يؤمنون بى ولم يرونى » ، فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، فالصحابه لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، والأتباعه من بعده الأخوة دون الصحبة *

وقبل أن نراجع بين الروائتين ، ونناقش منطق ابن القيم رضى الله عنه نقول : ان النبي صلى الله عليه وسلم عد المتبعين له الى يوم القيامة اخوانا

له ، واذا كان المؤمنون من أتباعه الذين عاصروه ، خصهم بفضل الصحبة .
هالذين جاءوا ولم يروه ، واتبعوه شرفهم بفضل الأخوة ، ولا شيء أدل على
وحدة الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها أقوى من هذه ، فالوحدة الإسلامية
وحدة الاسلام ، ووحدة الأخوة المحمدية .

ولنتجه بعد ذلك الى الموازنة بين الروايتين ، وكنا نود لو أن الامام
ابن القيم ، وهو امام حافظ في السنة كان يتجه الى المراجعة بين سند
الروايتين ، ولا يتجه الى مجرد الترجيح بالفرض .

ونقول ان المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض لا يغني عنها النسب ،
لأنهم لم يكونوا جميعا من قبيلة واحدة ، يجمعها نسب ، بل كانوا من قبائل
متفرقة ، ولم يكونوا جميعا من قريش ، وان كان أكثرهم من قريش ، فكان
لا بد من ازالة كل ما عساه يكون من نفرة جاهلية ، والمؤاخاة التي يباركها النبي
صلى الله عليه وسلم تزيل العصبية الجاهلية وهي كما تقيم التعاون بين
الأنصارى والمهاجرى تقيمه بين العرب الذين كانوا من قبائل مختلفة ، والأنصار
كانوا خزرجا وأوسا وكان بين بعضهم مع بعض جاهلية ، وما يوم بعث
ببعيد عن الأنظار ، وقد كان النزاع على أشده والنبي يلتقى بالخزرج في عقبه
هكة ، فكان التأليف بينهم بالمؤاخاة أمرا تقتضيه ضرورة التوحيد النفسى ،
والتكافؤ الروحى الذى يذهب بأحقاد الجاهلية ، ويفتح قلوب أهل الاسلام على
تفقوى من الله تعالى ورضوان ، ومحبة بعد البغضاء ، ووثام بعد النزال ، واذن
هالاء كان له باعث وغاية ، ولا استغناء عنه ، وتكذيبه لهذا السبب مردود .

بقى ما تصدى له من الموازنة بين أبى بكر وعلى ، وأن النبى صلى الله
عليه وسلم لو كان قد اختار فى المؤاخاة أخا لاختار أبى بكر ، لأنه لو كان يريد
أن يتخذ أحدا خليلا لاتخذ أبى بكر ، كما أثر عنه صلى الله عليه وسلم
قيما رواه ابن القيم رضى الله عنه .

واننا نقول : ان للامامين مناقب ، وكل من رسول الله قريب فى نفسه
وحسه وجهاده ، وللصديق فضله ولعلى فضله ، واذا فرض أن أبى بكر أفضل

لكثرة ثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ولما له من مناقب في الاسلام
عالية فان المؤاخاة لا تقتضى اختيار الأفضل ، وان كان لعلى مناقب في الاسلام
فهو الذى سماه النبي صلى الله عليه وسلم فارس الاسلام ، واذا كان أبو بكر
قد صاحب الرسول في الهجرة ، وهو صاحب الغار الذى أشار اليه القرآن
الكريم فعلى نام في منام النبي صلى الله عليه وسلم ، والمشركون يتزهدون
صاحب هذا المنام ليتناولوه بالسيف ، فكان على المقدم لغداء رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

وما لنا والمفاضلة بين امامين نجد أنفسنا لا نعلو الى الموازنة بينهما في
الفضل ، ولكن نقول ان المؤاخاة مواساة ، ومعاونة وليست للفضل ، ولكن
لنحاجة ، ولا شك أن حاجة على في صباه وفي مراه في بيت النبي صلى الله
عليه وسلم وهو مقبل على حياة تحتاج الى المعونة ، وكان فقيرا ولم يكن ذا
تجارة في ماضيه ولا حاضره ، حتى أنه عندما أراد أن يقدم معجك مسدق
لمطامة رضى الله عنها وعن زوجها وصلى الله تعالى على أبيها وسلم — لم يكن
في يده منه شيء فتقدم الى الصحراء ليحتطب ويجمع من جهده ما يكون هداقنا
لابنة ابن عمه سيدة نساء العالمين .

ولذلك كان أحق بالمواساة من أبى بكر ، وان لم يكن أفضل منه .

وبذلك ينتهى الى أن الرواية التى نأخذ بها لم تكن مقصورة على المؤاخاة
بين المهاجرين والأنصار ، ولكنها كانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار
بعضهم مع بعض ، بل كانت عامة شاملة ، لتحصل الوحدة ، وتنتم المعاونة
والمساواة .

ولقد ذكر ابن اسحاق في سيرته المؤاخاة بين المهاجرين في أنفسهم مع
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبذلك تعتقد تلك الرواية بالسنن
والدراية معا .

٣١ — وان المؤاخاة عمل نبوى معقول المعنى ، وليس تجديدا ، ولا هو
من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقم دليل على ذلك ، واذا

كان معقول المعنى ، فانه يجوز بل يحسن اتباعه في كل حال تشابهه مع حال المؤمنين بعد الهجرة ، فتصبح المؤاخاة ، بل يجب عند وجود طائفة نفرت من بلد غير اسلامى فارة بدينها •

وتجوز المؤاخاة بين الطوائف الاسلامية لازالة معنى الطائفية ، واحلال المذهبية محلها ، فهى سنة متبعة ، وقد وجدت مقتضياتها في هذا الزمان ، ففى الارض مسلمون أكلتهم الأقاليم غير الاسلامية ، ولو أنهم خرجوا من ديارهم مهاجرين الى أقرب تجمع اسلامى لكان للمؤاخاة موضع ، لأنه معاونة ومواساة ، ومزج ووحدة • وان في أوروبا جماعات اسلامية ليست حرة في تدينها فلو فتح لهم باب المؤاخاة خرجت الى أرض الاسلام لتكون قوة ، ويعتزون بعزة المسلمين ، ولكن المسلمين غلب عليهم التفرق ، فغلبت عليهم الشقوة ، وكان أمرهم فرطا •

وانما نجد الاسلام ينشر نفسه فينشر عند بعض نادر من الأوربيين والأمريكان وغيرهم • وأولئك الذين يسلّمون يخرجون من أهلهم ، وقد يخرجون من أرضهم وديارهم ، ويحتاجون الى المعاونة والمواساة ، فكان الاخاء معهم أمرا لا بد منه ، وأن المسلمين من بعد ذلك عندما دخل الفرس والروم والمصريون في الاسلام كان عقد في معنى المؤاخاة ، وهو عقد الموالاتة الذى سنتكلم عنه عند الكلام في الوحدة الاسلامية عند ما قوى الاسلام بغير العرب ، ودخل الناس فيه اقواجا « اذا جاء نصر الله والفتح » •

التأليف بين العرب جميعا :

٣٢ — نشبت الحرب بين المدينة الفاضلة ، وبين قريش ابتداء لمنع الفتنة في الدين ، ولدفع الأذى عن المؤمنين بعد أن أذن الله تعالى للمؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى ، كما قال تعالت كلماته :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا رينا الله ، ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله
كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » *

جاهدت المدينة الفاضلة في سبيل الله ، وابتدأ الجهاد بسرايا ، ثم بغزوة
بدر الكبرى ، التي كانت التقاء الجمعين ، جمع الشرك وجمع الايمان في يوم
الفرقان ، وهو ذلك اليوم المشهود ، وهنا شعر المشركون بأنه تكونت للايمان
قوة تخضد شوكة الشرك ، وترفع كلمة التوحيد ، وتجعلها العليا ، وكلمة الشرك
هي السفلى *

ثم كانت غزوة أحد ، وفيها قويت كلمة الكفر الى حد ما ، ولكن لم يهن
المؤمنون ، وشعروا مع ذلك بأمر الله تعالى أنهم الأعلون بميزان الحق ، وميزان
القوة معا *

ولقد شعرت قريش بأنها وحدها لا تقوى على المدينة ، وأنها لا تقوى على
أن تقتلع الايمان من جذوره ، ولذلك استعانوا بالقبائل العربية ، وجمعوا
الأحزاب في الغزوة التي سميت غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، ولنذكر طرفا
يسيرا من قصة هذه الغزوة لنرى كيف تجتمع العرب لقتال النبي صلى الله
عليه وسلم *

لقد جاء زعماء قبائل عربية وقد رأوا الشرك تنهار دعائمه ، ولم يكن
الا قريش قطبا له ، فأخذوا يحرضونهم على غزو المدينة بعد أن خافت
قريش ، فأجابتهم قريش ، ثم خرجوا الى غطفان ، فاستجابت ، ثم طاف
أولئك الزعماء في قبائل العرب يدعونهم الى قتال محمد صلى الله عليه وسلم
فاستجاب لهم الأكثرون *

خرجت قريش الذين كانوا قطب الشرك في أربعة آلاف ، ووافاهم بنو سليم
وخرج بنو أسد وفزارة ، وأشجع ، وبنو مرة ، وجاءت غطفان وقائدهم
عبيدة بن حصن *

تجمع أهل الشرك من كل البلاد العربية عشرة آلاف ، وقد أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقاتلهم كافة ، كما أذن قبل بقتال أهل مكة ، إذ أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، كما تلونا ، وقال تعالى في ذلك :
« **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » *

وإذا كان الشرك في أرض العرب قد اجتمع لأهل الايمان في تلك الغزوة فان الله قد جمع أهل الايمان ، وأضاف الى العرب عنصرا جديدا ليس منهم هو سلمان الفارسي ، ولعل هذه أول مرة يبدو فيها جهاد سلمان ، فقد كان من بين أهل شورى النبي صلى الله عليه وسلم عند ما استشار المؤمنين في لقاء هؤلاء الذين جاءوا اليه متضافرين * فأتى سلمان الفارسي رضى الله تبارك وتعالى عنه بحفر خندق يحول بين أهل الايمان وأهل الشرك ، ويمنع المدينة من الغزو الداهم ويعوق المهاجمين ، وكان ما كان من أمر هذه الغزوة ، وهزيمة الشرك بالريح العاصف والرعب الهالع *

٣٣ — وقد يقول قائل : ان العنوان وهو تأليف النبي صلى الله عليه وسلم العرب يتجافى عن الحرب والغزوات المتوالية ، فالموضوع غير العنوان ، ونقول في الجواب عن ذلك : ان طريق التأليف ليس هو السلم وحده دائما ، وان كان السلم والتأليف صنفين لا ينفصلان ، بيد أن التأليف قد يكون طريقه وعرا ، فان الحرب قد تجر الى السلم والتأليف ، وقد كانت غزوة الخندق في ذاتها منهية لحرب قريش المعتدية ، فلم يعد لها طمع قوى في أن تنقض على المدينة لتقلع منها الاسلام ، ويعود العرب الى شركهم الذي اطمأنوا الى ضلاله *

وأن غزوة الخندق كانت فيها دعوة قوية الى أن يلتفت العرب حول الاسلام ، إذ رأوا من آيات الله ما رأوا ، إذ رأوا في تدبير الحرب من جيش محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يكن عندهم فيه علم ، وهم الكرارون دائما ، ورأوا من آيات الله تعالى الكبرى ما بهر النفوس ، وما استرعى الأنظار ، رأوا أن السماء تنصر جيش الاسلام ، وتهزم جيش الكفر ، ورأت الأحزاب العربية

المجتمعة على الضلال نذر السماء تأنيهم كما أنت عادا ، اذ أنتهم ربح
محرر عاتية •

• وأن هذه من دلائل النبوة وتأييد الله لدعوة الحق الذى أنكروه •

وأن النبى من بعد أن أذن الله تعالى له فى قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم
كافة انطلقت سراياه من الجزيرة العربية داعية الى دين الحق ، منتصرة بنهر
الله تعالى وتأييده ، وهى تبث فيهم روح الايمان وتدعوهم الى الوحدانية ،
ولا شك أن الايمان كان يدخل الى قلوبهم لا من حر السيف ، ولكن من اللقاء
فى ذاته ، وخصوصا أن الحرب الاسلامية المقدسة كانت تدعو أولا الى الاسلام ،
فان أبوا طلب اليهم العهد والذمة على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على
المسلمين ، فان لم يكن فالقتال ، وكانت وصية النبى لجنده ألا يقاتلواهم حتى
يقتلوا من المسلمين ، فان قتلوا من المسلمين واحدا ، قال القائد المسلم لهم :
أما كان خيرا من هذا أن تقبواوا : لا اله الا الله ؟ •

• فكانت الحرب فى ذاتها طريقا للتأليف ، وبعث المحبة من وراء الجيش •

ولما تسامع العرب بحرب النبى صلى الله عليه وسلم ، وانبتت سراياه
فى الجزيرة العربية وذهبت جيوشه اليها ، ومعها السيف والسلم ، ومعها
عداوة أهل الباطل ومسالمة الشعوب ، كان ذلك فى ذاته تأليفا للقلوب المؤمنة
التي وراء المحاربين من أنصار الأمراء والرؤساء •

وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليخاطب الا الشعوب ، ويزيل عنهم
رق الأمراء ، وذل المتحكمين فيهم ، ولذلك كان التأليف مع تلك الحروب اذ كان
من نتائجها ظهور وجوه الضعفاء ، وتأليف قلوبهم •

وذلك كان من وراء هذه الحروب ، أو التسامع بها ، والدعوة الى الاسلام
أن وفدت الوفود الى النبى صلى الله عليه وسلم وهى كانت لعقد عقود
الوحدة المؤلفة وازالة العداوة المفرقة •

الوفود :

٣٤ — وفدت الوفود الى النبي صلى الله عليه وسلم من وسط الجزيرة العربية ، ومن أهلرافها ، وهى تعرض حال أقوامها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلطف بهم فى اللقاء ويلين رحمة لهم ويحقق قوله تعالى : « **فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » •

وكانت رسالة الوفود الى النبي صلى الله عليه وسلم شرحا لحال أقوامهم ابتداء ، وكان لغناء النبي تأليفا لقلوبهم ، فكانت الوفود ملاقاتا للنبي صلى الله عليه وسلم مع من لم يلاقهم من ممثلى القبائل العربية ، ومواجهة لصاحب الدعوة الاسلامية بمن يدعوهم ، وبذلك تألفت قلوبهم ، وتألفوا على هدى الاسلام بعد المنافرة والمنازعة والمقاتلة •

ولقد كانت الوفود فى السنة التاسعة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك سعى العمام التاسع عام الوفود • وذلك بعد أن عركتهم سرايا النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وأحسوا بأنه لا ملجأ من الله تعالى الا اليه ، وخصوصا أنهم رأوا أن قريشا قد أسلمت وسلمت للنبي صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أن يسالموا ولا يعاندوا ، وخصوصا أن الاسلام أخذ يغزو قلوبهم وفقدت الأهنام هيبتهما التى تخيلوها لها •

ويقول ابن اسحاق فى سيرته : أن قريشا كانوا أمام الناس ، وهاديبهم وأهل البيت والحرم ، وحريح ولد اسماعيل وابراهيم عليهما السلام • وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها جيش الاسلام ، وعرف أنه لا طائفة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال الله عز وجل أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه •

جاءت الوفود من البلاد العربية من المجاورين للفرس فى الجنوب الى

المجاورين للشام في الشمال ، والنبى صلى الله عليه وسلم يبيت فيهم معنى الاسلام ، ويؤلفهم حول التكليف الشرعية ، والأخذ بها ، ويدنى أهل المشاكسة والشماس ، ويأخذ بلين القول ، حتى يأتلف الوفد ، ويكون رسول النبى صلى الله عليه وسلم منهم من يبعثه الى قومه ليؤلف قلوبهم .

ونختار من هذه الوفود وفد ثقيف بالطائف الذين كانوا يمسد القبائل العربية شماسا وعنفا في خصومتهم ، كيف لان النبى صلى الله عليه وسلم معهم في القول في بيان الأحكام الشرعية ، ويقطع عليهم في محاولة تغيير بعضها كل ارادة حتى ضم بعضهم اليه ، فنقلوا الى أقوامهم .

جاء في كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد في وفد ثقيف ما نصه :

« قدم عروة بن مسعود الثقفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم وفدهم ، وفيهم كنانة بن عبد ياليل ، وهو رأسهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبى العاصى ، وهو أدغر الوفد » .

قال المغيرة بن شعبة : « يا رسول الله أنزل قومى على فأكرمهم ، فانى حديث الجرح فيهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمنك أن تحرم قومك ، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن » .

وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجيرا لتثيف ، وأنهم أقبلا من مصر ، حتى اذا كانوا ببعض الطرق عدا عليهم ، وهم نيام فقتلهم ، ثم أقبلا ، وأمواهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما الاسلام ، فنقبله ، وأما المال فاننا لا نغدر » .

وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف في المسجد وبى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب لا يذكر نفسه ، فاما سمعه وفد ثقيف ، قالوا يأمرنا

أن نشهد أنه رسول الله ، ويشهد به في خطبته ، فلما بلغه عليه السلام قولهم
قال : « فاني أول من شهد أنى رسول الله » *

وكانوا يفتنون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخلفون عثمان
ابن أبى العاصمى على رجالهم لأنه أصغرهم ، فكان عثمان كلما رجع الوفد
اليه ، وقالوا (أى ناموا فى القبيلة) بالهاجرة عمد الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، فاختلف اليه مرارا ، حتى فقه
فى الدين * وكان اذا وجد رسول الله نائما عمد الى أبى بكر وكان يكتفم ذلك
عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله وأهبه *

ومكث الوفد يفتنون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو
بدعهم الى الاسلام فأسلموا *

قال كنانة بن عبد ياليل : هل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا *

قال عليه السلام : نعم ان أنتم أقررتهم بالاسلام ، والا فلا قضية
ولا صلح بينى وبينكم *

قال كنانة بن عبد ياليل : أفرأيت الزنى ، فاننا قوم لا بد لنا منه *

قال النبى عليه الصلاة والسلام : هو عليكم حرام ، فان الله يقول :
« ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا » *

قالوا : أفرأيت الربا ، فانه أموالنا كلها *

قال « عليه الصلاة والسلام » : لكم رؤوس أموالكم ، ان الله تعالى يقول :
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » *

قالوا : أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا ، فلا بد لنا منها *

قال « عليه الصلاة والسلام » : ان الله حرمها ، وقرأ قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » *

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم الى بعض ، فقالوا : ويحكم اننا نخاف ان خالفناه ، فيوم كيوم مكة ، انطلقوا نكاتبه على ما سألنا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نعم لك ما سألت *

ثم قالوا : رأيت الأصنام (أى التى يعبدونها) *

قال « عليه الصلاة والسلام » : اهدموها *

قالوا : هيهات ، لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها *

تدخل في الحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه * فقال « ويحك يا ابن عبد يليل ما أجهلك ، انما الربة حجر » *

قالوا : لم نأتك يا ابن الخطاب *

قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تولى أنت هدمها ، فأما نحن ، فاننا لا نهدمها *

قال رسول الله « صلى الله عليه وسلم » : سأبعث اليكم من يكفيكم ههنا * فكانت بوه *

هذا ما نقله ابن القيم من كتب السيرة وقد كان اخلاص النبي عليه الصلاة والسلام فى حديثه وتصميمه على هدى الاسلام ملينا قلوبهم ومؤلفنا لنفوسهم ، وقد انضموا الى الاسلام شريعة وعقيدة ، وأخلصوا من بعد ، وأراد زعيمهم أن يحملهم على اعتناق الاسلام وعرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يسبق هو رسول رسول الله الذى أوفده عليه الصلاة والسلام لهدم ربهم ، حتى يمهدهم لذلك * ولنعد الى ما نقل ابن القيم *

قال كنانة بن عبد ياليل (زعيم الوفد) ، أئذن لنا قبل رسولك ، ثم
ابعث في آثارنا غانا أعلم بقومنا ، فأذن لهم ، وقالوا : يا رسول الله أمر علينا
رجلا مؤمنا من قومنا ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاصي ، لما رأى من حرصه
على الاسلام ، وكان قد تعلم سورا من القرآن قبل أن يخرج •

فقال كنانة بن عبد ياليل : أنا أعلم الناس بثقيف ، فاكتمواهم القصة ،
وخوفوهم بالحرب والقتال ، وأخبروهم أن محمدا سألنا أمورا أبينهاها عليه ،
سألنا أن نهدم الملات والعزى ، وأن نحرم الخمر والزنى ، وأن نبطل الربا
في أموالنا •

خرجت ثقيف حين دنا منهم الوفد يتلقونهم ، فلما رأوهم قد ساروا
العنق ، وقطروا الابل ، (أى جعلوها قطارا) وتغشوا ثيابهم ، كهيئة القوم
قد حزنوا ، وكرهوا ، ولم يرجعوا بخير ، فقال بعضهم لبعض : ما جاء وفدكم
بخير ولا رجعوا به •

وترجل الوفد ، وقصدوا الملات ونزلوا عندها ، والملات وثن كان بين ظهري
المطائف يعبد ، وتهدى له البدن كما تهدى لبيت الله الحرام •

جاء كلا من أعضاء الوفد خاصته من ثقيف ، فسألوهم : ما جئتم
وبماذا رجعتم •

قالوا : أتينا رجلا فظا غليظا يأخذ من أمره ما يشاء ، قد ظهر بالسيف ،
وداخ له العرب ودان له الناس ، فعرض علينا أمورا شدادا : هدم الملات
والعزى وترك الأموال في الربا الا رؤوس أموالكم وحرم الخمر والزنى •

قالت ثقيف : والله لا نقبل هذا أبدا •

قال الوفد : أصلحوا السلاح ، وتهيبوا للقتال ، وتعبأوا له ورمهوا
حصونكم •

فسكّنت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة يريدون القتال ، ثم ألقى الله عز وجل
في قلوبهم الرعب ، وقالوا : والله ما لنا به طاقة ، وقد داخ له العرب كلها •
فارجعوا إليه ، فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه •

فلما رأى الوفد أنهم قد رغبوا ، واختاروا الأمان على الخوف والحرب •
قال الوفد : فانا قد قاضينا ، وأعطينا ما أحببناه • وشرطنا ما أردنا •
ووجدنا أنقى الناس ، وأوفاهم ، وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم
في سيرنا إليه ، وفيما قاضينا عليه •

قالت ثقيف : فلم كتمتمونا هذا الحديث ، وغمتمونا أشد الغم ؟

قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان •

فأسلموا مكانهم • ومكثوا أياما • • انتهى المراد من القصة •

٣٥ — هذه صورة من حمور الوفود التي جاءت الى النبي صلى الله عليه

وسلم •

جاءت ثقيف ، وهي أشد القبائل العربية شماسا ، وأبعدها عن الاسلام ،
ولقد لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم بالبشر وأكرم ضيافتهم ، وأنزلهم في
المسجد ، وبنى لهم الأخببية وربطها بالأوتاد ، وأمنهم في ضيافتهم تأليفا
لقلوبهم ، وربط لهم بالمحبة ، والمحبة من شأنها أن تلين القلوب ، ولو كانت
قاسية كالحجارة أو أشد قسوة •

وعلم مكان الاعتزاز فيهم فما هدمه ، ومكان الباطل فما تركه •

وبذلك استفدنا من تأليف النبي للعرب فائدتين :

احدهما : أن التأليف يكون بالبشر وحسن اللقاء ، والنفوذ الى النفوس

في سهولة ولين لا عنف معه •

الثانية : أن التأليف لا يقتضى اهمال الحقوق ، واسقاط بعض التكليفات
فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف قلوب أولئك الذين لا يخلون
من غلظة ، وفي نفوسهم شماس وفي عقولهم انحراف واستمسك بالهوى ، اقد
جعلهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يميلون الى الاسلام ويعتقونه
ويتحاليون ليهندى قومهم *

السماحة والعدالة :

كانت أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم سمحة يآلف ويؤلف ، يؤثر على
نفسه ، فأخلاقه فى معاملاته كانت السماحة هى أظهر الأخلاق فيها ، ما غضب
لنفسه قط ، الا أن تنتهك حرمان الله تعالى ، والأعرابى الذى أغلظ فى القول .
فطلب العطاء ، يرفق به النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعطيه ويكون العطاء
حتى يرضى ، ويطلب منه فى رفق من بعد ذلك أن يرضى أصحابه عليه السلام ،
واليهودى الذى يتأصاه دينه ، فيغلظ فى القول ، ويهم عمر رضى الله تعالى
عنه أن يقتله ، فيقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء المترفق
هلا أمرته بحسن المطالبة ، وأمرتنى بحسن الأداء ، أو كما قال صلى الله عليه
وسلم ، فالسماحة تجذب القلوب النافرة وتهدى النفوس الحائرة ، وترد
العقول الشاردة *

وبجوار هذه السماحة كانت العدالة التى يفرضها على نفسه ، من نفسه ،
فكان لا يعتدى على أحد ، ولا يظلم أحدا ، ويقدم نفسه ليقتص منه ان ظن
أن عليه قصاصا *

٣٦ — ولم تكن سماحته وعدالته ومعاونته ، واغائته للملهوف مقصورة
على معاملته الشخصية ، بل انها كانت تتعدى الى كل المعاملات الاجتماعية
والسياسية ، فمن آذاه لا يكون اذا أدا منه المنتقم الجبار ، ولكن يكون العفو
الرحيم ، يأخذ بقوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »
وقوله : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذى
بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها الا الذين هبوا وما يلقاها
الا نوح عظيم » *

ويأخذ بقوله تعالى في أوصاف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، أنه لا يحب الظالمين » . ولن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

كان يأخذ بهذه الآداب القرآنية في السلم وفي الحرب ، في المعاملات الشخصية وفي معاملته الأعداء الاسلام ، فهو ينتصر على الباغى ، وإذا انتصر لا يقول : ويل للمغلوب . ولكن يقول : رحمة وعفوا ، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وبذلك تتألف القلوب ، بعد أن تدمى الأجسام .

واعتبر ذلك بحال الحديبية ، وبحال فتح مكة فقد كان له الغلب على قريش من بعد نصر الله تعالى بالريح والرعب في غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، إذ تجمع عليه العرب من كل آفاق البلاد ليقتلعوا الاسلام فاقتلع الله تعالى الشرك من النفوس ، حتى المعادين المعاندين .

السماحة في الحديبية :

٣٧ — خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العاشم السادس من الهجرة ليعتمر ، صلى الله عليه وسلم ، هو وأصحابه . وكان معه جيش كثيف عدده خمسمائة وألف ، وما كانوا يريدون الا بيت الله الحرام .

وان النبي بث العيون ، ليعرف حال قريش ، فعلموا أنهم جمعوا الجموع وأضافوا إليها الأحابيش ، فاستنشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقال السمح الكريم رسول رب العالمين : أترون أن نميل الى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصبيهم ، فان قعدوا — قعدوا موتورين محزونين ، أم تريدون أن نؤم هذا البيت ، فمن صدنا عنه فاتلناه . وقد وافقه أبو بكر الصديق على ما ارتأى وكان ذلك هو الرأي .

ولما رأى عليه السلام جموعاً من قريش تتجمع ، ومعه جيش أغلب خاطبهم
خطاب السماح ، لا خطاب من يريد الانتقام *

أرسل إليهم عثمان بن عفان ، وأمره أمرين ، أولهما أن يدعوا قريشاً الى
الاسلام ويخبرهم أن الرسول لم يأت لقتال ، ولكن جاء وصحبه معتمرين *

وثانيهما : أن يتصل بالمستضعفين من المؤمنين ويبشرهم بالفتح القريب *

ذهب عثمان ، وخاطب قريشاً ، وغاب وظن المسلمون الظنون ، فظنوا
أنهم قتلوا عثمان ، فبايع النبي المؤمنين على القتال ، وكان ذلك تحت الشجرة
التي سميت شجرة الرضوان لأن الله تعالى قال : « ان الذين يبايعونك
انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم » *

ولما بلغ الرسول السمع ، ومعه الجيش القوي ، انهم استعدوا للقتال ،
قال : اننا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وأن قريشاً قد نهكتهم
الحروب ، وأضرت بهم ، فان شاءوا ماردتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس ،
وان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فعلوا وان أبوا الا القتال هو الذي
نفس محمد بيده لأقاتلنهم على أمرى ، حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن
الله أمره *

عاد رسولهم إليهم ، وقال لهم : انى قد جئتكم من عند هذا الرجل ،
وسمعته يقول قولاً ، فان شئتم عرضته عليكم ، فقال السفهاء منهم : لا حاجة
لنا أن نتحدثنا عنه بشيء ، وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته . قال
سمعته يقول كذا وكذا ، ونقل لهم ما قال صلى الله عليه وسلم *

قال عروة بن مسعود الثقفى : انه قد عرض عليكم خطة رشدة ،
فأقبلوها ، ودعوني آتته ، فأذنوا له فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكرر
عليه ما قال ابتداء *

ولننقل لك ما جرى من حديث بين الثقفى العنيف ، والنبي السميع ،
لتعرف أن السماحة علاج النفوس الشامسة .

قال عروة بن مسعود الثقفى : أى محمد ، أ رأيت لو استأصلت قومك ،
هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وان كانت الأخرى فانى لا أرى
وجوها ، وانما أرى أوسابا ، أخاف أن يفروا ويدعوك .

وأخذ يكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكأما تكلم أخذ بلحية الرسول ،
والمغيرة بن شعبة عند رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعه السيف
وعليه المغفر ، فكأما أهوى عزوة الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ضرب
بيده بنصل سيفه . وقال : أأرى يدك ، يرفع رأسه وقال : من هذا ؟ قالوا
المغيرة بن شعبة ، فقال له : أى غدر ، أو لست أسعى فى غدرتك . وكان المغيرة
قد سحب قوما فى الجاهلية وأخذ مالهم ، فذهب الى النبى مسلما ، فقبل النبى
صلى الله عليه وسلم اسلامه ، ورد المسال لأنه أخذ بغير حله .

ومع سماحة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتجرؤ الثقفى حتى مد يده
الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان يرى طاعة المسلمين له ، فاذا أمرهم ابتدروا أمره بالطاعة ، واذا
تكلموا فى حضرته خفضوا أصواتهم وما يحدون النظر فيه تعظيما له .
رأى الثقفى ذلك وعرض على قومه ما رأى .

وأرسلوا رجلا آخر من كنانة ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم ومن
معه ومعهم البدن يقدمونها هديا ويلبسون محرمين ، فرجع الى أصحابه من
قريش ، وقال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . وجرت
المراسلات بالرجال ، حتى كان الاتفاق وكتابة الهدنة عشر سنين .

واذا كانت السماحة قد أظلت معاملة النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن
جاء الحديدية حتى لانت قلوب قاسية ، وفيها نفوس فاسقة ، فان كتابة العهد
قد سيطرت عليها السماحة المصمديية .

ابتدأ الكتاب فأملى النبي صلى الله عليه وسلم الافتتاحية بقوله : « بسم
الله الرحمن الرحيم »

فقال سهيل الحاضر عن قريش : أما الرحمن فوالله ما ندري ما هو ولكن
اكتب باسمك اللهم *

فقال الحاضرون من المسلمين : والله لا تكتبها الا باسم الله الرحمن
الرحيم *

قال النبي السمع : اكتبها باسمك اللهم ، ثم اكتب هذا ما قضى عليه
معهده رسول الله ،

فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت
وما قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله * فقال النبي : انى رسول الله وان
كذبتهمونى ، اكتب محمد بن عبد الله * على أن تخالوا بيننا وبين البيت ،
قال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام
المقبل * فكتب الكاتب برضا النبي صلى الله عليه وسلم *

فقال سهيل : على ألا يأتيتك منا رجل وان كان على دينك الا رددته *
ضج المسلمون ، وقالوا : سبحان الله كيف يرد الى المشركين ، وقد جاء
مسلمًا ؟

فبيناهم كذلك اذ جاء أبو جنادة بن سهيل يرسف فى قيوده وقد خرج
من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين *

قال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده *

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انا لم نقض الكتاب بعد *

قال سهيل : والله لا أقاضيك على شيء *

قال سهيل : ما أنا بمجيزه لك ، ومع ذلك أفضى الكتاب على هذا
الشرط *

فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين ، أريد الى المشركين ، وقد جئت مسلما ،
ألا ترون ما لقيت * وقد غضب عمر رضى الله عنه غضبا شديدا وقال فى غضبه :
يا رسول الله ، أألمت نبى الله ؟ قال : بلى ، قال : ألسنا على الحق وعدونا
على الباطل ، قال : بلى ، قال : علام نعطى الدنيا فى ديننا ونرجع ولما يحكم
الله بيننا وبين أعدائنا ؟ *

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انى رسول الله وهو ناهى ولست
أعصيه *

قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت ونطوف به *

قال الرسول السمع : بلى ، أنا أخبرتك أنك تأتية هذا العام ؟ قال عمر :
لا * قال الرسول : فانك آتية ومطوف به *

وكان العقد على صلح توضع فيه الحرب عشر سنين *

وكان المسلمون محرمين ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتطلوا
من الاحرام بذبح الهدى ، وقال لهم : قوموا فانحروا ، ثم احلقوا *

فما قام رجل واحد حتى قال ثلاث مرات *

فلما لم يقم أحد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أم سلمة ،
فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت أم سلمة : يا رسول الله اخرج ، ثم لا تكلم
أحد كلمة ، حتى تنحر بدئك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، ففعل رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما أشارت به أم سلمة *

فلما رأى الناس ذلك قاموا فانحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا *

٣٨ - هذه سماحة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد ظهرت في هذه
القصة أمور :

أولها : أنه كان قادرا على أن يدخل مكة ، ويطوف ويسعى ، وينفذ
أحرامه ، ومعهم جيش يزيل كل عقبة تقف ضده ، ولكنه آثر السلم ، والعافية
وحقن الدماء بسماحة النبوة لتأليف القلوب ، وإن السماحة تجذب نفوسا
والسيف يقطع رقابا ، وما يأخذ من الرقاب شيئا ، ولكن يأخذ بالسماحة
النفوس إلى الإيمان .

وثانيها : أنه قبل أن يذكر اسم الله بقولهم باسمك اللهم ، وسكت عن
بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا كان قد ترك هذه البسمة سماحة وكرما ، فقد
الآن بذلك نفوسا كانت متعصبة ، وأنها لمساترة في طريق الهداية .

ثالثها : أنه قبل ألا يذكر وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
الرسول حقا وصدقا ، وقبل أن يقال ابن عبد الله ، وقد فتح بهذا التسامح
القلوب لتدخل إليها رسالته ، وما كانت الجفوة والغلظة لتفعل ذلك .

ورابعها : أنه قبل أن يعطيهم ، ما لم يعطوه ، قبل منهم أن من يجيء إليه
مسلمًا من غير إذن وليه يرده . ومن يخرج من عنده مرتدا لا يردونه إليه .

وإن ذلك لا يخلو من سماحة ، ولكن فيه حكمة ظاهرة قد بدت نتائجها
منه ، فإن من ارتد عنه لما إذا يعاد إليه ليكون عينًا عليه ، أنه قذاة أخرجت من
العين إن كانت .

ولقد سمى الله تعالى صلح الحديبية فتحًا ، وما كان فتحًا إلا بتقدير الله
سبحانه وتعالى ، وسماحة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولقد قال تعالى في هذا
الصلح : « (أنا فتحنا) لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر
ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ، هو
الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم والله جنود
السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وان الشرط الذى أغضب القاروق عمر رضى الله عنه ، وكثيرين من المؤمنين المجاهدين ، وهو أن من جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم مسلما رداً ، تبين أن نيتجته ام تكن شرا ، بل كانت خيرا ، ولقد طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يقبل من يجيئه مسلما .

وذلك أن الذين كانوا يخرجون من مكة مسلمين ، ولا يقبلهم النبى لا يعودون الى مكة ، بل يبقون يقطعون على قريش طريق تجارتها ، وتلاحقوا وتجمعوا ، حتى تكونت منهم عصابة أولو قوة ، فكانوا لا يسمعون بغير لقريش خرجت الى الشام الا اعترضوها فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال .

أذى ذلك قريشا ، وأرسلت الى النبى صلى الله عليه وسلم تتناشده الله والرحم لسا أرسل اليهم فمن أتاه منهم فهو آمن ، وبذلك ألغى الشرط بطلبهم وتلك من دلائل النبوة .

هذه كانت سماحة النبى صلى الله عليه وسلم وقد ألغت القلوب ، وجمعت النفوس الشاردة .

وفي فتح مكة كانت السماحة أوضح :

٢٩ - اذ لم يعرف تاريخ الانسانية أن قائدا منتعرا عامل المطلوبين بمثل ما عامل به محمد صلى الله عليه وسلم قريشا ومن حالفهم ، وقد آذوه ثلاث عشرة سنة دأبا لم يتركوا فيها بابا من الايذاء والتنكيل والسخرية الا اتخذوه ، حتى هموا بقتله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كان صلى الله عليه وسلم أجمع من قبل أمر الهجرة واتخذ أسبابها ، وكان الله تبارك وتعالى قد أيده ، فكان أعظم التدبير ، وأكرم التوفيق .

ومكثت الحرب بعد ذلك ست سنين دأبا ، ما تركوا طريقها من طرق الشيطان الا سلكوه ، حتى اذا كان الصلح والنبى صلى الله عليه وسلم معه جند الله الذى يستطيع ابادة خضرائهم ، وكان الصلح كما أرادوا ، وفيه

فرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم شروطا ظالمة ، وقبلها عليه الصلاة والسلام في سماحة راحمة ، وحكمة نبوية من غير صغار ، ولكنها نبوة مقربة للنفوس وليست منفرة للقلوب ، جامعة وليست مفرقة .

ولكن مع ذلك غدروا ولم يوفوا .

وذلك أنه كان في ضمن شروط الصلح التي ارتضاها الطرفان ، وأرادها النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يريد الجمع العربي الذي لا تفرق فيه — كان من الشروط أن من أراد أن يدخل مع محمد صلى الله عليه وسلم دخل ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل .

اختارت خزاعة جانب النبي عليه الصلاة والسلام ، واختار بنو بكر عقد قريش ، فكان من يعتدي على خزاعة كأنما اعتدى على النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد عادت الحرب جزعا بين خزاعة وبنو بكر كما كانت الاذن بينهم في الجاهلية ، فاقتتل الفريقان وما تدخل جيش الاسلام في القتال ، ولكن قريشا تدخلت ونحرت بنو بكر على بنو خزاعة ، وأمدت بنو بكر بالسلاح ، وقاتل من رجالها من قاتل .

عندئذ كان الغدر ، ومهما تكن سماحة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلن تكون في غدر قط ، ولا مع غادر أبدا .

بل تجاوز الأمر مع بنو خزاعة حد الغدر المجرد ، بل لقد حاول بنو بكر النيل من خزاعة في البيت الحرام بتحريض من بعض القرشيين .

كان لابد لخزاعة أن تستنصر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان للنبي الا أن يجيب الدعوة . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي الى المدينة ، حيث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قتلنا وقد أسلمنا .

أصبحت الحرب ضرورية ، ولا موضع للسماحة * أولا : لأنهم غدروا في العهد ، وثانيا : لأنهم نكثوا في أيمانهم نكثا كاملا ، فقتلوا قوما مسلمين ، فنقضوا الصلح من أساسه ، ولا صلح مع من يخون العهود *

ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أكد نية الحرب بالقسم فقال : « والله لأغزون قريشا » * قالها ثلاث مرات تأكيدا للقسم *

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة ، ومعه العباس الذي كان قد أسلم من قبل ، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وخرج يلتمس أحدا يخبر قريشا ليخرجوا يستأنون النبي صلى الله عليه وسلم *

ويلتقى وهو يتوسم الوجوه بأبى سفيان ، فيركبه في عجز بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورآه عمر وقد كان حارس الجيش ، وهم عمر أن يقتل أبا سفيان ، قال له موعدا مهددا : الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد * ولكن العباس استحث البغلة فركضت لكيلا يمكن الفاروق من قتل أبى سفيان قبل أن يلقي صاحب السماحة رسول الله صلى الله عليه وسلم *

والتقى الفاروق مع أبى سفيان في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم مع العباس عمه ، وعمر يهز السيف ، ويستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتله ، ولكن ابن عبد المطلب شيخ قريش يجيره ويؤمنه *

فيقول رسول الله السمع قابلا للأمان لعمه : « اذهب به يا عباس الى رحلك ، فإذا أصبحت فأنتى به » *

وهذا أول مظاهر السماحة ، فلم يتركه بغير من أمنه ، حتى لا يلقاه أحد من جيش الله فيقتله ، كما هم عمر *

التقى النبي مع أبى سفيان في الغداة ، فعرض عليه النبي الاسلام فنتردد

بعصبية الجاهلية ، فقال له العباس : ويحك أسلم ، وأشهد أن لا اله الا الله ،
وأن محمدا رسول الله ، وأسلم وشهد شهادة الاسلام .

ولكن السماح لا تقف عند قبول الاسلام بعد تلبث ، بل انها تزيد الى
التكريم .

يقول العباس : ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئا .

يقول رسول الله صلى عليه وسلم مكرما : من دخل دار أبي سفيان فهو
آمن . ومن أغلق عليه بابها فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

وهنا السماح تعم ولا تخص ، وان كان الباعث ابتداء تكريما لأبي سفيان
زعيم الشرك العنيد ، ولكنها سماحة النبوة المؤلفة .

وكان جيش الاسلام مؤلفا من كثير من قبائل العرب ، اجتمعت على
كلمة الله تعالى وتأييد رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وكانت الكتاب
تمر على أبي سفيان بن حرب ، وقد وقف بمضيق الوادي .

وكانت كتيبة النبي صلى الله عليه وسلم فيها المهاجرون والأنصار .

وكان يحمل راية الأنصار سعد بن عباد ، فلما مر على أبي سفيان قال :
اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، أذل الله قريشا .

أطمعت سماحة النبي أبا سفيان بن حرب أن يشكو ذلك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وماذا قال ؟
قال : كذا وكذا .

قال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن أن يكون له
في قريش صولة .

قال النبي السمع الكريم : اليوم يوم الرحمة ، بل اليوم يوم تعظيم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا .

هذه واحدة في سماحته المؤلفة ، وأخرى في سماحته وحكمته أنه نزع اللواء من يد سعد بن عبادة ، وأعطاهما ابن سعد قيسا ، ليرى سعدا أن اللواء لم يخرج منه الا الى ابنه الذي هو امتداد لشخصه .

مضى أبو سفيان بعد أن طابت نفسه بسماحة النبي صلى الله عليه وسلم .

قسم رسول الله جيشه أربعة أقسام كل يدخل من جانب ، فبعث الزبير بن العوام الى جانب ، وأبا عبيدة في بطن الوادي ، وخالد بن الوليد على جانب آخر ، ورسول الله في كتيبته .

وقد نهى رجاله عن القتال ، الا أن يضطروا ، وشدد في النهي ، ومن بينهم خالد بن الوليد ومعه من جيوش القبائل سليم وغفار ومزينة وجهينة ، وقبائل أخرى من العرب .

ولم يقاتل أحد من القواد المسلمين الا خالد بن الوليد ، فقد تعرض له عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية ، وسهل بن عمر ، وكان بعض بني بكر الذين اعتدوا على خزاعة ، قد أعدوا السلاح ليقاتلوا جيش محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت معركة صغيرة ، قتل من المشركين فيها نحو اثني عشر رجلا ثم انهزموا .

وقد لامه النبي صلى الله عليه وسلم أن قاتل ، وقد نهاه ، فذكر له خالد اضطراره فقبل عذره .

اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما اتجه الى المسجد الحرام ، فطاف ، وابتلم الحجر الأسود ، وأخذ يحطم الأصنام ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » والأصنام تتساقط بين يدي محطم الأوثان في الأرض ، وقد رأى تماثيل في جدران البيت الحرام فحطمها .

وخرج رسول الله ، وقد وقف بباب البيت ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينظرون ماذا يصنع بهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو مال أو دم تحت قدمي هاتين ، الا سدانة البيت ، وسقاية الحاج » • ثم وجه خطابه لقريش التي كانت تتفاخر بالأنساب قائلا :

« ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم و آدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله أعلم خبير » •

يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم •

قال الرسول الكريم : فانى أقول لكم كما قال يوسف لآخوته « لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » اذهبوا فأنتم الطلقاء •

هذه هى السماحة العظمى ، وقد آمن الناس جميعا ، الا نفرا ، ثم عفا عن بعضهم ممن تاب وآمن وعمل صالحا كعكرمة بن أبى جهل •

• ٤ — بهذه السماحة الكريمة التي ابتدأت فى الفتح •

أولا : بتأمين أبى سفيان وتكريمه بتأمين كل من يدخل بيته •

ثانيا : بتأمين كل من لا يخرج من بيته مقاتلا •

ثالثا : بعزل سعد بن عبادة عن لواء الأندمار ، لقوله : اليوم يوم الملحمة ، الذى نذل فيه قريش ، واستبدالها بقوله اليوم يوم الرحمة الذى نعر فيه قريش •

رابعا : بنهى قواده عن القتال ، وقد استجابوا الا خالدا ، اذ اضطر اليه .

خامسا : بذلك العفو الكريم : اذ يحكى معهم مقالة يوسف لاختوته : « لا تثريب عليكم » .

وهناك فوق هذه السماح النهى عن التعصب للآباء ، والمنع من العصبية الجاهلية ، وبين لهم أن الناس جميعا على سواء .

التأليف الالهي :

بهذه السماح النبوية ، والاطار الاسلامي ، والالتقاء على مائدة الاسلام الروحانية ، وبالجزم والعزم والرفق والعفو تألفت قلوب كانت متناسفة ، وتقاربت نفوس كانت متباعدة .

وكانت الوحدة العربية التي تعد معجزة ، وقد كانت وحدة اسلامية في حدود العرب ، اذ لم يكن الأمر قد خرج من الديار العربية ، ولم يكن قد دخل غير العرب في ظل الدولة الاسلامية ووحدة الاسلام . الا نفر قليل .

وان ذلك التأليف معجزة من عمل الله تعالى : ولذلك قال سبحانه :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيتك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم » .

وان التأليف في كل الأمور المادية سهل يسير ، وأما تأليف النفوس فصعب عسير ، وخصوصا اذا كانوا متنازعين متقاتلين متدابرين ، فحق أن يكون ذلك بعمل الله القادر القاهر فوق عباده الذي يملك النفوس ، ويسيرها .

٤١ — ولقد دعا القرن الى الوحدة بين بنى الاسلام ، فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون • واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولنكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه ، وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم : أكفرتهم بعد ايمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » •

ونقف عند هذه الآيات وقفة قصيرة فهي تدل أولا على الوحدة الاسلامية دلالة صريحة اذ يقول تعالى : « واعتصموا بحبل الله » وحبل الله تعالى هو القرآن الكريم فهو حبل الله الممدود ، الى يوم القيامة ، وهذا يفيد أن الوحدة تقوم على الاستمسك بكتاب الله تعالى ، فكل وحدة تقوم على غير ذلك مآلها الانهيار لأنها تقوم على تفسير هار •

ثانيها : أنها تفيد أن التأليف بين العرب كان بهداية الله سبحانه وتعالى وبالاسلام ، فهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وآواهم الى ربوة المحبة والاخلاص وأن من ثمرات التأليف أن يعتصموا بحبل الله الذى كان السبيل الى ذلك التألف •

ثالثها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوى الوحدة ، ويجعلها قائمة على أساس من الفضيلة والخلق ، ولذلك كان بين النصوص الأمر بالمعروف بالاعتصام بكتاب الله والنهي عن المنكر لأنه عصام الاجتماع وهو الذى يكون الرأى العام الفاضل ، ولا يمكن أن تعيش وحدة اسلامية ، الا فى

ظل رأى عام يجمع الشمل ، ويزيل الانقسام ، ولا شئ يسهل الافتراق الا رأى عام غير صالح يوجد الانقسام ، وتفرخ فيه الرذائل .

ورابعها : بين أن التفرق بعد أن جاءت البيانات تكون معه الذلة ، ومع الذلة عذاب الدنيا ومع العصيان عذاب الآخرة ، فيجتمع على المفترقين الذين جعلوا جمعهم شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون — ذل الدنيا وعذاب الآخرة .

تمام الوحدة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

٤٢ - تكونت الوحدة العربية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم على أساس الاسلام ، وكان القرآن هو الجامع لمتفرقاتها ، والموحد لأشتاتها ، فلم تكن وحدة قومية بل كانت وحدة اسلامية .

والفرق بين الوجدتين واضح ، فان الوحدة القومية تسد الباب على غير العرب ، ولا تجعلهم ينتظمون في مسلكها ، أما الوحدة الاسلامية ، فانها مفتوحة الأبواب ، لكل مسلم أن يدخل فيها لأنها وحدته ، والأذن الديار دياره فلا فرق بين عربى ، ولا بخص فيها لأعجمى ، ولذا يقول صلى الله عليه وسلم مؤكدا أنها وحدة اسلامية « كلكم لأدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » .

وان شئت فقل : ان الوحدة التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم وحدة قرآنية ، لأن أساسها الاعتصام بحبل الله تعالى وهو القرآن ، ولذلك نجد القرآن الكريم لا ينادى العرب بعنوان العرب ، وانما ينادى بعنوان الناس والايمن ، ويدخل العرب فيهم ، اذ ينادى المؤمنين بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » ويدخل الفرس والبروم وغيرهم من أجناس أهل الأرض اذا آمنوا بالله سبحانه وتعالى .

وليس للعرب في القرآن حظ أكبر من غيرهم ، بيد أنه نزل بلغتهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وقد قال تعالى « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » .

وقد ذكرنا من قبل لماذا اختص الله سبحانه وتعالى العرب بأن جعل البعث فيهم .

وان البلاد العربية بهذا لها شرف في الوحدة ، لأن بها بيت الله الحرام ،
وقد من الله عليهم ، فقال تعالى : « أو لم يروا أننا جئنا حرما آمنة ويتخطف
الناس من حولهم » *

وأن وجود الكعبة بها ، وهي قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها
في قاصيها ودانيها ، وهذه القبلة تشعر المسلمين في كل بقاع الأرض بأنهم أجزاء
من كل شامل جامع *

وفي البلاد العربية مظهر ثان للوحدة الاسلامية ، وهو مناسك الحج التي
هي موضع التعارف بين المسلمين في كل الأرض ، فهم يأتون إليها من كل فج
عميق في ضيافة الرحمن *

وقد ذكرنا في سياق بحثنا لماذا كانت البلاد العربية بها مبعث الرسالة
المحمدية المخالدة التي تكون للناس كافة أحمرهم وأسودهم وأبيضهم *

ولا يقال : ان الاسلام عربى ، لأنه نزل في أرض عربية ، ومعجزته
عربية ، ومنبعه عربى * لا يقال ذلك لأنه لا علاقة بين خصوص المكان ،
أو خصوص اللغة ، وكون الدعوة عامة ، والحكم عاما ، لأن النبي صلى الله
عليه وسلم قد صرح بعموم الرسالة ، وصرح القرآن بعمومها ودعوة محمد
كانت عامة والعبرة بعموم الدعوة ، لا بخصوص المكان ولا بخصوص اللغة *

وإذا كان للغة العربية موضع في الوحدة ، فليست لتخصيص الاسلام
بانعرب ، ولكن سنقول : انها اللغة التي تكون وسيلة لجميع المسلمين في مشارق
الأرض ومغاربها ، وكانت هي لغة الاسلام يوم أن كانت الوحدة الشاملة ،
وقد تفرقوا اذ تفرقوا عنها ، مكان أول مظهر من تفرق كلمة المسلمين هو احياء
اللغات الشعوبية للأقوام الذين دخلوا الاسلام أفواجا *

وليس مؤدى ذلك أن القرآن والاسلام للعرب وحدهم ، دون سائر
الناس *

حماية محمد للوحدة التي أُلّفها الله :

٤٣ - حمى صلى الله عليه وسلم الوحدة الاسلامية التي أُلّفها الله تعالى على يديه في البلاد العربية وبين القبائل العربية ، حماها النبي صلى الله عليه وسلم مما كان سبب التفرق من بعد ، وهو العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالأنساب وما نهى النبي صلى الله عليه وسلم مستتراً أمراً اجتماعياً كما نهى عن العصبية الجاهلية ، والتفاخر بالأباء والأجداد ، وأوجب التفاخر بالعمل الصالح وحده .

لقد برىء النبي صلى الله عليه وسلم من كل ما يدعو بدعوى العصبية الجاهلية فقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية » .

ولقد روى مسلم والنسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قاتل تحت راية عمية يدعو لعصبية أو ينصر عصبية ، فقتلته ^(١) جاهلية » .

أى يكون في حال عمى بسبب هذه العصبية الجاهلية التي لا تعرف الحق من الباطل ويكون الضلال والجهاد فيها بينا لا يخفى على مؤمن بالله تعالى .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي ينصر قومه على المظالم مثل البعير المتردى في الركي ^(٢) فهو ينزع بذنبه » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى العصبية المنهى عنها ، فقال صلى الله عليه وسلم « العصبية أن تعين قومك على الظلم » .

وهنا يرد سؤال : هل ينهى النبي عن محبة الأوطان أو محبة الأقوام ؟ وان الجواب عن ذلك أن المحبة في كل صورها أمر محبوب في الجماعة تبتدىء بمحبة الأسرة والعشيرة ، ثم الجماعة في الوطن ، ثم الجماعة الكبرى في

(١) العمية بكسر العين على وزن فعلية مبالغة في العمى .

(٢) الركي ، الآبار .

الاسلام . ولا تلغى الدرجة العليا ما دونها ، ولكن المنهى عنه المحبة التي تؤدي الى الفرقة والانقسام ، وتحرض على الظلم ، وهي العصبية الجاهلية ، ولقد سأل ابي بن كعب النبي صلى الله عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم الذي آتاه الله الحكمة : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر قومه على الظلم » .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم »
وللاثم انما يكون في الاعتداء والظلم .

ولقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل اقامة الوحدة وتثبيت أمرها عن أن يقتتل المسلمون بعضهم مع بعض ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « اذا تواجه المسلمان فالقاتل والمقتول في النار ، فقول يا رسول الله : هذا القاتل ، فما بال المقتول ! ، قال : لأنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « لا يثر أحدكم الى أخيه بالسلاح ، فانه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » .

ولقد روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ، وقد رواه مع الترمذي أبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه وجزى أباه عن الاسلام خيرا .

٤٤ — كان النبي يحمي الوحدة ، والتألف العربي الذي ألف الله به العرب بعد طول افتراق ، وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن العصبية الجاهلية هي سبب فرقتهم ، فزوالها هو الذي يجمعهم .

وقد حد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحدود ، فلم يمح الأوطان ، ولا الأقاليم ، لأن المحبة كالصنوبر من المساء يفيض على المكان القريب منه ،

ثم يفيض على ما بعده . فلا يمكن أن تمحى محبة العشيرة أو محبة الوطن التي حلت محل حب العشيرة أو القبيلة ، ولكن محبة الوطن تكون في ظل الاسلام كله أولا ؛ وتكون في دائرة المحبة التي لا بغضاء فيها ، ولا عداوة ، ولا اعتداء .

وإذ ذلك فسر عليه الصلاة والسلام العصبية بأن يعين المرء قومه على الظلم .
وان التصور الذي نستطيع أن ندركه في الجمع بين الوطنية أو الاقليمية والوحدة الاسلامية هو أن نقول ان التدرج الانساني يبتدىء بالأسرة ، ثم أحادها يكونون وحدة متضافرة متوادة متحاببة ، والأسر مجتمعة تكون اقليما متوادا متكالفا متحابيا بحيث لا تكون شمة عداوة بين أسرة وأخرى ، والمجتمع الاسلامي يتكون من أقاليم متعاونة في الذود عن الاسلام .

وكما يضحى بالواحد في الأسرة في سبيل مجموعها ، ويضحى بالأسرة في سبيل الوطن فان الوطن يندغم في الجماعة الاسلامية ، وتكون الوحدة الاسلامية متكونة في أعلى مدارجها .

المنافقون والوحدة في عهد النبي :

٤٥ — العربي صريح بطبعه ، واضح النفس وضوح الشمس الرائعة التي تنير نفسها ، فاذا دخل الايمان قلبه التقى فيه نور البصيرة ، واذا كان في الأعراب منافقون كما صرح القرآن الكريم اذ قال « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » فان ذلك كان من شأن الجاهلية التي كانت قبل أن تخالط بشاشة الاسلام قلوبهم ، ولقد قال الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، ان الله غفور رحيم » .

ولما انتقل النبي عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، وخالط العرب اليهود ، وكان في المدينة بجوار اليهود مشركون لم يدخلوا في الاسلام مع أقوامهم ، بل أبوا وجحدوا .

واستمروا في غيهم يعمهون الى أن انتصر المسلمون في غزوة بدر *
وصارت لهم قوة يحسب حسابها ، فصارت كلمة الله هي العليا * وكلمة الشرك
هي السفلى *

عندئذ وجد من هؤلاء منافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ،
ولقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك
لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون * اتخذوا
أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم
آمَنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبك
أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل
صيحة عليهم * هم العدو ، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » *

وان هؤلاء المنافقين كانوا حربا على الوحدة التي كونها النبي صلى الله
عليه وسلم ، وكانوا يثيرون العداوة أينما وجدوا لكلامهم موضعا من التأثير ،
كانوا يوقعون بين المهاجرين والأنصار ، ولكن الله تعالى كان يرد تبيدهم في
نحورهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعمل على حماية المسلمين من شرهم ،
وحماية الوحدة الاسلامية التي ألفت من كيدهم ولكنه لا يقتلهم ، ولا يمسهم
بأذى ، حتى يحفظ للوحدة مظهرها ، وأعمالها هي التي تحذر المؤمنين ، فكلما
كانت حرب بين المسلمين وغيرهم خذلوا جيش الايمان ، وكان يغتر بهم ضعاف
الايمان والنبي صلى الله عليه وسلم يطاولهم ويصايرهم ، وهم لا يجدون
فرصة للتفريق بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار الا انتهزوها ، ووسسوا
الهوة عساهم يهدمون لبنات من ذلك البنين المرصوص من الوحدة الاسلامية *
روى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه
وسلم * في غزوة فكسع (١) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار : فقال
الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله

(١) معناه ضرب عجزته بيد أو رجل أو سيف أو غيره والمناسب هنا ان
يكون بسيف لأنهم كانوا في غزوة *

صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله ، كسح رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال رسول الله المؤلف بين القلوب : « دعوها فانها مننتة » فسمعها عبد الله بن أبي بن سلول (زعيم النفاق) فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال الرسول المؤلف للقلوب الحفيظ على الوحدة الاسلامية : « دعه ، لا يتحدث العرب ، أن محمدا يقتل أصحابه » .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة أن الغزوة التي أشار اليها صحيح مسلم في روايته كانت غزوة بنى المصطلق ، وذكر تفصيل القصة بما ينتهي في نتيجته الى ما انتهت اليه الرواية في صحيح مسلم فقال : « بينا رسول الله على الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بنى عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا فقال الجهني يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبي بن سلول (كبير المنافقين) وعنده رط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم ، وهو غلام حدث ، فقال كبير النفاق : أوقد فعلوها ، فقد نافرنا ، وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أمرنا وجلايب قريش ، الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم : وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله من عدوه فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب فقال عمر : فمر به عباد بن بشر ، فليقتله ، قال الرسول الحكيم : فكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، لا ، ولكن أذن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكون ليرتحل فيها » .

وبهذا الرحيل العاجل شغل الناس بلم المتاع واشتعت عن التفكير في تلك الدعوة الجاهلية التي نبئت نابئتها . وغذاها النفاق بغذائه الخبيث .

٤٦ — في سبيل بقضاء الوحدة قائمة في حقيقتها ومظهرها لم يتن النبي صلى الله عليه وسلم ليمس منافقا ، أو ينال منه أى نيل وهو يعلم أنه يثبط المسلمين ، ويخذلهم ، ويعلم كما ورد في القرآن الكريم أنهم مرضوا بداء النفاق ولا سبيل لأن يكونوا مؤمنين ، ولكنه كان مع ذلك يتلطف لهم ، ويستغفر الله لهم ، حتى نهاه الله تعالى ، ونزل قوله سبحانه : « استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

وكان النبي يفعل ذلك تأليفا للقلوب ، والأئنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، والألن لهم أقارب من المؤمنين المخلصين يألمون للأذى ينالهم ، ولقد كان عبد الله بن أبى هذا له ابن اسمه عبد الله من أخلص الناس .

ولكن الرفق لم ينهم عن غيهم ، ولم يقرب نفوسهم ، لأن النفاق مرض ، ان أصاب القلب لا يشفى منه ؛ ورفقة النبي صلى الله عليه وسلم في السياسة والحروب ورفقة المؤمنين معه كانت تزيد مرض النفاق فيهم ، « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » وذلك بتوالى الانتصار .

الافك وخوض المنافقين :

٤٨ — تخلفت عائشة أم المؤمنين حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هودجها في احدى الخرجات حتى أدركها بعض الصحابة فأناخ لها الجمال وركبت . والتحقت بركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت تلك الواقعة فرصة للنفاق ، فتلقفها عبد الله بن أبى وتولى كبر الافك على أم المؤمنين الطاهرة بنت الطاهر الصديقة بنت الصديق وزوج خير العالمين ، وصفوة الوجود الانسانى .

قد قالت عائشة أم المؤمنين : وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول

في رجال من الخزرج ، وهو الذي قال الله تعالى فيه : « أن الذين جاءوا بالافك عصابة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

وكان يكفى هذا لأن يثير النبي صلى الله عليه وسلم ليعاقب الآثمين ، وقد مس الأمر شخصه ، وان لم ينل من مكانته عند الله تعالى وعند الناس ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ليعمل لنفسه ، لكنه يعمل لله وهو لا يريد الا أن تبقى الوحدة الإسلامية سليمة في حقيقتها وفي مظهرها .

ولم يفعل في حديث الافك الا أن قال عاتبا مترفقا :

« أيها الناس : ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم الا خيرا » .

ولكن ذلك العتب الرقيق الهادئ استفز قلوب قوم مؤمنين من الأنصار فنقال أسيد بن حضير من الأوس : « يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيكهم وان يكونوا من اخواننا الخزرج فمرنا بأمرك فوالله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم » .

ولنترك لابن هشام الكلمة يتمم القصة ، ومنها نعلم أن عبد الله بن أبي كان يرمى الى التفرقة بين الأوس والخزرج ، ويقول ابن هشام بعد نقل مقالة أسيد بن حضير :

قام سعد بن عبادة ، وكان من قبل يرى رجلا صالحا ، فقال : « كذبت لعمر الله ، لا تضرب أعناقهم ، أما والله ، ما قلت هذه المقالة الا لأنك عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا » ، فقال أسيد : « كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين » .

وتساور الناس حتى كان يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر . ذلك ما كان يبتغيه عبد الله بن أبي بن سلول بما حدث به الخزرج ،

وما كان يمكن أن يسكت من غير فتنة يثيرها ، ولكن قوة الايمان فى الأند
الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « لولا الهجرة لكنت من امرء
الأنصار » ، كانت قوة الايمان قاضية على هذه الفتنة .

وهكذا كان المنافقون يوقدون للفتنة ، حيث وجدوا الى ذلك سبيلا ، و
أوقدوا نارا لها أطفأها الله تعالى بقوة ايمان أصحاب رسول الله صلى
عليه وسلم .

٤٨ - استند أمر النفاق فى المدينة والنبى صلى الله عليه وسلم يطأ
المنافقين ، وهو يعلم الأكثرين منهم ، أو يعلم كبراءهم وهم يكيدون فينجد
أحيانا بين الضعفاء ، ولا يقوون على أن يبيثوا سمهم فى أقوياء الايمان ،
هؤلاء يعلمون أمرهم ، ولا يخذعون . وان كانوا كما قال الله تعالى
« يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ،
قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، و
قل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسد
ولكن لا يشعرون » .

وهكذا نجد المنافق الذى يكثر نفاقه بالكذب على الناس واستمرار الكذ
ينتهى أمره بأن يفسد تفكيره فلا يرى الأمور على وجهها ، بل يراها من ور
تفكيره السقيم .

استند أمر النفاق فى المدينة ، حتى ذهب أهل كل بيت فيه منافق يستأذ
النبى صلى الله عليه وسلم فى قتله ، وذهب عبد الله بن عبد الله بن أبى يقو
للرسول : ان كنت تريد قتل أبى فأمرنى بقتله لأنى لا أريد أن يكون فى نفس
نار من مؤمن .

ولكن النبى ترك النفاق يأكل بعضه بعضا .

وقال : أين عمر ؟ لو قتلناهم يوم طلب قتلهم لأرعدت لهم أنوف تري
اليوم قتلهم .

وهكذا بحكمة الرسول وبحلمه وسماحته ولطف عشرته تمت الوحدة بين
العرب ، ومات النفاق بينهم بفعل أهله ، والله سبحانه وتعالى بكل شىء محيط

الاتجاه بالدعوة إلى غير العرب

٤٩ — تم تأليف العرب في وحدة اسلامية جامعة ، أو كاد يتم ، والاسلام لم يجيء للعرب وحدهم ، ولكنه للعالم الانساني كله ، فكان لابد أن يتجه الى الناس كافة من بعد نشره في البلاد العربية ، وجعل قوة له فيها ، وبعد أن أزال دولة الأوثان +

ولذلك اتجه الى الروم والفرس والشام ومصر برسل أرسلهم ، وكتب كتبها ، وهو يريد من الارسال اليهم أن ينفذ الى شعوبهم ، ليتمكن من الدعوة الاسلامية الجامعة لكل معانى الانسانية +

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه + وكتب معهم كتباً الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام +

يقول ابن هشام في سيرته : « فبعث دحية الكلبي الى قيصر ملك الروم وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمي الى ملكى عمان » + ولم يقتصر برسله على غير العرب ، بل أرسل الى أمراء العرب الذين نأت ديارهم ، ولم يشتركوا في حروب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن في أرضهم ففتح اسلامي +

ولنثبت هذه الكتب كما رويت في كتب السيرة وفي الصحيحين ، صحيح مسلم والبخارى وغيرهما +

(أ) ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه كتب الى هرقل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ،
سلام على من اتبع الهدى »

أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتكَ الله
أجركَ مرتين ، فان توليت فان عليك اثم الأريسين (يريد الرعية) « يا أهل
الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به
شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا
بأننا مسلمون »

(ب) وكتب الى كسرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم + من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس +

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا اله الا الله
وحده ، لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فانى
رسول الله الى الناس كافة « لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين »
أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اسم المجوس »

ويروى أنه لما قرىء عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : « مزق الله ملكه »

(ج) وكتب الى النجاشى ملك الحبشة :

« بسم الله رب العالمين ، من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة :
أسلم أنت ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن
المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها الى مريم الطهور
الطيبة الحصينة ، فخلق الله تعالى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وانى
أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن
بالذى جاءنى + فانى رسول الله ، وانى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد
بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى »

وبعث بالكتاب مع عمرو بن أمية الضمري وقد أخذ يذكره عمرو بعدطفه على المسلمين عند الهجرة الى الحبشة * وحده عليهم قال له : « يا أصحابنا ان علي المقول ، وعليك الاستماع ، انك كأنت في الرثة عينا * وكأنا في الثقة بك ومنك ، لأننا لم نظن بك خيرا الا لنفاه منك ، ولم نخفك على شيء قط الا أمناء * وقد أخذنا الحجة عليك من فيك : الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد : وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحز واصابة الفصل والافأنت في هذا النبي الأمل كاليهود في عسى بن مريم » *

« وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله الى الناس ، فرجاك لما لم يرجهم له : وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف ، وأجر ينتظر » *

قال النجاشي : « أشهد بالله أنه النبي الأمل الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر » *

وكتب النجاشي كتابا الى النبي جوابا لكتابه هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الى محمد رسول الله من النجاشي أصحابنا *

سلام عليك ، يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته الذي لا اله الا هو *

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعث به اليينا ، قد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقنا مصدقنا ، وقد بايعتكم وبايعت ابن عمك (جعفر بن أبي طالب) وأسلمت على يديه لله رب العالمين » *

(د) وكتب الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية ، وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله ، ورسوله — الى المقوقس عظيم القبط » *

سلام على من اتبع الهدى *

أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين فان توليت فانما عليك اثم القبط « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » *

بعث هذا الخطاب مع حاطب بن أبى بلتعمة ، ولم يكن حاطب بتبليغ انرسالة ، بل ناقته في أمور الفراعنة والعبرة في أخبارهم ، قال حاطب : انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك * قال المقوقس : ان لنا ديننا لن ندعه الا لما هو خير منه * قال له حاطب : ندعوك الى دين الاسلام ، الخافى به الله فقد ما سواه ، وان هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري * ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل النوراة الى الانجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي *

ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به *

قال المقوقس : انى نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة باخراج الجبناء والاخبار بالنجوى * وسأنظر *

وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعله في حق من عاج وختم عايه ورفعته الى جارية ، ثم دعا كاتبها له يكتب بالعربية فكتب الى رسول الله الكتاب التالي :

« لحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط *

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو
اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت
رسولك ، وقد بعثت اليك بجارية لها مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت
اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » •

كانت الاجابة فيها سلام وأمان ، ومودة ولم يكن فيها ايمان •

•• — هذه كتب كتبها الى ملوك ورؤساء لم يكونوا عربا ، وقد رأينا أن
بعضهم لم يرد مطلقا ، وان كان فيه ميل الى الاسلام ، ولكن حب الملك طغى
على حب الحق فطمسه •

ومنهم من لم يرد ، ولكنه كان غليظا في تلقيه الكتاب اذ مزقه فدعا عليه
النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه ، فمزقه المسلمون شر ممزق :
ويروى أنه أرسل من يذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله •

ومنهم من آمن ، وحسن اسلامه ، وهو النجاشي •

ومنهم من أحسن الرد ، ولم يحسن لنفسه بالايمان ، وهو المقوقس عظيم
القبط في مصر •

وان النبي صلى الله عليه وسلم كتب لبعض أمراء العرب الذين كانوا في
أرض نائية عنه فأجابوا ومنهم من ذكر أن تحت سلطانه يهودا ومجوسا ، وماذا
يصنع معهم ، وهو المنذر بن ساوى •

ذكر الواقدي باسناده عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما
قال : وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس ، فنسخته ، فاذا فيه بعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى ، وكتب اليه
كتابا يدعوه فيه الى الاسلام •

فكتب المنذر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا جاء فيه :

أما بعد يا رسول الله ، فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأرسل الى نبي ذلك ، فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى *

« سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمد عبده ورسوله » *

أما بعد : فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وأنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم ، فقد أطاعنى * ومن نصح ائهم ، فقد نصح لى ، وان رسلى قد أثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك فى قومك * فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلان نعتلك من عمالك * ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » *

وترى أن ذلك الكتاب المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند ابن عباس (فى الجملة) يدل على أمرين :

أولهما : تسامح النبى صلى الله عليه وسلم مع أهل الذنوب ، وترك أمورهم لله تعالى ، وبيان أن الاسلام يجب ما قبله ، وأن الأمر يكون على حسب حاضرهم *

وثانيهما : أن الرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لأمر ربه فى قوله تعالى : (لا اكراه فى الدين) لم يفكر فى اكراه المجوس واليهود الذين هم فى ولاية المنذر ، بل تركهم وما يدينون * وفرض عليهم جزية تقوم مقام ما يجب على المسلم من زكوات وكفارات * ونذور * وصدقات ، وليسأهموا بذلك فى بناء الدولة الاسلامية *

٥١ — بهذه الكتب التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم حقق أن رسالته للناس كافة « لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » ولم يجب الى

الاسلام الا النجاشي * وبعض قومه * وقد فتح باب الدعوة الى الاسلام في أرضه وغيره من ملوك الفرس والروم ومصر وغيرهم * لم يجيبوا داعية الاسلام ولم يفتحوا الباب للدعوة الاسلامية * منهم من رد ردا عنيفا فيه اعلان العداوة للاسلام والمسلمين ، ومنهم من لم يرد قولاً * وان كان قد ثبت ميله للاسلام بالقول * وآثر الاحتفاظ بملكه عن الاستجابة للدعوة الى الاسلام فقد جاء في صحيح البخاري أن هرقل عندما جاء اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو وقومه الى الاسلام عرضه على الملأ من الروم وبدأ من لحن قوله وهريجه أنه يصدق الرسالة المحمدية ، فحاصوا حيدة حمر الوحش فتراجع ، وقال : انما كنت أختبركم *

ولم يقف بالنسبة للرومان على السكوت فقط ، بل ان الولاة والقواد لجيوش الرومانية اعتدوا على من دخل في الاسلام من أهل الشام وقتلوهم وفتنوهم في دينهم ، فحق قتالهم *

ولذلك أرسل النبي الجيوش للشام ، وخرج الروم الى المسلمين في غزوة مؤتة بجيوش كثيفة ، وقد تراجعت الجيوش الاسلامية بمهارة خالد بن الوليد عندما رأى أنه لا يقبل للمسلمين بالرومان عددا وعدة ، ثم كانت ، *** غزوة تبوك *

وكان لابد أن تنفذ الدعوة الاسلامية وراء محاجزات الملوك وممانعات الأمراء ، لأن الأمر بتبليغ الرسالة عام كما قال الله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ولا بد من ازالة هذه المحاجزات ، لما كان من اعتداء على المسلمين ، وعلى الاسلام بمنع دعوته *

واتجه النبي صلى الله عليه وسلم الى فتح الشام للدعوة الاسلامية ، فأعد جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وشدد في تنفيذه ، وكان فيه الشيطان الجليلان أبو بكر وعمر *

وأوصى بتنفيذه ، وكان لا بد من تنفيذه *

وهنا نلتفت الانتقانة صغيرة الى معنى تكوين الجيش ، فعلى رأسه أسامة ابن زيد الذى قتل أبوه فى حرب مؤتة وهو مع ذلك ابن زيد الذى لم يبلغ فى نسبه ولا فى مكانه كبار قریش وخصوصا أن فى الجيش أبا بكر وعمر ، ومكانتهما فى الاسلام مكانتهما .

وفى ذلك اثبات أن الفرق ليس بالنسب ، وأنه يجب أن يمكن الصغير من العمل ، كما يمكن الكبير ، وأنه لا تقف الممانعات أمام صغير ، ولا يغض من مقام الكبير أن يكون مرؤوسا للصغير ، فإنه جهاد ، لا شرف فيه الا للعمل .

التآلف بين العرب وغيرهم :

٥٢ — تكاثر دخول غير العرب فى الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما فتحت فارس والشام ومصر ، وانساب المسلمون فى شمال افريقيا ، ثم من بعد ذلك دخلوا الاندلس وصافقوا وسط أوروبا ، فهل ترك النبى صلى الله عليه وسلم الأمر فرطا ولم يبين ما ينبغى اتباعه بعد أن دخل غير ان العرب فى دين الله أفواجا . كالا ان النبى صلى الله عليه وسلم دبر الأمر لما يكون من بعده ، حتى تكون الوحدة الاسلامية كاملة .

وذلك فى أمور ثلاثة :

أولها : النهى المطلق عن العصبية ، فان النهى عن العصبية يدخل فى عموم النهى عن عصبية الاقليم ، كما يدخل فى عموم النهى عن عصبية القبيلة والنسب وأساس العصبية أن يعين المتعصب قومه على الظلم ، كما بين النبى صلى الله عليه وسلم أن العصبية لا تتأفى حب قومه ، ولا تتأفى حب الوطن ، كما وضحنا ذلك فى بيان تدرج المحبة فى المجتمع الاسلامى ، وأن الأساس الا تكون معاداة مطلقا ، وبالتالي لا يكون ظلم ، لأن العداوة تجر اليه ، وما يكون حراما تحرم ذريعته ، ودين المحبة يمنع العداوة فى أى صورة من صورها ، والظلم فى نظر الاسلام كما قرر محمد صلى الله عليه وسلم ظلمات يوم القيامة .

وثانيهما : اثبات الأخوة الانسانية العامة التى لا تفرق بين عربى وأعجمى

فقد قال عليه الصلاة والسلام كما روينا من قبل : « كلكم لأدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » *

وقد أوجب القرآن الكريم ذلك لأجل التعارف الاسلامي العام في قوله تعالى : « يا أيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » *

وقد قرر القرآن الكريم الأخوة بين أهل الايمان بقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، وانقروا الله لعلكم ترحموا » « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » *

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التنابز بالألقاب التي تدل على الجنس المختلف فقد سمع صلى الله عليه وسلم عربيا من أصحابه يتنابز مع غيره ، فيقول له : « يا ابن السوداء » فيغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنهواه : « لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى » *

الأمر الثالث : ولاء الموالاتة الذي شرعه النبي صلى الله عليه وسلم بين العرب وغير العرب ، ليقوم مقام المؤاخاة ولذلك بيان ، نذكره بايجاز *

ولاء الموالاة

٥٢ — ولاء الموالاة عقد يشبه عقد الاخاء الذي كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعقده عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والأنصار بعضهم مع بعض على ما حققنا فيما مضى ، وثبت من الرواية الصحيحة •

وحقيقة عقد الموالاة أن يتفق رجل دخل في الاسلام من غير العرب عادة مع أسرة عربية على أن تعقل عنه اذا جنى ، ويدخل في الأسرة على هذا الأساس بحيث يكون كأحدها في هذا ، ولا يتجاوزها ، وعند الحنفية ، — أبو حنيفة وأصحابه — أن العربي في مقابل أن يعقل عنه اذا جنى يرثه اذا مات من غير وارث من ذوى فروض ، ولا عسبة ، ولا ذوى أرحام •

وخالف بعض الفقهاء الحنفية في الميراث ، ولكن لم يخالفوهم في أصل عقد الموالاة ، فهو حقيقة ثابتة بالقرآن وبأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال لفتيه من فقهاء الاسلام الأعلام أن ينكر أمراً ثابتاً بالكتاب والسنة •

ونحن نذكر ولاء الموالاة في الوحدة الاسلامية ، لأنه امتداد للاخاء الاسلامي الذي تولاه محمد صلى الله عليه وسلم ، والمؤاخاة الاسلامية عقد أشرف عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحسب أنه داخل في عموم النصوص الدالة على العقود التي تثبت مؤاخاة بين المسلمين تثبتنا للوحدة ، وتمكيننا للأخوة الاسلامية العامة ، سواء أكانت بعقد سمي عقد المؤاخاة ، كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم ، أم سميت بعقد الموالاة ، كما اشتهر بين الفقهاء من بعد •

ونعود الى النصوص الواردة المثبتة لعقد الموالاة والتي تشمل بعمومها عقد المؤاخاة على أنه شريعة اسلامية دائمة ، ان لم تكن واجبة فهي أمر حسن في الاسلام ، وليس حالة وقتية خاصة بالهجرة •

لقد قال تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين
عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ، أن الله كائن على كل شيء شهيدا » *

وقد روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب على بطن عقوله
(أى أن تقوم قبيلة العاقد الذى عقد موالاته بدفع دية مولاة اذا جنى) وقال :
لا يتولى مولى قوم الا باذنهم ، أى أنه لا يدخل فى أسرة أو قبيلة بمجرد عقد
شخص منها ، بل لا بد من اذنها ، ولقد قال فى ذلك أبو بكر الرازى الشهير
بالجصاص « حوى هذا الخبر معينين أحدهما جواز عقد الموالاتة ... والثانى
أن له أن يتحول بولائه الى غيره الا أنه كرهه الا باذن الأولين » *

ومؤدى هذا الكلام أن الولاء يبتدىء بالتزام شخصى من العقائد ، ويتحول
الى ولاء للأسرة أو القبيلة كلها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحسن
ما دام الولاء له هذا التعدى أن يكون باذن من الأولياء ، لأنهم سيتحملون ديات
جانبيية ، فيحسن أن يكون لهم ارادة واختيار ليكون الالتزام بأرادتهم ،
لا بالزامهم *

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « الولاء لحمة كحمة النسب » *

ولقد ذكر الفقهاء مستنبطين من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وسنته
أحكامه فقال يحيى بن سعيد : اذا جاء رجل من أرض العدو فأسلم على يد
مسلم فان ولاءه لمن والاه ومن أسلم من غير المسلمين المقيمين فى ظل الاسلام
(الذميين) فولأؤه للمسلمين عامة *

وقال الليث بن سعد فقيه مصر : من أسلم على يدى رجل ففد والاه ،
وميراثه لمن أسلم على يديه *

وروى عن تعميم الدارى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
له : يا رسول الله فى الرجل يسلم على يدى الرجل من المسلمين : قال : هو أولى
الناس بمحياه ومماته *

وروى أنه قد سئل ابن شهاب الزهري عن رجل أسلم فوالى رجلا هل بذلك بأس ، قال : لا ، وقد أجاز ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

٥٤ — وفى الحق أن اجازة عقد الموالاة ثابتة بالقرآن فيما تلونا ، وبالحديث والسنن المروية عن الصحابة ، وهو تناهر وتآلف بين العربى وغير العربى ، وبين المسلم القديم باسلامه والمسلم الداخل فى الاسلام الذى يكون فى كثير من الأحوال قد انفصل عن أهله وعشيرته ، فشرع الله تعالى ولاء الموالاة ليكون للرجل أنس بالمسلمين ، وقد فقد أنسه بآله وعشيرته ، وهذا يفسر قوله صلى الله عليه وسلم « الولاء لحمة كلحمة النسب » .

ويفرض الفقهاء اعتراضين أحدهما على أهل شرعية هذا الولاء ، والثانى على التوريت به .

أما الأول فهو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى رواية جبير بن مطعم « لا حلف فى الاسلام ، وأبها حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام الا شدة » أى فى حال كونه موافقا للمبادئ الإسلامية ، كحلف الفضول الذى كان لحماية الضعفاء ، أما الحلف الجاهلى الذى يتنافى مع مبادئ الإسلام ، فإنه لا يلتفت اليه ، وكان حلف الجاهلية يقوم على التعاون على الأثم والعدوان ، والأخذ بالثارات ، ويقول فى ذلك أبو بكر الرازى : وذلك لأن حلف الجاهلية كان يعاقده ، فيقول : « هدمى هدمك ، ودهى دمك ، وترثنى وأرثك » . وكان فى هذا أشياء قد حظرها الإسلام ، وهو كان يشترط أن يحامى عليه ويبذل دمه دونه ، ويهدم ما يهدمه ، فينصره على الحق والباطل ، وقد أبطلت الشريعة هذا الحلف ، وأوجبت معونة المظلوم على الظالم ، حتى ينتصف منه ، وألا يلتفت الى قرابة ولا غيرها ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالانقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا ، فإنه أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

٥٥ — وخالصة هذا الرد أن الحلف المنهى عنه فى الاسلام هو الحلف

الجاهلى اذى أساسه أن تؤخذ الحقوق أو غيرها من غير حكم ، بل بالغبسة والقهر والتعاون عليهما فحرم الاسلام ذلك • حرم أن يكون حلف فى الاسلام يكون على هذه الأسس ، ففى الاسلام نظام وقضاء ، ولم يترك الناس يبغى بعضهم على بعض ، ففقد كانت دولة حاكمة بالعدل ، تنتصف للضعيف المظلوم ، وتقتص من القوى الظالم •

وإذا كان الحلف قائما على العدل والانصاف للمظلوم ، فان الاسلام يزيده كحلف الفضول الذى عقد فى دار عبد الله بن جدعان الذى كان المتحالفون فيه يقولون لناخذن على يدي الظالم مارسا ثبير (جبل بمكة) ومابل بحر صوفة ، ولقد حضره النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال بعد بعثه عليه الصلاة والسلام : « لقد حضرت حلفا بدار عبد الله بن جدعان ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الاسلام الأجبث » •

ومهما يكن من أمر حلف الجاهلية فالولاء على المعونة والنصرة ، ودفع الدية والمعاونة فيها ان وجبت لا ينطبق عليه معنى الحلف الذى يكون فيه التناصر فى الباطل ، وان كان فيه حلف فهو فى المعاونة على أداء الحقوق والواجبات وايناس المسلم حديث العهد بالاسلام بالأخوة الاسلامية •

وإذا كان فيه معنى فهو أنه نوع المؤاخاة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وهو فى مؤداه تقوية للوحدة الاسلامية ، وهاربة للعصبية الجاهلية •

والاعتراض الثانى ليس على أصل الولاء ، انما هو على التوريث به ، وذلك لأن الله تعالى يقول : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » •

وان هذا وان كان فيه الخلاف الفقهى بين أبى حنيفة وبعض من الفقهاء لا مانع من أن نقول فيه كلمة موجزة : ان الذين يثيرون هذا الاعتراض فى الميراث بمولى الموالاة يدعون النسب فى قوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى

مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم ، فاتوهم نصيبهم ، ان الله كان على كل شيء شهيدا » ، ونحن أولا لا نرى في القرآن منسوخا على ما قررنا في كتاب أصول الفقه .

ثانيا : أنه لا تعارض بين الآيتين ، آية « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وآية الميراث بالموالاة بالعقد ، لأن الميراث بولاء الموالاة حيث لا تكون قرابة مستحقة لميراث قط .

وقد يقول قائل : ان آية « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » نسخت الميراث بالمؤاخاة أيضا ، ونحن نقول ان الميراث بالمؤاخاة لم يثبت بنص قرآني ، وان كان النص القرآني يشملته بعمومه باعتبار أن المؤاخاة عقد ، فان الميراث بها لا ينسخ اذا كان على أساس أنه لا يكون الا حيث لا تكون قرابة قط .

بيد أن عقد المؤاخاة لا يثبت الميراث على أساس العقد الا اذا كان فيه النص على أنه يعقل عنه اذا جنى ويرثه اذا كان من غير قريب .

٥٦ — هذا هو عقد الموالاة الذي شرعه القرآن الكريم . وبينته سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عنصر من عناصر تكوين الوحدة الاسلامية التي كونها محمد صلى الله عليه وسلم في حياته ، وأوصى باستمرارها بعد وفاته ، ونهى عن قطعها ، وعد من يقطعها كأنما يبث مبادئ الكفر في الأمة الاسلامية . ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض » .

ولقد انتشر عقد الموالاة في صدر الاسلام في عهد الراشدين ومن جاء بعدهم حتى سمي المسلمون غير العرب بالموالى لأنهم كانوا يعقدون ذلك العقد المؤلف بين المسلمين الذي اقتضته الوحدة واقتضاه انس المسلم الأعجمي بأخيه المسلم العربي ، وتلاقيهما على مائدة الرحمة الاسلامية ، والأخوة العامة .

وان كثيرا من كبار رجال الاسلام كانوا موالى بهذا المعنى . فأبو حنيفة كان مولى لبني تميم ، ولذا كان يقال أبو حنيفة التيمي .

الوحدة الإسلامية في عهد الراشدين

٥٧ — ربما نكون قد بسطنا القول في عصر النبوة ، بما قد يخرجنا عن نطاق بحث موجز ، الى أن يكون كلاما في كتاب مبسوط ، ولكن الذي دفعنا الى ذلك أن عصر النبوة المحمدية هو عصر تكوين الوحدة الإسلامية ، وقيام دعائمها ، ولا يمكن أن يعرف التفرق الا اذا عرفنا قواعد البناء ، وما أتى القواعد من هذا البنيان ، حتى تصدع ، ولأننا اذا عرفنا التصدع ، ووازننا بين أصل البناء وهو قائم ، وحاله بعد التصدع — يمكننا معرفة الصدع ، فنراه ، ومكان الأسقوط ، فنرفعه •

نعلم بهذا كيف تفرق المسلمون مخالفين أوامر النبي ، وكيف يمكن إعادة الوحدة ، وأن نعلم أن آخر الأمة لا يصالح الا بما صلح به أولها ، وحدة يمحي فيها كل أسباب التفرق الاقليمي الا ما تقتضيه الطبيعة المكانية • من أجل هذا ، ولكي تكون المعالم واضحة بسطنا القول في تكوين الوحدة •

وعهد الراشدين أبي بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، كان يبتغى أن يكون امتدادا لعصر النبوة في الوحدة ، لأن هؤلاء أخلص المؤمنين للإسلام ، وأقربهم الى النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وأهداهم رشدا •

ولكن كانت أحداث لم تكن من قبلهم جعلت عصر الراشدين الكرام الذين انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ربه وهو عنهم راض ، وهم من المبشرين بالجنة — جعلت هذه الأحداث الأمور تتغير في عهد بعضهم على غير ارادة منهم ، ولكن يغير الناس الناس ، وقد أمكن في بعض الأحوال حمل الناس على الجادة ، وفي بعضها اتسح الخرق على الراقع بسبب دسائس من غير المؤمنين وسيطرة بعض المنافقين ، ولم يكن المعصوم صلى الله عليه وسلم الذي عالج النفاق بالحكمة ، مع اليقظة المترصدة المتنبهة — حيا •

الاختلاف والردة :

٥٨ — ما أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى حتى انبعثت العصبية من مراقدها ، ورفعت رأسها كما تننأ رعوس الشياطين •

ابتدأت عند اختيار خليفة للمسلمين ، فقد كان اجتماع في سقيفة بنى ساعدة ، وقف فيه سعد بن عباده الذي نادى وهو يحمي لواء الأنصار : اليوم يوم الملحمة يوم نذل فيه قريش ، وقف يقول : منا معشر الأثمصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ، وقد قضى على هذا الخلاف كلام أبي بكر وحكمته ، ومسارة عمر رضى الله عنه الى بيعة أبي بكر ، وتتابع أهل لسقيفة في البيعة أنصارا ومهاجرين *

وامتنع عن البيعة سعد بن عباد ، فلم يبایع أبا بكر ، كما لم يبایع عمر *

وانتهت هذه الزوبعة ، أطفأها الله تعالى ، اذ لم تجد حطبيا يؤجج النيران لاخلص الأنصار الذين نصرروا ابتداء ، وسدوا باب الفرقة والانقسام انتهاء *

ولكن ما ان انطفأت تلك الزوبعة الخفيفة ، وذهبت غياهبها بنور الاخلاص وقوته حتى انبعثت العصبية في حدة وعنف بلغا أشدهما *

وذلك في المردة :

لقد كانت المردة انبعاثا للعصبية ، وكانت البثق الكبير الذى انبثق من قبائل الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » *

قد امتنعت عن طاعة المدينة والخضوع لسلطانها القبائل العربية الا قريشا وثقيفا *

ارتدت أعداد كثيرة من أسد وخطمان وطىء ، وناس من تميم واليمامة وارتد أهل البحرين وعمان وكندة ، وحضر موت واليمن *

وهكذا خرجت جموع مرتدة من كل القبائل ، وكان خروجها لأمرين :

أولهما : أن الاسلام لم يكن قد استمكن من قلوبهم ، ولذلك قال الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم » *

وثانيهما : العصبية الجاهلية التي كانت تحقد على مضر وقريش ، حتى لقد قال قائل منهم : « كاذب ربيعة خير من صادق مضر » فالعصبية التي حاربها محمد صلى الله عليه وسلم ، واعتبر الدعاية بها دعاية مننتة خبيثة ، ارتفعت رأسها نابتة تتحدى بالفرقة والانقسام ، وأن يعود العرب كما كانوا قبل أن ينغذهم الله تعالى من حفرتها •

ولولا عزيمة أبي بكر ، وحكمته لعاد العرب كما كانوا ، ولكن عزيمة أبي بكر الضعيف في بدنه القوي في إيمانه قد قنعت عليها ، وجيش لهم الجيوش من قريش والأنصار ، وحاربوا عن إيمانهم •

فلما عضت الحرب أهل العصبية الجاهلية قالوا : نرضى بالصلاة ، ولا نعطي الزكاة ، فرأى بعض المؤمنين أن يقبل منهم ذلك ، حتى يستمكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم عمر •

ولكن الصديق ، وقد اعتزم ، لم يرض بنصف الحل ، وقال : أما سلم مخزية ، وأما حرب مجلية ، والتفت الى عمر رضى الله عنه ، وأخذ بلحيته وقال له : ثكلتك أمك يابن الخطاب أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام • وقال الصديق في قوة إيمان : والله لو منعوني عقلا أعطوه لرسول الله لقاتلتهم عليه • ويقول رضى الله عنه : « والله لو أفردت من جمعكم لقاتلتهم حتى أنال مأربا أو أهلك مهلكا » •

انتصر الايمان على الردة بتوفيق الله تعالى ثم عزيمة أبي بكر ، وجهاد أهل الايمان •

وكان من حكمة الصديق أن جند العرب لحرب فارس والروم •

وتحقيق قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخالفون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتية من يشاء ، والله واسع عليم » •

عهد الشيخين :

٥٩ — بعد أن انتهت الردة ، وعميتها ، استنقام أمر المسلمين على وحدة جامعة شاملة ، قام على حراستها هديق الأمة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام من بعده الفاروق رضى الله تبارك وتعالى عنه الذى لا يسير الشيطان فى فحج يسير فيه عمر ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، والذى قال فيه الرسول أيضا أنه لا أحد يفرى فريه فى الاسلام +

خدمت العصبية الجاهلية المفرقة ، وأطفأ نيرانها الايمان والفتوح الاسلامية ، وقد وضعت العقوبات الرادعة الزاجرة لمن ينادى بها +

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يأمر قضاته وولاته أن يعاقبوا من ينادى بالعصبية الجاهلية ، حسما لمادة الفساد ، ولقد روى أن أبا موسى الأشعري عاقب النابغة الجعدي بجلده خمسين جلدة لأنه اشد بعصبيته ، ونادى بالعامر +

والفقهاء من بعد ذلك فى عصر الاجتهاد الفقهي بناء على الهدي المحمدي وعلى سنة الصحابة من بعدهم قدروا عقوبة زاجرة لمن ينادى بندا الجاهلية +

فمنهم من جعلها خمسين جلدة اقتداء بالصحابى الجليل أبى موسى الأشعري ومنهم من جعلها عشر جلدات ، لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن جلد أحد فوق عشر جلدات الا فى حد +

ومنهم من قال ان ذلك يترك لتقدير القاضى ، أو الوالى اذ أن العقوبة عقوبة تعزيرية ، والتعزير يفوض الى القاضى أو ما يراه ولى الأمر رادعا +

وبذلك تعاون الولاة مع الامام أبى بكر وعمر على مقاومة العصبية التى تفرق النجم الاسلامى وتقطع الوحدة الاسلامية +

اتساع الحكم الاسلامى :

٦٠ — فى عهد أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت الجيوش الاسلامية لتزيل حكم الملوك الذى كان يحول بين الشعوب ، والاستماع الى

المدعوة الاسلامية التي تتضمن التوحيد ، وأعلى المبادئ الاجتماعية من الحرية
والمساواة ، وأن يكون أمر الناس شورى بينهم ، وإقامة العدل ، ومنع الظلم
والفساد ، وما كان حكام ذلك الزمان ليسمحوا بأن تنتسل تلك المبادئ الى
شعوبهم ، والالام يكن للمكهم أساس يقوم عليه *

وفوق ذلك فان أولئك الحكام ردوا دعوة النبي ، ردا غير كريم ، واعتدوا
على من أسلم في الشام ، كما أشرنا من قبل ، وقد انسابت الجيوش الاسلامية
في أراضي هؤلاء الملوك ، وخضعت الشعوب المفتوحة أرضها لحكم الاسلام ،
وأظلم عدله *

وقد انقسموا الى قسمين : قسم أسلم ، ودخل في جماعة المسلمين ، وصاروا
بهذا تجمعهم راية الاسلام ، ويخضعون للقرآن ، وينفذ حكمه ، وحكم الدولة
الاسلامية *

وقسم لم يسلم ، ولكن دخل في عهد المسلمين ، ومن هؤلاء من ارتضى أن
يكون في ظل الحكم الاسلامي له ما للمسلمين وعليه ما عليهم * وهو حرفي الجزء
الذي يتعلق بالعقيدة الدينية ، لا يمنع من إقامة شعائره الدينية ، ويكون في أحكام
الأسرة خاضعا لدينه الذي ارتضاه ، لا يكره على الدين ، ولا يضطهد في اعتقاده ،
والقاعدة الفقهية التي أثرت عن الصحابة والتابعين ، وعدها الفقهاء قاعدة تتبع
وتنفذ هي « أمرنا بتركهم وما يدينون » ويسمى هؤلاء الذميين ، إذ أن لهم ذمة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأى مسلم له أن يعقد ذمة مع غير مسلم ،
والامام يقره ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم ،
ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » *

وهؤلاء تؤخذ منهم جزية لقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله
ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد ، وهم صاغرون » أي طائعون غير متمردين ولا مستكبرين ، وليس
المعنى أذلاء ، فدين الله ، وهو دين العزة لا يذل أحدا ، إذ أن العزيز من الناس
هو الذي يقدر العزة في غيره ، كما يقدرها لنفسه ، ودين الحق والعدل لا يذل
أحدا ، لأن قانون العدل ونظامه يمنع الاذلال *

وهذه الجزية كانت ليشترك غير المسلم الذى يستنفل بظل الدولة الاسلامية
فى بناء الدولة والانفاق على مرافقها ، وهى فى مقابل ما يؤخذ من المسلم من
زكوات جارية منظمة يجمعها ولى الأمر ، كما كان يجمعها النبى صلى الله عليه
وسلم عن طريق ولاة الصدقات الذين يرسلهم ، ومنها الصدقات المطلوبة والندور
والكفارات والفدية وغير ذلك *

وان الجزية تؤخذ منها النفقات على فقراء أهل الذمة ، فقد كان يفرض أهم
من بيت المال ما يسد حاجتهم *

روى أبو يوسف فى كتابه الخراج ، أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً شيخاً
يتكف الناس فسأله : من أنت يا شيخ ؟ قال : رجل من أهل الذمة ، فقال الفاروق
ابعدالرحيم : « ما أنصفناك أكلنا شيبتك وتركتك فى شيخوختك » وأجرى له
رزقاً من بيت المال ، وقال لخازن بيت المال : ابعث عن شرباء هذا . وأجر
لهم رزقاً من بيت المال ، ولا شك أن ذلك الذى يجرى عليه يمكن أن يتون من
الجزية ، ولكن عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه جعل ما يجرى على هذا الرجل
وأشباهه من الزكاة، وقال انه داخل فى المساكين اذ يقول سبحانه : « انما الصدقات
للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى
سبيل الله » فأدخله فى المساكين ، بل انه رضى الله عنه نسر المساكين بزمنى أهل
الكتاب *

والقسم الثانى من المعاهدين هم الأمراء أو الحكام الذين لم يقاتلوا المؤمنين
عندما يخيرهم القواد بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيختارون العهد . على
ان يبقوا على ما هم عليه من حكم وساطان ودين . على مال يقدمونه فى نظير ان
يقوم الجيش الاسلامى بالذفاع عنهم والذود عن أرضهم *

وقد قرر الفقهاء مقتبسين من هدى النبى صلى الله عليه وسلم انه لا يجوز
من الشروط ما يكون فيه تمكين للأمراء والحكام من حكم الرعية بالظلم . فان شرط
ذلك يكون باطلا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون عند شروطهم الا شرطاً
أحل حلالاً ، أو حرم حراماً » والظلم حرام لذاته حرمة لا يبيحها نظام أو قانون *

بل انه اذا علم أن أميراً ممن له عهد يظلم رعيته ، ويبسعى بالفساد فيها يرد عليه عهده ، لأن ذلك يكون خيانة للعهد ، والله تعالى يقول : « **وَأَمَّا تَخَافُنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ** » *

الدولة الاسلامية بعد الفتوح :

٦١ — كانت الدولة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة على العرب وان آذن عليه الصلاة والسلام بأن الفتوح ستفتح ، فأذن بأن الله سيفتح على المسلمين العراق وفارس والشام ومصر وما وراءها ، وروى عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سيفتح الله تعالى عليكم مصر ، فإذا فتحتموها ، فأعدوا فيها جنداً كثيراً ، فهو خير أجناد الله تعالى في الأرض ، فقال أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه : ولم يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لأنهم ونساءهم في رباط دائم » *

وبعد أن فتحت هذه الأقاليم صارت الدولة الاسلامية ليست مقصورة على بلاد العرب وحدها بل شملت في عهد عمر رضى الله تعالى عنه تلك الأقاليم كلها ، وكانت الامامة الكبرى التي تتمثل في الخلافة بالمدينة ، حيث أمير المؤمنين بها ، يبين تعاليم الاسلام ، ويبلغ أوامره ونواهيها الى كل اقليم ، ويلاحظ هنا أمور :

الأول : أن الشريعة الاسلامية شريعة القرآن والسنة المحمدية ، هي التي كانت تحكم بها تلك الأقاليم مهما تباعدت رقعتهن عن المدينة ، وكانت عين الفاروق الساهرة الفاحصة تترصد لتنفيذ تلك الأحكام في غير هوادة ، وليس لغير الحق عنده ارادة ، ولكن في رحمة بالرعية ، وعطف على الضعفاء *

٦٢ — وفي الحقيقة أنه مع شمول الحكم لكل الأقاليم التي كانت في ظل الدولة الاسلامية لم يفقد كل اقليم ذاتيته مع سلطان الامام العادل عليه ، ونفوذ الأحكام الاسلامية فيه *

لقد كان الامام عمر الذي اختبره الله باتساع سلطان الدولة الاسلامية يكتفى من فرض سلطانه بتنفيذ الأحكام الشرعية وهو عليه الرقيب الذي لا يترك

صغيرة ولا كبيرة الا تتبعها ، ليعرف مقدار تنفيذ أحكام الشريعة في المعدل والمنسواة والإخاء بين المسلمين ، وقرب الحاكم من المحكوم .

ويترك للوالى الذى ينفذه ما يراه مصلحة فى بلده ، بحيث لا يخرج عن المبادئ الاسلامية المقررة ، وبحيث يمكن أن يكون موافقا للنظم الاجتماعية فى بلده التى لا تخالف الاسلام ولا تجافيه ، ولا تتنافى مع المقاصد المقررة فى الشريعة الاسلامية .

وكان يجعل فى كل اقليم ثلاث ولايات ، قد تجتمع اثنتان منها فى شخص واحد ، ولكن واحدة يجب أن تكون منفردة الولاية الأولى ولاية القتال والجهاد فى سبيل الدعوة الاسلامية من غير رهق ، والا اعنات للناس ، ولا اكراه فى دين الله تعالى .

والثانية : ولاية الخراج والجزية ، وقد تكون تابعة لوالى الجهاد الذى يعد أمير البلاد ، وله فيها الولاية العامة ، وقد اتبع عمرو بن العاص فى جمع الخراج نظاما يكاد يكون تعاونيا جماعيا .

فقد كانت عدة قرى تتجمع وتجمع خراجها : وتتولى كل قرية نظام الزراعة فيها فتوزع الأراضي الزراعية على القادرين عليها ومن يعجز أو يموت يتكفل القادرون زراعة أرضه له أو لورثته .

ويوزع خير الأرض بعد سداد الخراج ، وحجز مقدار للفقراء على المزارعين بنسبة ما تحت أيديهم .

وكان أمير المؤمنين يتعرف أخبار الذين يتولون الخراج ، حتى لا يرهقوا الأرض بأكثر مما تحتمل ، ويرهقوا الناس بأكثر مما ينتجون .

وإذا تكاثر جمع المسلمين فى بلد كان والى الصدقات يجمع الزكوات ، وينفقها فى مصارف ، وعين عمر تراقبه ، والغنائم والفىء تعود الى بيت المال .

والولاية الثالثة ولاية القضاء ، وهذه كان يتولاها قاض من قبل الامام الأعظم ، وهو الذى يشرف على من دونه ، وكان الامام يعطى القضاء عنساية خاصة ، لأنه الميزان والقسطاس الذى يوزع العدالة بين الناس ، وجعل القاضى مستقلا يستمد السلطان من الشرع فقط ، ويستمد الفصل بين الناس من الامام الأعظم ، لكيلا يتحكم والى الجهاد أو الولاية العام فى النصفة بين الناس .

ولذلك نقول انه مع سيادة الدولة الاسلامية على كل الأقاليم التى سيطر عليها الاسلام سواء أدخلوا فى الاسلام أم بقوا على دينهم مع أنهم بعيشون فى ظل الدولة الاسلامية ، لم تمنح الأقاليم .

بل كان فى كل اقليم حكومته ، وان كانت تابعة للدولة الكبرى ، وتوحيدها الدولة الكبرى ، ولذلك نقول ، ان لكل اقليم حكومته ، ولكن القائمين عليها يستمدون الولاية من الامام الأعظم صاحب الولاية الكبرى التى وحدت الدولة .

وكانت الحكومات كلها لها قانون واحد هو القرآن والسنة ، والأمير الأعظم هو المقيم بالمدينة ومنه يستمد كل الولاية ولايتهم ، ويصدرون عنه فيما لم يترك لهم ، وهو يتتبع أعمالهم .

سيطرة عمر على الولاية :

٦٣ — كان عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه الامام ، وعصره هو العصر الذى استبان فيه سلطان الكتاب والسنة وتطبيقهما تطبيقا سليما على مقتضى العصر ، وحكومته هى الحكومة الاسلامية التى تعد بعد حكومة الرسول وخليفته المثال الذى يتبع ، وكان فيها جمع للمسلمين ، على الخير والعدل .

وكان يراقب عماله بالاستماع الى الشكوى منهم ، وما شكى من عامل وأهمل الشكوى ، بل انه فى بعض الأحيان كان يثبت له كذب الشكوى ولكنّه يخشى من تحامل الولى العادل البرىء على من شكاه لأن الافتراء يحدث شيئا فى نفس من افتترى عليه كما فعل مع الصحابى الجليل أحد المبشرين بالجنة سعد بن أبى وقاص فإنه كان ثمة شكوى منه ، وأحضره وبين له كذب الشكوى

وترضاه عمر ولكنه عزله مع ذلك ، خشية أن يكون ألمه ممن شكاه دافعاً
لنا لا يريد .

وكان رضى الله عنه يصرح بأنه يؤثر أن يعزل كل يوم واليا عن أن يبقى
واليا يظن منه الظلم أو يشتبه في ظلمه . وكان يسأل في موسم الحج وفود
الأقاليم عن حال الولاة ويتعرف معاملتهم لرعيته فان تبين له أن الوالى يحتجب
عن الناس عزله ، وان تبين له أنه يسكن بعيدا عن الناس نهاء .

وأول من يسأل عن حاله معهم حاله مع أهل الذمة (الذميين) أينصفهم
أم لا ، وذلك لأن هؤلاء مظنة أن يظلموا فان تبين له أنه يحسن معاملتهم ،
ويحفظ لهم حريتهم في تدينهم أبقاه .

ولقد كان يجتمع بولائه ، ويحثهم على العدل ، ألا يرهقوا الرعية ، ومن
ذلك قوله لهم في احدى مرات الحج :

انى أرسلتكم لتعلموا الناس دينهم ، وما أرسلتكم لتضربوا أبشارهم ،
والله لا أوتى بوال ضرب من غير حد الأقصن منه .

فقال عمرو بن العاص : أتقتنص منه ولو ضرب تأديبا ؟ فقال الفاروق
مكررا : والله الأقصن منه ، ولقد حدث أن عمرو بن العاص قال لبعض الناس :
يا منافق أمام ملامن الناس فى المسجد .

فشدد الرجل رحاله وذهب الى أمير المؤمنين الفاروق فى المدينة وقال :

يا أمير المؤمنين ، ان الأمير نفقتى ، وما نافقت مذ أسلمت .

فكتب عمر رضى الله عنه كتابا ، وأعطاه الشاكى ، وفى هذا الكتاب :

« من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى العاصى ابن العاص .

ان فلانا (صاحب الشكوى) يقول انك نفقتة ، وما نافق مذ أسلم ، فان
كان ما يقول صدقا ، فمكته من أن يضربك عشرة أسواط .

فجاء الرجل أمام الملاء ، وقال : من منكم سمع الأمير نفقنى ، قالوا : كلنا
سمع . فأعطى الرجل الكتاب عمرا .

فقال الملاء : أو تضرب الأمير ، فصاح الرجل : ليس الأمير المؤمنين هنا
أمر ، فأعطاه عمر السوط ، وطلب إليه أن يضربه ، فقال العربي الأبي . الآن
عفوت .

٦٤ — لا يجب أن نطيل في أخبار عمر رضى الله عنه ، وإنها لنور ، ولكن
يجب أن نقرر أن عهد عمر رضى الله عنه هو الذى كان فيه دخول الأمصار من
غير العرب ، وهو الذى جمع بأمر الله ونهيه العربى والأعجمى فى ظل العدل
الاسلامى ، وهو الذى ابتدأ بتنظيم العلاقة بين دار الخلافة الجامعة والأمصار
المتفرقة ، بحيث يتحد الحكم ، ويبقى لكل مصر طبيعته التى لا تخالف المقررات
الاسلامية ، بل تسايرها ولا تجافىها .

ونشير هنا الى أن الذى جمع هو العدالة الظاهرة مع الرعايا جميعا ،
لا يقرب فى الحكم قريبا ولا بجافى بعيدا ، واقد كان اذا نهى من أمر أو أمر
أمرا ، أحضر آل الخطاب ، وقال : لقد عزمت على المؤمنين أمرا ، والله لا أوتى
مخالف الا ضاعفت له العقاب .

وان العدالة الظاهرة المنبثقة فى كل الأقاليم هى التى منعت العديبية المفرقة
من أن تظهر .

ولنذكر له خطبة وبعض كتبه يكشفان عن منهجه القويم فى جمع المال
وتوزيعه ، ومعاملته للرعية ، ومصارفته للعديبية .

الخطبة :

جاء فى كتاب الخراج للإمام أبى يوسف عن طلحة بن سعدان ما نصه :
« خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه . ثم صلى على النبي ،
صلى الله عليه وسلم وذكر أبنا بكر فاستنفر له ثم قال :

أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، وانى لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وانما أنا ومالكم ، كولى اليتيم ، ان استغنيت استعفت ، وان اقتقرت أكلت بالمعروف . *

ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويعتدى عليه ، حتى أضع خذه على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق . ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها ، لكم على ألا أجبى شيئا من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع في يدي ألا يخرخ منى الا في حقه ، ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله تعالى ، وأسند ثغوركم ، ولكم على ألا ألقبكم في المهالك ، ولا أجمركم^(١) في ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان ، كثير القراء ، قليل الفقهاء ، يعمل به أقوام للأخرة ، وآخرون يطلبون دنيا عريضة تأكل دين صاحبها ، كما تأكل النار الحطب . الا من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر . *

يا أيها الناس ، ان الله عظم حقه فوق حق خلقه . فقال تعالى فيما عظم به من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » *

ألا وانى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدوا الى المسلمين حقوقهم ولا تعذبوهم فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنروهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فياكل قلوبهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم ، وقائلوا بهم الكفار طاعتهم ، فاذا رأيتهم كلالا فكفوا عن ذلك فانه أبلغ في جهاد عدوكم . *

أيها الناس ، ان أشهدكم على أمراء الأمصار ، انى لم أبعثهم الا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم بالعدل ، فان أشكل عليهم شيء رفعوه الى » *

(١) التجدير : البقاء مدة طويلة في الجيش لا يعود الى أهله .

هذه خطبة جامعة مبينة لمنهاج عمر في المسال بأبلغ قول وأوجزه ، ومنهاجه مع أمراء الأمصار ، ومنهاجه في بث روح العزة ، ومنع الذلة بأى صورة من صورها .

وهكذا كان يربى الأمراء ، ويربى الشعوب ، وبذلك اجتمعا في عهده على وحدة اسلامية لا فرقة فيها امتدادا للوحدة الاسلامية التي كونها محمد ، واتباع الأوامر .

بعض كتبه :

٦٥ - وان كتب الفاروق الى عماله تكشف عن سياسته واقامته للعادل ومحاربتة العصبية ، ولتخذ منها ثلاثة كاشفة عما وراءها مما لم نذكر :

١ - كتابه الى ابي موسى الأشعري في أعماله في الولاية ، وهو غير كتابه في القضاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فان للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركنى واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة ، ودنيا مؤثرة ، فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، واذا عرض لك أمران أحدهما لله ، والآخرة للادنيا فأثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل ، وأخف الفساق . . واذا كانت بين القبائل ثائرة (١) ، وتداعوا : يا آل فلان ، فانما تلك : نجوى الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيثوا الى أمر الله ، وتكون دعواهم الى الله والى الامام ، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعو بأل ضبة ، وانى والله ما أعلم الا أن ضبة ما ساق الله بها خيرا قط ، ولا منع بها من سوء قط ، فاذا جاءك كتابى هذا ، فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح بابك ، وباشر أمرهم بنفسك . فانما أنت امرؤ منهم ، غير

(١) الثائرة : العداوة .

(٢) يفرقوا : بفتح الراء من غير تشديد معناها يخافوا .

ان الله جعلك أئقاهم محملا ، وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فايك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب ، فلم يكن لها الا السمن ، وانما حنقها في السمن ، واعلم أن للعامل مردا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان أشقى الناس من شقيت به رعيته *** والسلام » *

٢ - وكتب الى معاوية بن أبي سفيان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي الا خيرا ، وايك والاحتجاب وأذن للضعيف وأدنه ، حتى تبسط لسانه وتجريء قلبه ، وتعهده الغريب ، فانه اذا ضاق حبسه ، وضاق اذنه ترك حقه ، وضعف قلبه ، وانما ترك حقه من حبسه ، واحرص على الصالح بين الناس ما لم يستتب لك القضاء ، واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والأيمان القاطعة فاحكم » *

٣ - عهده لأهل اللد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُد ، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم ، وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا أموالهم ولا يكرهون عبى دين غير دينهم ولا يضار أحد منهم ، وعلى أهل لُد : ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل مدائن الشام ، وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط » *

ومن هذه الكتب يتبين ثلاثة أمور :

أولها : كيف كان تشدده في محاربة العصبية ، لأنها هي التي تفرق الجمع ، وتمزق الوحدة ، وكيف قرر العقوبات لمن ينادى بها من غير أن تأخذ الوالى هوادة فيها ، حتى يخافوا ويفزعوا ، ولا يعودوا اليها *

ثانيها : تشدده في اقامة العدل ، وفي سبيل ذلك حث الوالى على ألا يحتجب

عن الرعية ، حتى لا ييأس الضعيف من عدله ، ولا يجبس الغريب الذي يشكو
فلا يأذن له فيجب أن يسارع الى سماع شكواه .

ثالثها : عنايته بأهل ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحماية تديينهم ،
وحماية كنائسهم ، وهو بذلك سن القاعدة المقررة : أمرنا بتركهم وما يدينون .

عناية عمر بالقضاء :

٦٦ — كان يعنى بالولاية ومراقبة حكمهم وصلاتهم بالرعايا ، ولا يضمن
بالنصيحة ، ومعها بعض الانذار ، كما لا يضمن بالعزل ، وان وجدت مقتضياته
وكان يكتفى في العزل بالشبهات كما ذكرنا .

كذلك كان يعنى بالقضاء ، فكان لا يختار الا ذا دين وعقل ، وقوة فراسة ،
وادراك للنفوس ، وكان لا يضمن على القضاة بالارشاد الى أمثل الطرق
للقضاء .

وقد حفظ التاريخ كتابا له في القضاء تعد دسئور القضاء .

ونذكر لك خبرين من عنايته بالقضاء :

أولهما : عن الشعبي قال : أخذ عمر فرسا من رجل على سوم (أى على
سوم الشراء) فحمل عليه ، فعطب الفرس ، فدعا باسمه الرجل ، فقال عمر :
أجمل بنى وبينك رجلا ، فقال الرجل : انى أرضى بشريح ، فقال شريح : أخذته
سحيجا سليما فأنت له ضامن ، حتى ترده صحيحا سليما ، فأعجب الحكم عمر
رضى الله عنه ، فعينه قاضيا .

وقال له مبيئا ما يعنى به :

« ما استبان لك من كتاب الله : فلا تسأل عنه ، فان لم يستبن فى كتاب الله
فمن السنة ، فان لم تجده فى السنة ، فاجتهد رأيك » .

هذا ما أمر به شريحا ، وهو بهذا يشيّر الى المصادر التي يقضى بها
المقضى : الكتاب فالسنة ، فان لم يجد فيهما كان الرأى المبني عليهما . وهناك
كتاب كان في القضاء يبين فيه المصادر ، والاجراء الذي يتبعه في مجلس
القضاء .

وهذا نص ذلك الكتاب :

قال بعد حمد الله والصلاة على رسوله .

« أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك ،
فانه لا ينفذ بحق لانفاذ له - آس بين الناس في مجلسك ، وفي وجهك
وفي قضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . .
البيينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصالح جائز بين المسلمين
الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ومن ادعى حقا غائبا أو بيينة ، فاضرب له
أمدًا ينتهي اليه فان بينه أعطيته حقه ، وان أعجزه ذلك استحلقت عليه القضية .
فان ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للمعاء ، ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم .
فراجعت فيه رأيك فهديت لرشدك أن يراجع فيه الحق . فان الحق قديم لا يبطله
شيء ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . والمسلمون عدول بعضهم
على بعض الا مجربا عليه شهادة زور ، أو مجاوردا في حد ، أو ظنينا في ولاء
أو قرابة ، فان الله تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود ، الا بالبينات
والإيمان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلى اليك مما ليس فيه قرآن
ولا سنة . ثم قاييس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيها الى أحبها
الى الله ، وأشبها بالحق : وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس
والتنكر عند الخصومة ، فان القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ،
ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه
وبين الناس . ومن تزين بما ليس في نفسه ثنانه الله ، لأن الله لا يقبل من
العباد الا ما كان خالصا ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته .
والسلام عليك ورحمة الله » .

هذه توجيهات عمر بن الخطاب الى القضاة ، ونراها ارشادية توجيهية .

وليس فيها تهديد بعقاب ، ذلك لأنه يختار القضاة من ذوى العلم والدين ،
نحاجتهم الى العناية والعمل بالعدل .

أما الولاة فقد كان يختارهم على القدرة والادارة ، وكان يخشى على
الادارة من الضعيف ذى الدين والقوى الذى لا دين له ، ويختار ما بين ذلك
قواما ، فكانت القدرة الادارية عنعرا من عناصر الاختيار ، وكان الدين هو
العنصر الآخر . ولأن الادارة هى المحنكة بالرعية بريئها وسقيمها ، وهى التى
تننازع فيها الأهواء وتضطرع فيها المآرب . ولذلك فصل القضاء عنها ، ولذلك
كان شديد الرقابة عليها ، كثير العزل للولاة قليل العزل للقضاة .

دولة واحدة وأقاليم متعددة :

كانت الدولة واحدة مع تعدد الأقاليم ، ولا نستطيع أن نقول أن الحكومة
كانت واحدة كما أشرنا ، فلكل اقليم حكومته التى تنفذ أحام القرآن والسنة .
وما يكون مصلحة متفقة مع عادات الاقليم . من غير المجانفة لائم بالمخالفة
لأحكام الاسلام ، وعين الأمير الأعظم ساهرة متتبعة ، بحيث لا تخفى عليه
من أمر الرعية خافية ، ولا يخفى عليه من أمر الولاة أمر ، بل الجميع يشعرون
بأن وراءهم بعد الله محاسبا لا يخفر المهنت بل يعزل عند الشبهة .

وبهذا التنسيق العمرى كانت للأقاليم شخصيتها غير الخارجة على الاسلام
والدولة هى المنظمة لعلاقات الجميع فى معاملات الوالى للرعية ، وفى علاقة كل
اقليم بغيره .

وكانت الوحدة بأدية فى شؤون الحرب ، فالامام الأعظم هو الذى يعين
قواد الحروب ، وهو الذى يمد الجيش بالعتاد والعدد ، فليس لأى اقليم
جيش منفصل عن سلطان الامام الأعظم ، وهو فى هذا الوقت أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب ، ومن بعده ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما .

وكانت ولايته الكبرى بأدية فى العلاقات الخارجية ، فأمر المؤمنين هو
الذى يتولى بشوراه العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، والمعاهدات التى تعقد بينه
وبين المحالفين الذين يختارون العهد ، كما رأينا فى عهده للأهل - اد - وكما

رأيناه في معاهدته لأهل إينيا التي كان فيها النص على ألا يدخل عليهم أحدا من اليهود *

وما كان يعقده الولاية ، إنما كان بالنيابة عنه وبتفويض منه *

٦٧ - وكانت الوحدة بادية في نظم الخراج والجزية ، فالنظام كان واحدا ، وأمير المؤمنين أو الامام الأعظم هو الذي يفرضه بحكم القرآن وعمل النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يراه مصلحة تتفق مع مقاصد الاسلام ، ولا تخرج عن غاياته وأهدافه *

وكذلك كان نظام الصدقات وجمعها ، فإنه ينفذ ، كما ورد في السنة ، وتحت اشراف الامام الأعظم ، وكذلك الموارد المالية التي تفيض بها الأقاليم بعضها على بعض من غير أى محاجزات اقليمية *

وفي عام الرمادة عندما اشتدت الحاجة الى القوات أرسل الى الأقاليم ذوات الغلات الزراعية ، يطلب المعونة منها ، فأرسل الى عمرو بن العاص والى مضر ، يقول له : « الغوث ، الغوث » ، فرد عمرو بقوله : « سأرسل اليك غيرا يكون أولها عندك وآخرها عندي » *

وقد فكر في حفر قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ليسهل وصول المدد الى البلاد العربية ، وكانت الوحدة تتمثل في أمرين معنويين :

أحدهما - وحدة اللغة ، فقد كانت اللغة العربية لغة الدولة ، وكان رباطا بين الأقاليم يربط بعضها ببعض ، وكان على كل مسلم أن يتعلم قدرا منها ، ويقول الامام الشافعى ، ان من المفروض أن يتعلم كل مسلم قدرا من اللغة العربية يصح دينه *

ثانيهما : الثقافة الاسلامية ، فقد صرح أمير المؤمنين عمر بأنه أرسل الولاية ليعلموا المسلمين أمر دينهم ، كما نقلنا من خطبه ، وكتبه *

وننتهى من هذا الى أن الوحدة يمكن أن تتحقق مع تعدد حكومات الأقاليم . بشرط أن تكون هناك دولة جامعة ، أو جماعة موحدة ان تعسذر وجود الدولة الجامعة وقتا ، وان كان ذلك هو الدعامة المفضلة على غيرها من الدعائم *

وانه يكتفى في تحقق الوحدة ، بوحدة اللغة والثقافة ، والجهاد والعلاقات الدولية والوحدة الاقتصادية ، وأن تزال المحاجزات الجمركية بين الدول الاسلامية ، بحيث يكون الاكتفاء الذاتى فى الأراضى الاسلامية وبحيث يكون التعاون على استغلال أراضى المسلمين وصناعتهم بأقصى ما يمكن ، وبالبداهة لا يرفع اقليم على آخر السلاح قط .

٦٨ - وقد يعترض الذين لا يفقهون وقائع الأحكام ، ولا غايتها ، ومرادها بان عمر رضى الله عنه وضع نظاما سمي فى الفقه الاسلامى ، بأعمال العاشر ، وفهم بعض الفقهاء خطأ بأن ذلك من قبيل الجمارك على التصدير والاستيراد . وذلك خطأ فى الفهم ، وانما سرى ذلك الى الكتاب من حب الرعية فى التقريب بين تفكير علماء المسامين وما يجسرى فى العصر الحاضر من كلمات ، فانحرفت به هذه الرغبة عن المعنى الاصلى لنظام العاشر .

وفقه الموضوع فى نظام العاشر الذى وضعه الامام العظيم أمير المؤمنين عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أنه عندما فتحت الأقاليم ، كان بعض الناس يخرج من اقليم اسلامى ، أو من مدينة الى أخرى ، وقد وجبت عليه زكوات وجزية ، فكان الفاروق يخشى ألا يكون قد أداها ، ففرض نظام العاشر احتياطا للمحافظة على أموال الدولة . فقرر رضى الله تبارك وتعالى عنه أن يأخذ العاشر من المسلم نصف عشر المال الذى يحملة من مدينته أو اقليمه الى المدينة او الاقليم الآخر ، وعلى الذمى العاشر .

ولقد صرحت كتب الفقه بأن ذلك يؤخذ ما لم يثبت المار أنه قد سدد الزكوات وما يجب عليه من مال الجزية ، ويذكر فى ذلك الكاشانى صاحب بدائع الصنائع فى الفقه الحنفى : أن المار اذا قدم ما يدل على أنه أدى ما عليه من فرائض مالية لا يأخذ منه العاشر شيئا .

فنظام العاشر ليس فى معنى فرض جمارك ولا ما يشبه ذلك ، ومن قبل ذلك . فقد أخطأ .

عصر عثمان وما بعده :

٦٩ - كان ما سنه عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه هو المتبع فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله عنه وعهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه

في الجنة ، والمعهد الأموي ، وحيدر الدولة للعباسية كان على شاكلة نظام عمر
في الدولة الإسلامية بالأقاليم الإسلامية ، وكانت الوحدة القوية بادية في
الأمر التي ذكرناها .

وأما الرفق والرحمة بالرعية فقد كانت صفات المتقين منهم كعثمان وعلي ،
وعمر بن عبد العزيز ، ولكن النظام كان واحدا في جميعها .

وكانت السنوات الست الأولى من عهد ذي النورين سيدنا عثمان رضي الله
عنه هي امتداد لعهد الفاروق عمر رضي الله عنه .

وكان ذلك الامتداد لصالح الراعي والرعية ، فما خرج سيدنا عثمان رضي
الله عنه عن سنة الشيخين أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر
الفاروق ، وخصوصا أنه عندما أعطى على نفسه عهدا بأن يعمل بكتاب الله وسنة
رسوله عليه السلام ، وسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، وما كان لمثل عثمان
رضي الله تبارك وتعالى عنه أن ينكث في عهد أخذه على نفسه ، والحمد بسنة
سنتين كانت الأمور فيها تجرى على سنة الشيخين أبي بكر وعمر ، حد تقريبي ،
فقد تزيد على ذلك وقد تكون في بعض الأقاليم أكثر من ذلك بكثير .

وان التغيير الذي حدث بعد ذلك لم يكن من عمل الامام الأعظم وانما كان
من عمل قوم أثاروا الفتن وحاولوا أن يفسدوا أمر المؤمنين بشق الوحدة
الإسلامية .

ولعل الشعوبية الدفينة في النموس قد عملت عملها ، وان لم تظهر بدعاية ،
أو بمفاضلة بين الشعوب المحكومة بالاسلام وبين العرب ، على ما هو هودون في
التاريخ الإسلامي من بعد ذلك في الحركات المسماة الشعوبية .

وانه بلا شك تحركت العصبية الجاهلية ، كما سنبين ، ونمت ، وفرقت
المجتمع ، وقطعت الوحدة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام
على رعايتها الشيخان من بعده ووسع أمرها عمر الذي لم يفر فريه في الاسلام
أحد ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد ابتدأت الفتنة المفرقة
بأن ذكروا عن عثمان رضي الله عنه أمورا خالف فيها رسول الله صلى الله عليه
وسلم في زعمهم ، وحسبوا أنه قرب القرابة ، وأعطى الولاية من بنى أمية من

لا يستحقها ، ولم يكن لهم في الاسلام سبق بغير تقديمهم ، بل أخذوا عليه جمع القرآن ، وهو احدى حسناته ، وزكاه على بن ابي طالب وقال : لو لم يفعله عثمان لفعلته ، وأخذوا عليه أنه حمى من المراعى لابل الصدقة ، ولننقل لك ما رواه الطبرى :

جاء جماعة من الكوفيين والبصريين معترضين على عثمان ، فجمعهم رضى الله تبارك وتعالى عنه في المسجد ، وقد أحاط بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عثمان بعد كلام لهم :

« ان هؤلاء قد ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذى علمتم ، الا أنهم زعموا أنهم يذكرونها عند من لا يعلم ، وقالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم ، ألا وانى قدمت بلدا فيه أهلى ، أكذاك ؟ قالوا : اللهم نعم .»

وقالوا : حميت حمى (أى منعت مرعى من رعى الناس) وانى والله ما حميت حمى قبلى ، والله ما حموا شيئا لأحد ، ما حموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها ، لكيلا يكون بين من يلبها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ، ولا نحوا أحدا ، ومالى من بعير غير راحلتين ، ومالى ثاغية ولا راغية ، وانى قد وليت ، وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء ، فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى ، أكذاك ؟ قالوا : اللهم نعم .»

قالوا : كان القرآن كتبا ، فتركتها الا واحدة ، ألا وأن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وانما أنا فى ذلك تابع . أكذاك ؟ قالوا : نعم .»

قالوا : انى وليت الحكم (وهو الحكم بن العاص قريبيه) ، وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكذاك ؟ قالوا : اللهم نعم ، وقالوا : انى استعملت الأحداث ، ولم أستعمل الا محتملا مرضيا ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم ، وهؤلاء أهل أصل بلدهم ، ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك ارسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة ، أكذاك ؟ قالوا : اللهم نعم . يعيبون للناس ما لا يفسرون ، وقالوا : انى أعطيت ابن أبى السرح ما أفاء الله عليه ، وانما نفلته خمس ما أفاء الله عليه فكان

مائة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرده عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : نعم ، وقالوا : انى أحب أهل بيتى وأعطيتهم ، فأما حبنى فإنه لم يمل معهم على جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما اعطاؤهم ، فانى أعطيتهم من مالى ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، واقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغبية من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أثبت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون فى ما قالوا ، وانى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا ، فيجوز ذلك ممن قاله ، ولقد رددته عليهم ، وما قدم على الا الأخماس ، ولا يحل لى منهم شيء ، فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، وما آكل الا من مالى » *

٧٠ — هذا دفاع ذى النورين سيدنا عثمان رضى الله عنه أمام جمع من الصحابة شهدوا له بالصدق ، ولا شك أنه صادق من غير شهادة أحد ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، ومن أوائل الناس اسلاما ، وهاجر الهجرتين مرة الى الحبشة ، والأخرى المباركة الى المدينة ، وجهاز جيش المسلمين فى ساعة العسرة ، ووزع البر الذى استورده على أهل المدينة زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا فى شدة ، ورفض السوم فى العير *

ولكن بلا شك نلمح فى رده ، وما روى من اعتراضهم أنه ولى ابن أبى السرح ، وكان قد كتب الوحى ، ثم ارتد ، وأخذ يضل الناس فى دينهم . فزعم أنه كان يغير فيما يملى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد أباح عليه انصلاة والسلام دمه ، وأنه ان كان تاب ، وعفا عنه الرؤوف الرحيم فهو منهم فى دينه ، فكيف يولى بعد عمرو بن العاص *

ولكن يظهر أن دعاة الفتنة لم يسكتوا ، بل استمروا يلحون فى الشكوى حتى طم السيل ، فاجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلموا على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة ، فدخل على أمير المؤمنين ذى النورين عثمان ، رضى الله عنه ، وقال له :

« الناس ورائي ، وقد كلموني فيك ، والله ما أدري ما أقول ، وما أعرف شيئاً نجعله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، انه لتعلم ما نعلم ، ما سبقناك الى شيء لنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بالحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك ، وإنك أقرب الى رسول الله رحماً ، ولقد نلت من صهر رسول الله ما لم ينالا ، ولا سبقناك الى شيء ، فالله الله في نفسك فانك والله لا تبصر من عمى ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بين ، وإن أعلام الدين لواضحة ، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله امام عادل هدى وهدى ، وأقام سنة معلومة ، وأمات بدعة ، فوالله ، ان كلا ليبين وان السنن لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله من ضل وضل به ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يئتي يوم القيامة بالامام الجائر ، وليس معه نصير ، ولا عاذر ، فيلقى في جهنم فيدور فيها ، كما تدور الرحى ، ثم يرتطم في غمرة جهنم ، انى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته وتقاته ، فان عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون امام هذه الأمة المقتول ، فانه يقتل في هذه الأمة امام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعياً ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يمجون فيها موجاً ، ويمرجون فيها مرجاً .

فقَالَ عثمان : أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ، ولا أسلمتكَ ، ولا عبت عليك ، ولا جئت منكرا ان وصلت رحماً ، وسددت خلة ، وآويت ضائعاً . ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ، أنشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس عناك ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أن عمر ولاء ، قال : نعم ، قال : فلم تلومنى أنى وليت ابن عامر (أحد ولاته) وقرابته ؟

قال على : سأخبرك ، ان عمر بن الخطاب ، كان كل من ولى فانما يبطأ على سماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبه ، ثم بلغ أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، فسعفت ورفقت على أقاربك ، قال عثمان : هم أقاربك أيضاً .
فقَالَ على : لعمرى ان رحمهم منى قريية ، ولكن الفضل في غيرهم ، قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها فقد وليته .

فقال علي : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ
(غلام عمر) منه *

قال عثمان : نعم *

قال علي : فان معاوية يفتطح الأمور دونك ، وأنت لا تعلمها ، فيقول
للناس : هذا أمر عثمان ثم يبلغك ولا تغير علي معاوية »

ثم خرج علي من عنده^(١) *

٧١- لم ينم دعاة الفتنة ، بل انهم ساوروا المدينة وكان المصريون منهم
يلهجون باسم علي كرم الله وجهه في الآخرة على أنه الأولى بالخلافة منه
وأحاطوا بببيت عثمان *

فأرسل عثمان الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الآخرة يستدعيه
وجاء في كتابه :

« لقد بلغ السيل الزبي ، وجاوز الحزام الطيبين » *

فان أك مأكولا فكن خير أكل والا فادركنى ولما أمزق

خرج اليه علي رضى الله عنه ليهدىء الأمور ، فيصرف المصريين الذين كانوا
يلهجون باسمه ، كما ذكرنا *

وتقدم الى عثمان لانقاذ الموقف . فأثار عليه بأن يكلم الناس بكلام
يسمعونه يشهد الله على ما في قلبه من النزوع والانابة فتكلم في هذا ، فرق
الناس ، وارتفعت الأصوات ، وبكى كثيرون منهم ، وارتدت القلوب الشاردة ،
وكادت القضب ترجع الى أجفانها وتموت نوازع الشر في خلاياها *

ولكن مروان بن الحكم الأموي جاء اليه يقول لاثما له أو عاتبا :
بأبى أنت وأمى والله لو ددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع ،
فدنت أول من رضى بها ، وأعان ، ولكنك قلت ما قلت حين جاوز الحزام الطيبين،

(١) تاريخ الطبرى ج٥ ص ٩٧ الطبعة القديمة .

وبلغ السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل ، والله لاقامة على خطيئة تستخفر منها أجمل من توبة تخوف عليها ، وانك ان شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع اليك على الباب مثل الجبال من الناس •

فقال عثمان : فاخرج اليهم فكلهم ، فانى الأستحى أن أكلهم •

فخرج مروان الى الباب ، والناس يركب بعضهم بعضا •

فقل : ما شأنكم كأنكم اجتمعتم لنهب ، شامت الوجوه ، كل انسان آخذ بأذن صاحبه ، جئتم تريدون أن ننزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا أما والله لئن رتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم ، والله ما نحن مغلوبين على ما فى أيدينا (١) •

هذه مساجلات كلامية جرت بين اثنين من أكبر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، آثرنا أن ننقلها ، بدل أن نلخصها أو أن نعلق على الأحداث التى دفعت الى تلك المساجلات ، وان كان قد تدخل فيها بغير منطق الاسلام من لم يكن مكانه الصاحبين الجليلين الاذنين نالا صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمبشرين بالجنة •

ولا تبلغ مبلغ من يوجه لوما لمثل عثمان فى تقواه ، وعلى فى جهاده ، ولكنا نقول فى مروان أنه كان يلهب الفتنة ، ويضع فيها الوقود الذى يلهبها ، ويذكيها فى أسلوب جاهلى ، ويسمى الخلافة فى عثمان ملكا له ، والخلافة والملك يختلفان فى سببيهما وفى السيطرة وفى ثمراتها •

الفتنة التى فرقت القلوب ولم تمزق الوحدة :

٧٢ — وقعت الفتنة التى فرقت القلوب وان كانت الوحدة الاسلامية لم تتمزق •

لقد كانت بعد موت عثمان فتنتان احدهما عادلة ، والأخرى باغية ، ونازعت الباغية صاحب الحق ، واقتتل الطائفتان ، وقد قال تعالى :

(١) الطبرى : ج ص ١١٢ •

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقتلوا التي تبغى حتى تنفى الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » وان خروج البغاة لا يعد نقضا للوحدة ، لأن المعنى الأخوى لا يزال قائما ، ولو كان النصر الدنيوى للبغاة ، وان كانوا فى البغى الذى أعقب مقتل الامام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، لم ينتصروا ، بل كان الجمع بعد ذلك فى عهد أحد سبطين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الحسن رضى الله عنه ، وكرم الله وجه أبيه فى الجنة ، ويصلى الله تعالى على جده وسلم .

ولو كان الحكم الذى انتهى اليه الأمر لم يكن قد انتهى الى من هو خير المؤمنين ، ومن كان حكمه عدلا ومن كان هو من أهل السبق فى الاسلام لكان خيرا ، ولكن الوحدة بهذه الفتنة وذلك البغى قد اهتزت ولم تنزل ، بل استمرت قائمة ، والفتوح الاسلامية قد استمرت باسم الاسلام والسلام الحق .

فقد كانت الجيوش الاسلامية بقيادة قتبية بن مسلم قد وصلت الى الصين شرقا ، ووصلت غربا بقيادة موسى بن نصير الى الأندلس غصن الاسلام الرطيب وفتحته ، وزادت الغصن حياة بروح الاسلام ، واستمر المسلمون سائرين ، حتى تجاوزوا جنوب فرنسا .

ولا نستطيع أن نقول أن الحكم كان عدلا فى كل نواحيه ، ومن كل الولاة ، وحسبنا أن نرى الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفى لكى نقرر أن العدل لم يكن شاملا .

ولكن يجب أن نقول ان الوحدة الاسلامية كانت قائمة ، وان كانت على دخن ، بخروج الخوارج الفينة بعد الأخرى ، ولكن كانت تزول بالحروب الجزئية التى كانت بين مقر الحكم وبينهم .

ومهما تكن حروب الخوارج فى أثناء دولة ملوك بنى أمية الذين تسموا بالخلفاء ، وسمى حكمهم ابن تيمية خلافة ملكية ، وليست خلافة نبوية ، لأنه لم

تكن ثمة بيعة اختيارية ، بل كانت ملكا وراثيا يتلقاه خلف الحاكم أو ولي عهده
• عن سبقه •

وان الوحدة ، وان كانت قائمة ، فد ضمت في ثناياها أسباب الفرقة التي
أخذت تنمو جيلا بعد جيل حتى أتت من بعد بأشأم الثمرات ، وذلك بأن العدل
لم يكن سائدا ، ولم تكن الروح الدينية سائدة ، وان كانت الألسنة ترددها ،
فالوحدة كانت تضم في أحشائها ما يهدمها بعد حين •

وانه مع ذلك بدت العصبية العربية تأخذ طريقها الى الحياة ، وانها وان لم
تفرق الدولة الاسلامية وتجعلها أجزاء ، فقد أوجدت ثغرة في القلوب وثغرة
القلوب تؤدي الى الانقسام ، وان طال الزمان ، وبعد المدى

ننبؤ النبي صلى الله عليه وسلم بالفتن :

٧٣ — تنبأ النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الفتن وذكرها عليه الصلاة
والسلام في أحاديث صحيحة وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
منها ما رواه البخارى عن زينب بنت جحش أنها قالت : استيقظ النبي صلى
الله عليه وسلم محمرا وجهه يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر
قد اقترب » •

ولقد جاء في صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من
الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعد به » •

روى البخارى ومسلم والترمذى بإسنادهم عن حذيفة بن اليمان قال :
« كنا عند عمر رضى الله عنه ، فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى
الله عليه وسلم في الفتنة فقلت : أنا ، قال : انك لجرىء ، وكيف سمعته ، قال :
سمعته يقول : فتنة الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام
والصلاة والصدقة . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال عمر رضى الله
عنه : ليس هذا أريد انما أريد التى تموج كموج البحر • فقلت : مالك ولها

يا أمير المؤمنين ، ان بينك وبينها بابا مغلقا * قال : فيكسر الباب أو يفتح *
قلت : بل يكسر ، قال : ذلك أحرى ألا يغلق أبدا » *

هذه أحاديث من شمائل النبوة تثبت علم النبي صلى الله عليه وسلم
بوحى من الله تعالى بأمر الفتن التى وقعت من بعده ، واستمرت تجيء فتننة
بعد فتنة ، وتتولد واحدة بعد أخرى *

وان النفوس المؤمنة تقاوم الفتن ولكن قد تخط فى غير خطوطا سوداء ،
تؤثر فيها ، ولقد روى مسلم عن حذيفة أيضا : « تعرض الفتن على القلوب
كالحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء (١) ، وأى قلب
أذكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى يصير قلبا أبيض مثل الصفاء ، فلا يضره
فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد (٢) كالكوز مجفيا (٣)
لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكرا ، الا ما أشرب من هواه » * وفى هذا الحديث
كما قال حذيفة مخاطبا أمير المؤمنين عمر : « ان بينك وبينها بابا مغلقا ، يوشك
ان يكسر ، فقال عمر : أكسرا لا أبالك فلو أنه فتح كان لعله يعاد » *

هذه نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم وهذه من شمائل النبوة *

وهنا يسأل سائل : لماذا كانت هذه الفتن ؟ ، ولماذا أخبر عنها النبي صلى
الله عليه وسلم ؟ *

أما الاجابة عن السؤال الأول ، فانه يتعلق بإرادة الله تعالى ، والله
لا يسأل عما يفعل ، كما قال تبارك وتعالى « لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون »
ولكن يجب علينا أن نعلم أن ذلك لحكمة أرادها ، وهو العليم الحكيم الذى
لا يخفى عليه شئ فى السماء ولا فى الأرض ، وهو السميع البصير *

وانا نحاول أن نتعرف هذه الحكمة ، كما نتعرفها فى الأدوية التى تصيب
المؤمن اختبارا لايمانه وكشفا ليقينه ، وكما تختبر الأمم بالبأساء والضراء ،

(١) النكتة : الأثر *

(٢) المراد الذى يكون لونه بين البياض والسواد .

(٣) والمجضى المائل عن الاستقامة ، أو هو المنكوس .

كما قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الأيساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، منى نصر الله ألا أن نصر الله قريب » فهى نوع من ابتلاء الله تعالى لتصل النفوس ، وتتعود المجاهدة ، وتتعرف الخير فأمر به ، وأشر فتنهى عنه ، كما قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » *

ولا شك أن الفتن تكشف المنافقين ، وتصل قلوب المؤمنين ، فيزدادوا إيماناً ، ويتحفظوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يفوضوا الأمور لله ، إذا كان شح مطاع ، وهوى متبع ، والزمان يجعل الفتنة يأكل بعضها بعضاً وتخبو نارها ، وماذا بعد ذلك إلا الحق يقام ، والعدل يستقر *

وأما الإجابة عن السؤال الثانى ، وهو السبب فى اخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، فانما هو لبيان علاجها فى أوقاتها ، وفيها اشارات الى من يثيرونها ، وأنها أحياناً تكون من قوم ظاهرى الايمان والتشدد ولكن عقولهم منحرفة ، وقلوبهم ملتوية ، وهم فى جملة حالهم غير مدركين ، ولا فاقهين *

ولقد كان الناس كثيراً ما يسألون عن قابل الأمور فيجيبهم النبى صلى الله عليه وسلم *

أخرج الشيبان — البخارى ومسلم — وأبو داود عن حذيفة بن اليمان : « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى * فقلت : يا رسول الله انا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله تعالى بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن ، قلت : وما الدخن ؟ قال : قوم يمسنون بغير سننى ، ويهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله ، فما تأمرنى أن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وامامهم . قلت : فان لم تكن جماعة ولا امام ، قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » *

ونرى من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجيب ، ويكشف عما يكون ، وما ينبغي للمؤمن في هذه الفتن .

ولقد روى عن على كرم الله وجهه في الجنة أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بكم اذا فسق فثيانكم ، وطغى نساؤكم ، قالوا : يا رسول الله ، وان ذلك لكائن ؟ قال : نعم وأشد . كيف أنتم اذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ، قالوا : يا رسول الله وان ذلك لكائن ، قال : نعم وأشد ، كيف بكم اذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ، قالوا : يا رسول الله ، وان ذلك لكائن ، قال : نعم وأشد ، كيف بكم اذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا : يا رسول الله وان ذلك لكائن ، قال : نعم » وهنأ نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر للأشد في الحال الأخيرة ، لأنه لا يوجد أشد من ذلك في أحوال الأمم ، اذ تفسد الأخلاق وتفسد النفوس ، وتفسد المدارك حتى يرى الخير شرا ، والشر خيرا ، وبذلك تصل الحال الى أعد أغوار الجاهلية . والله المنجي .

وقد أدركنا ذلك الزمان الذى تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صرنا نرى كل أمر معكوسا وكل حق منكوبا ، وقد فسدت الأمور ، وشبهت العقول ، وطمس النور ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم .

الخلافة والوحدة :

٧٤ - رأينا أن الجماعة الاسلامية خرجت من الفتن موحدة القوى ، قد انجهدت شرقا وغربا في الفتوح حتى وصلت شرقا الى الصين ، وغربا الى المحيط ، بل الى جنوب فرنسا ، واذا خرجت خارجة ، فقد كانت كالبثور في الجسم لا تحيب منه الاحساس بل تمس السطح ، ولا تتجاوز الظاهر ، وتصل الى الباطن .

ولعل الفضل في بقاء الوحدة هو ما سمي في التاريخ الاسلامى الجماعة ، وقد كانت الجماعة تلتف حول من تسميه خليفة أو تسميه أمير المؤمنين ، سواء أكان قد تولى بشروط الخلافة النبوية ، كما سماها ابن تيمية ، أم تولاها باسم

الملك والسلطان ، وجبت طاعته ، اذ أن جمهور الفقهاء قرروا أن كل من تغلب ، ورضيته الجماعة ، وجبت طاعته * وقد سمي ابن تيمية من تولى من غير أن يستوفى الشروط النبوية في الخلافة سمي ذلك خلافة ملوك *

ومهما تكن الأسماء ، فان اسم الخلافة كان له دخل كبير في بقاء الوحدة الاسلامية ، ولو لم يكن العدل هو الذي يحكمها ويسيطر عليها ، وقد وجب علينا أن نتكلم في الخلافة وأسباب الحكم *

لقد تكلم ابن خلدون فيلسوف الاسلام الاجتماعي في الفرق بين الخلافة والملك الفاسد ، والملك الصالح * فقال : « ان الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر انعقلى في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار *

والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة * فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا » *

هذه تفرقة ابن خلدون بين الملك الفاسد والملك الصالح ، والخلافة لا تكون الا حكما صالحا ، ما دام القائم عليها محققا لمقاصدها وأغراضها *

وان الخلافة كانت حقيقة تتحقق فيها الخواص التي ذكرها ابن خلدون في عهد الراشدين جميعا ، فقد كانوا منفذين الأحكام الشرعية ، يحملون الناس عليها ، ويقيمون الحدود * وكان ذلك شأن الخلافة حتى انقلبت ملكا عضوا في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وتحقق الأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ قال فيما يروى عنه صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون ، ثم تصير ملكا عضوا » ولما للخلافة النبوية من هذه المنزلة في حراسة الدين ، واقامة حدود الله والرقابة على تنفيذ الشرع الشريف كانت من قبيل فروض الكفاية يجب على الكافة اقامة خليفة ، بحيث يأثمون ان لم يعملوا على اقامته أو لم يقيم *

قال ابن حزم في كتابه الفصل :

« اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الامامة ، وان الأمة عليها واجب الانقياد لامام عادل يقيم فيها أحكام الله تعالى ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حاشا النجدات من الخوارج ، فانهم قالوا : لا يلزم الناس فرض الامامة ، وانما عليهم أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وهذه فرقة ما نرى بقى منهم من أحد ، وهم المنسوبون الى نجدة بن عويمر الحنفي باليمامة ، وقول هذه الفرقة ساقط يكفى في الرد عليه وابطاله اجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بإيجاب الامام ، من ذلك نول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »
مع أحاديث كثيرة صحاح في طاعة الأئمة ، وإيجاب الامامة •

وقد تكلم بعد ذلك في وجوب اقامة امام واحد لعامة المسلمين ، وقال انه مجمع عليه ، وهو معقول المعنى ، لكي تتحقق الوحدة الاسلامية في الحكم كما هي واجبة ، ولكن أجاز بعض الزيدية اقامة امامين اذا اقتضت المصلحة ، واكنه لم يذكر مخالفة هؤلاء لأنه لا يرى لهذا الرجل أتباعا •

ويقول في ذلك : ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الامامة على أنه لا يجوز كون امامين في وقت واحد في العالم • ولا يجوز الا امام واحد الا محمد بن كرام السجستاني وأبا الصباح السمرقندي وأصحابهما ، فانهما أجازا كون امامين وأكثر في وقت واحد •

واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم السقيفة للمهاجرين : منا أمير ، ومنكم أمير ، واحتجوا أيضا بأمر على والحسن مع معاوية رضي الله عنهم •

كل هذا لا حجة لهم فيه لأن قول الأنصار رضي الله عنهم ذلك كما ذكرنا لم يكن صوابا بل كان خطأ أدامه اليه الاجتهاد وخالفهم فيه المهاجرون ، ولا بد

إذا اختلف القائمان على قولين متناقضين من أن يكون أحدهما حقا ، والآخر خطأ ، وإذا كان ذلك كذلك ، فواجب رد ما تنازعا فيه الى ما افترض الله عز وجل الرد اليه عند التنازع ، اذ يقول سبحانه : « فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فنظرنا في ذلك فوجدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال : « اذا بويح لامامين فاقتلوا الآخر منهما » ، وقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » وقال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » *

وإذا كان امامان فقد حصل التفرق المحرم ، ويوجد التنازع ، ووقعت المعصية ، فصح أن قول الأنصار — رضى الله عنهم — خطأ ، رجعوا عنه الى الحق ، وعصمهم الله تعالى من التماذى عليه *

وأما امر على والحسن ، ومعاوية ، فقد سح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أنذر بخارجة تخرج من طائفتين ، وأنه تقتلها أولى الطائفتين بالحق ، فكان قاتل تلك الطائفة على ، السابق الى الامامة ، فهو صاحب الحق بلا شك ، وكذلك أنذر عليه الصلاة والسلام بأن عمارة تقتله الفئة الباغية ، فصح بعد أنه صاحبها وأن من نازعه فيها فهو مخطيء ، ومعاوية مخطيء ! ! لأنه مجتهد ، ولا حجة في خطأ المجتهد * فبطل قول هذه الطائفة أيضا *

ونحن مع جمهور الفقهاء والمحدثين في أنه لا يصح اقامة امامين في عصر واحد ، لأن الخلافة جامعة للوحدة الاسلامية ، ولا يمكن أن تكون جامعة وثمة امامان ، وأن اختيار سيدنا عمر لنفسه ، أو لمن بعده لقب أمير المؤمنين يومية الى أن الامامة تكون عامة ، لا تختص بجزء من الأرض الاسلامية ، بل تعمها لتكون الوحدة الجامعة ، وابتدع قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » *

شروط الخلافة النبوية :

٧٥ — ذكر الفقهاء شروطا فيمن يتولى المنصب بعضها متفق عليه ،

وبعضها قد جرى الخلاف في لزومه ، ولقد ذكر ابن خلدون شروط هذا المنصب ،
وأشار الى المختلف فيه منها ، فقالى :

« وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة
الحواس ، واختلف في شرط خامس ، وهو النسب القرشى » *

وقد اشترط ابن حزم أن يكون رجلا لقول النبى صلى الله عليه وسلم
« لا يفلح قوم أسند أمرهم الى امرأة » *

وأحسب أن ذلك الشرط متفق عليه بين علماء المسلمين ، ولم يذكره
لبداهته ، ولكن نص عليه ابن حزم من بينهم ، فكان تصريحاً بما هو مفهوم عند
الجميع ، وما استقر عليه رأى الجميع *

أما الخلاف الذى ذكره ابن خلدون فى النسب القرشى ، فهو خلاف مترامى
الأطراف مختلف النواحي قال فيه ابن حزم : « اختلف القائلون على وجوب
الامامة فى قريش ، فذهب أهل السنة وجميع الشيعة وبعض المعتزلة ، وجمهور
المرجئة الى أن الامامة لا تجوز الا فى قريش عامة من ولد فهر بن مالك ،
ولا تجوز فيمن كان أبوه من غير بنى فهر بن مالك ، وان كانت أمه من قريش ،
ولا فى حليف ولا فى مولى ، وذهب الخوارج كلهم وجمهور المعتزلة ، وبعض
المرجئة الى أنها جائزة فى كل من قام بالكتاب والسنة ، والواجب أن يقدم
الحبشى لأنه أسهل لخلعه اذا حاد عن الطريق » *

وكأنه لا يصح عند هؤلاء أن يكون للامام عصبية تدافع عنه ، ولذلك
استحسنوا أن يكون ممن لا عصبية له ، وان ابن حزم ليسترسل فى بيان
الاختلاف فى اشتراط القرشية ، فبعد أن يذكر الخلاف فى أصل الشرط ، يذكر
الخلاف بين من اشترطوه ، فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه :

« واختلف القائلون أن الامامة لا تجوز الا فى قريش ، فقالت طائفة : هي
جائزة فى كل ولد فهر ، وهذا قول أهل السنة وجمهور المرجئة ، وبعض المعتزلة ،

وقالت طائفة : لا تجوز الا في ولد على بن أبى طالب *** وبلغنا عن بعض بنى الحارث بن عبد المطلب أنه كان يقول لا تجوز الخلافة الا في بنى عبد المطلب خاصة ، ويراها في جميع ولد عبد المطلب ، وهم أبو طالب وأبو لهب ، والحارث والعباس ، وبلغنا عن رجل كان بالأردن أنه يقول : لا تجوز الخلافة الا في بنى أمية بن عبد شمس ، ورأينا كتابا مؤلفا لرجل من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحتج بأن الخلافة لا تجوز الا لولد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما » *

ومع هذا التفريع والتفصيل الذى ذكره ابن حزم رضى الله عنه لا يذكر الخلاف عند من يرون أنها في ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقد اختلفوا ، ففريق قال : كل ولد لعلى يجوز أن يكون خليفة ، ولو كان من غير فاطمة ، فمحمد بن الحنفية نودى له بالخلافة ، وهو ليس من أولاد فاطمة *

ومنهم من قال : ان الخلافة من ولد على من فاطمة من أولاد الحسن أو الحسين ، وأولئك هم الزيدية ، ومنهم من قرر أن تكون الخلافة من أولاد على من الحسين ، وأولئك هم الامامية الاثنا عشرية ، والامامية الاسماعيلية *

ومهما يكن أمر الخلاف بين الذين لم يجوزوا الامامة الا في القرشيين . فمن الثابت أن جمهور علماء المسلمين يرون أن الخليفة من قريش ، ومن عداهم أقل عددا وأضعف ناصرا *

وحجة هؤلاء الكثرة من العلماء حديث « الأئمة من قريش » وفي رواية « الأمراء في قريش » *

هذا الحديث يحتمل أن يكون تنبؤا بأمر يكون في المستقبل ، مثل « الخلافة بعدى ثلاثون ثم يكون ملكا عضوضا » فيكون مؤداه أن الامامة الجديرة بأن تكون امامة المسلمين التى ترعى مصالحهم ، وتقيم حدود الله تعالى هى فى قريش ، ولقد صدقت نبوءة النبى صلى الله عليه وسلم ، فان المرشدين كانوا الأئمة حقا ، وأربعتهم من قريش *

ويحتمل أن يكون بياننا لحكم شرعى باثبات أن الخلافة أو الامامة لا تكون
الا في قريش *

ويقول : ان المفسرين للحديث اتجهوا هذين الاتجاهين * واستمع الى
ما يقوله ابن حجر العسقلانى فى شرح حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه
وسلم « لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى اثنان » التقدير لا يزال هذا الأمر
فلا يسمى بالخليفة الا من يكون من قريش الا أن يسمى أحد من غيرهم غلبة
وقهرا ، واما أن يكون المراد به الأمر ، وان لفظة لفظ الخبر ، ثم قال
ابن حجر :

قال النووي : حكم حديث ابن عمر الى يوم القيامة ما بقى من الناس
اثنان ، وقد ظهر ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم فمن زمنه الى الآن لم تزل
الخلافة فى قريش من غير مزاحمة لهم على ذلك ، ومن تغلب على الملك بطريق
الشوكة لا ينكر أن الخلافة فى قريش ، يدعى أن ذلك بالنبىة عنهم *

ثم قال ابن حجر : هذا الحديث خبر عن المشروعية ، أى لا تتعقد
الامامة الكبرى الا لقريش مهما وجد منهم أحد ، وكأنه جنح الى أنه خبر
بمعنى الأمر *

هذا ، واننا ننتهى من ذلك التفسير الى أن الحديث يحتمل أن يكون تنبؤا ،
وانه لصادق ، ويحتمل أن يكون تكليفا فيه أمر بالأى يكون امام فى الامامة
الكبرى الا من قريش *

وانه مع هذا الاحتمال لا يمكن الاستدلال به على أنه لا تتعقد الخلافة
أو الامامة الكبرى الا لقريش *

وأنه على فرض أن الحديث فيه تكليف أو أمر ، فانه من المؤكد أن
أروايات تضاهرت على أن أولوية قريش مقيدة بعدلهم ، واقامتهم الحق ،
بل ان طاعة كل متول مقيدة بذلك ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مخاطبا

قريشا « وأنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق الا أن تعدلوا عنه فتلحوا كما تلحى هذه الجريدة » ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فان لم يستقيموا فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » *

وان الأخبار يفهم منها أن القرشي أولى من غيره اذا تساوى مع غيره كفاية وعدلا ، فان لم يكن في كفاية غيره وعدالته ، فغيره أولى ، ويؤيد ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال « ان أدركنى أجلى ، وأبو عبيدة حتى استخافته ، فان أدركنى وقد مات أبو عبيدة لستخلفت معاذ بن جبل » ومعاذ بن جبل غير قرشى ، وما كان لعمر الفاروق أن يخالف أمرا أهر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذا كان خبر « الأئمة في قريش » قصد به الأمر والتكليف *

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » هذا وان أبا بكر رضى الله عنه عندما ناقش الأنصار في أمر الخلافة لم يستدل بخبر « الأمراء في قريش » أو « الأئمة في قريش » انما استدل بالمصلحة ، فقال رضى الله عنه « لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش » *

ولو كان هذا الخبر المروى قاطعا في الدلالة على أولوية قريش بالخلافة ما ترك الخبر وأخذ بالرأى القائم على المصلحة العامة لجماهير المسلمين *

وننتهى من هذا الى أن شرط القرشية ليس ثابتا في دلالة على وجه القطع لأن الاحتمال دخل الدليل ، واذا دخل الاحتمال يبطل الاستدلال ، كما ذكرنا من قبل *

أما الكفاية والمعدالة فشرطان لازمان لا ريب في ذلك ، لأن الامامة وان كانت أمرا دينيا هى في ذاتها أمر مصلحى أقيم لمصلحة الكافة ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور مع الظلم ، ولا أن يحقق مصلحة العباد من ليس ذا كفاية فلا يمكن أن تتحقق الخلافة النبوية بدونهما *

وهنا شرط قد أغفل في أكثر عصور التاريخ الإسلامية وهو الاختيار بالشورى والمبايعة ، فإن ذلك الشرط أغفل في غير عهد الراشدين •

وان المبايعة عقد يقوم بين الامام وبين المسلمين ، على أن يلتزم القيام بتنفيذ الشرع ، ويلتزموا بطاعته ، ويتمثل تنفيذ هذا العقد في قول الامام عمر : أعينوني ما أطعت الله فيكم ، وقد كان اختيار أبي بكر في سقيفة بني ساعدة ، وتمت المبايعة عندما سارع اليها عمر حسما لمادة الخلاف وقطعا للنزاع أو انهاءه ، وأبو بكر عندما عهد الى عمر رضى الله تبارك وتعالى عنهما أخذ البيعة له ، حتى لا ينفرق أمر المؤمنين •

وان عمر بن الخطاب يشترط قبل المبايعة أن يكون ثمة شورى للمسلمين تنتهى باختيار من يسيرون في مباحته ، وذلك ليتحقق قوله تعالى : « أوأمرهم شورى بينهم » فلا يباغت الناس بالمبايعة بل تكون مجاوبة ومشاورة ينتهون فيها الى مبايعة من يرونه أهلا ، فالمبايعة ثمرة الاختيار ، ولا تكون الثمرة قبل أصلها ، ولقد قال عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه « من بايع رجلا بغير شورى المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى يبايعه » •

الوحدة مع الولاية والعصاة :

٧٦ — ان الوحدة الإسلامية غاية تستهدف ، والخلافة العادلة التى تعدد الامامة من ذرائع وجودها ، وأقامتها على قسطاس مستقيم ، ولذلك أجمع العلماء على اشتراط العدالة ، وليس العصاة من أهل العدالة ، فهم بلا ريب ليسوا أهلا للامامة العظمى ، واذا تولوا وهم عدول ثم فسقوا عن أمر ربهم أتسقط توليتهم من تلقاء نفسها أم يبقون ولاية فى تلك الولاية الكبرى ، ولو سادهم الفسق والفجور •

ولقد اختلف فى ولاية الفاسق بأن تأمر ابتداء وهو فاسق وهو غير خليفة ، ولكنّه تغلب وحكم أو تحكم أو ولى على أنه عدل ، فانكشف أمره ، فظهر فاسقا ، أو كان عدلا ، وحاد عن منهج العدل وسبحان مقلب القلوب ، ومهما يكن وصف فسقه أو عصيانه •

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة آراء

- أولها : أن يرد جميع أمره بأن ترفض ولايته ، فلا يطاع في طاعة •
ولا معصية ، لأن توليه ظلم وطاعته ولو في عدل اقرار للظلم •

وثانيها : وهو أقواها وأبعدها نظرا ، وعليه الأكثرون ، أن يطاع في الحق ولا يطاع في معصية لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » •

وثالثها : ان الفاسق اذا كان هو الامام الأعظم يطاع في الطاعة ، ولا يطاع في المعصية ، وان كان الفاسق ليس هو الامام الأعظم ، بل أحد ولاته في الأقاليم ، أو من دون ذلك ، فانه ترد طاعته في عدل أو ظلم لأن الامام الأعظم لا يمكن تغييره الا بفتنة ، والفتنة تمزق الوحدة الاسلامية ، ومن دونه يمكن تغييره بدون فتنة •

فلا بد من حماية العدالة والوحدة معا •

- ويختار الأكثرون من العلماء الرأي الوسط ، ومنهم ابن تيمية^(١) •

وأن ذلك يدفع الى النظر في أمرين :

أولهما : حال ما اذا لم تتوافر في الامام الأعظم الطاعة في أمر اهتز سلطانه وكانت الفتنة ، ولا خير في ذلك بالنسبة لما فيه تنفيذ لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان الطاعة — في الحقيقة — للكتاب والسنة ، وأما حيث يأمر بمعصية فان المخالفة تكون للكتاب والسنة وطاعتها أولى من طاعة الرجال مهما يكن شأنهم •

والثاني : الفتنة التي تترتب على رد كل ما يأمر به الامام الأعظم ، أضرارها أعظم من طاعته في غير معصية ، وترتيب الأمور لتغييره ، ولهذا رجح رأي الجمهور وابن تيمية •

(١) « منهاج السنة » ج ٢ ص ٧٦ ، ٨٧ •

إذا لم يكن من هو أهل للإمامة :

٧٧ — قد تبين أن الامامة لها شروط شرعية بعضها متفق عليه ، وبعضها مختلف فيه ، فأما المتفق عليه فهو العدالة ، والكفاية ، وأن يكون ذلك باختيار الأمة ، وقد تبين أن شرط القرشية مختلف فيه .

فإذا لم تتوافر الشروط كاملة ، أيكون أمر المسلمين فوضى من غير حاكم ولا شك أن شرط الخلافة لم يعد محققا ؟

يشير ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » ، ويقرر أن الذين يستوفون الشروط المؤهلة للخلافة هم الذين يسمون خلفاء ، وأما الذين يتولون فانهم يسمون ملوكا ، ولا يسمون خلفاء ، ولكن يكون الرضا بحكمهم للضرورة لأن الحكم بين المسلمين خير من أن يتركوا في فوضى ، وان الطاعة واجبة لهؤلاء فيما يقومون به من أداء أوامر الدين واجتناب نواهيه ، لأن هذه الولاية خير من الفوضى على أى صورة كانت ، ويعد من سمي أميرا أو خليفة من حكام الأمويين والعباسيين ملوكا ، ويقول في ذلك :

« والذي في السنن ، الخلافة بالنبوة ثلاثون (سنة) ثم يصير ملكا » .

ويقول في حكم يزيد بن معاوية الذي استباح حرمت أهل المدينة ، وقتل الامام الحسين أفجر قتلة . يعتقد أهل السنة أنه ملك المسلمين ، وخليفتهم في زمانهم ، وصاحب السيف ، كما كان أمثاله من خلفاء بني أمية ، وبني العباس فيزيدي في ولايته هو واحد من هؤلاء الملوك المستخلفين في الأرض .

وهو يرى كجمهور أهل السنة أنه تجب طاعة هؤلاء الملوك المستخلفين ولم يكونوا خلفاء نبوة لعدم استيفائهم شروط الخلافة النبوية الصحيحة ، فيجب طاعتهم والخضوع لحكمهم لأنهم ولاة الأمر .

وان الرأي الغالب في الفقه الاسلامي أن كل متغلب تجب طاعته ، حتى يغير من غير فتنة ولكن لا يطاع في معصية ، وان أولئك مهما يكن أمرهم يعدون

ملوك المسلمين ماداموا الحاكمين ، ولا ينازعهم عدل أمين استوفى شروط الخلافة النبوية ، ولأنهم يقيمون الجمع والأعياد ، ويقيمون الحدود وينظمون الولايات ويغزون أعداء المسلمين ، ويدافعون عن أرض الاسلام .

وكونهم — أو بعضهم — فجارا لا يمنع تقديم الطاعة لهم ، ما دامت الطاعة لا معصية فيها ، أو ليست الطاعة في ذات المعصية والفجور .

ويقول ابن تيمية في هذا : « والصواب الجامع في هذا الباب أن من حكم أو قسم بعدل نفذ حكمه وقسمته ، ومن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أعين على ذلك إذا لم يكن في ذلك مفسدة راجحة ، وأنه لا بد من إقامة الجمعة والجماعة فإن أمكن تولية امام بر لم يجز تولية فاجر ، ولا مبتدع يظهر بدعته ، فإن هؤلاء يجب الإنكار عليهم بحسب الامكان ، ولا تجوز توليتهم ، فإن لم يكن الا تولية أحد رجلين : أحدهما فيه دين وضعف عن الجهاد ، والآخر فيه منفعة في الجهاد مع ذنوب له ، كانت تولية هذا الذي ولايته أنفع للمسلمين ، خيرا من تولية من ولايته أضر على المسلمين . وإذا لم تكون صلاة الجمعة والجماعة وغيرها الا خلف الفاجر ، والمبتدع صليت خلفه » .

وقبل أن نترك كلام ابن تيمية في هذا المقام نذكر حوله أموراً ثلاثة :

الأمر الأول : أنه أشار الى أنه يجب اتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما لم يكن في الاتباع مفسدة راجحة ؟ ونجيب عن ذلك بأن المفسدة حيث يترتب في الاتباع فتنة ، وحيث يترتب على اتباع الداعي تخذيل عن الجهاد باضعاف الثقة في القائد . أو الحاكم الذي يجابه الأعداء ، والحق أن الاستتار في هذه الحال لا يكون من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل يكون من قبيل الدعوة الى فتنة .

الأمر الثاني : أنه ينظر في الولاية والتردد فيمن يختار لها الى نفع المسلمين فمن يكون أكثر نفعاً يطاع في غير معصية ولو كانت له ذنوب ، ومن يكون ضعيفاً فإنه لا يولى الآن ضعفه على المؤمنين .

ولقد سئل الامام أحمد عن أميرين في الجهاد أحدهما قوى يرتكب وزرا والآخر ضعيف تقى ، مع أيهما يعمل المؤمن ، فقال رضى الله عنه : مع القوى الموزور لأن فسقه على نفسه ، وقوته للمسلمين ، ولا يعمل مع الضعيف التقى لأن تقواه لنفسه وضعفه على المؤمنين •

الأمر الثالث : أن ابن تيمية وغيره من جمهور الفقهاء يرون أن قيام الوحدة الاسلامية من غير تمزيق هي في ذاتها مقصد قائم بذاته ، وأن اقامة الدولة الموحدة للأمة الاسلامية وحمايتها من أعدائها ، وسد الثغور وتنفيذ النظم التي لا تتجانف لاثم ، وتثبيت دعائمها — غرض مقصود من اقامة الدولة الاسلامية ، فان أمكن أن يقوم بذلك التقى القوى كان ذلك هو الدين في لبه وصميمه ، وان لم يمكن اقامة التقى الذى يحمى الذمار ويحسن التدبير • ووجد الأمير الحسن الرأى والتدبير ، وان لم يكن تقيا يجب طاعته في غير معصية ، لأن الطاعة في هذا الحال أداء لواجب دينى • وان ابن تيمية في هذا يتبع رأى الامام أحمد الذى ذكرناه آنفا •

ويقول ابن تيمية في تأصيل فكرة الطاعة لمن يتولى أمر المؤمنين ، ولو لم يكن مستوفيا شروط الامامة ومنها القرشية في نظره ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وفي الصحيحين عن أبى ذر قال : « ان خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وان ولى عليكم عبد حبشى مجدع الأنف » •

وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى مجدع الأنف » وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » • وفي صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى أو بعرفات في حجة الوداع يقول : « ان استعمل عليكم عبد أسود مجدع الأنف يعمل بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا » (١) •

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ٨٧ •

وبهذا يتبين أن فقهاء المسلمين الذين يحكى تفكيرهم ابن تيمية كانوا حريصين على الوحدة الاسلامية من أن تتمزق بسبب عدم تولى من لا يستوفى شروط الوحدة كاملة .

الفتنة والوحدة :

٧٨ — لم ينظر جمهور الفقهاء الى الثورات التي تقوم ، ولو كان الحكام ظالمين ، نظرة راضية الا ما أثر عن أبى حنيفة من رضاه على ثورة زيد بن على رضى الله عنه ، و ابراهيم بن عبد الله بن حسن أخى محمد النفس الزكية فقد أثر عنه رضى الله عنه أنه لم يستنكر الثورة من هذين الامامين ، والمشهور فى تاريخه أنه أيدهما ، ولعل ذلك لمحبه لآل البيت ، وللمظالم التي نزلت بهم ، وقام بها الأمويون من قتل يزيد وجيشه للحسين بن على واستباحته مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قام بها من بعدهم العباسيون ، وقد كانت دعواتهم ابتداء تقوم على الانتصاف من بنى أمية ، اذ ظلموا آل البيت . الا أن جمهور الفقهاء كانوا يقفون موقف الحياد فى الفتنة ، ما لم ينهوا عن امر مقرر فى الشريعة ، ولما خرج محمد النفس الزكية على أبى جعفر المنصور ، سئل الامام مالك : أناصر هؤلاء أم جند أبى جعفر ؟ فقال رضى الله عنه : « ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز فقاتلهم ، وان لم يكن مثل عمر بن عبد العزيز فدعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما » .

وفى الواقع أن الفتنة تقطع أوصال الدولة ، وتورث الاحن ، ولا تقييم حقا ، ولا تخفض باطلا ، انه يقع فى الفوضى التي تنتشئها الفتنة من المفسد ، ما لا يقع من حاكم مفسد فى استبداد سنين .

ان الحكم المنتظم على أى صورة من صوره خير من الفوضى . ولا عدل مع الفوضى كما قررنا ، ولا خير قط فى فوضى ، وقد يكون خير فى حكم الفاسقين .

وان الاستقراء فى التاريخ يثبت لنا أنه لم تكن فتنة أقامت عدلا ، أو حفظت ظلما ، بل انها تفتح الباب لدعاة البغى والعدوان والفساد .

وان السعى فى التغيير واجب ، ولكن يكون بالارشاد والموعظة الحسنة وكلمة الحق نقال للحكام الظالمين مهما يترتب عليها لشخص القائل من تعذيب أو سجن •

وان كلمة الحق فى هذه الحال جهاد ، ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق لسطان جائر » • وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » •

وان كلمات الحق ان تضافر عليها أهل الايمان كان الحاكم مضطرا لأن يغير من حاله ان كان ظلما ، فان أصوات الاستنكار تجعل الظالم يتردد فى ظلمه • أو يستخفى فى فسقه ، فان الحكام يريدون الحمد دائما ، فان يجدوا من يجرد عليهم بالمحمدة ويضن بالملامة استمرعوا ما يصنعون ، وأن وجدوا من لا يرضن بالملامة ضعفوا عن الاسترسال فى غيرهم ، وخافوا على حكمهم •

ويقول ابن تيمية حاكيا رأى أئمة السنة فى الفتن والثورات : المشهور عن مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف ، وان كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الفساد فى القتال والمفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالترام الأدنى ، ولعلنا لا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذى السلطان الا وكان فى خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذى أزالته ، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم ، وكل باغ كيفما كان ، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء ، بل قال تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما • فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى ترضى الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء ، وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيكون أمراء فتعربفون وتتكرون ، فمن عرف برىء ومن أنكر سلم ، ولكن من رضى وتابع

أثم ، قالوا: أفلا نقاتلهم ؟ • قال عليه الصلاة والسلام : « لا • مطلقا » فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتالهم مع أنهم يأتون أمورا منكرا •

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : « انكم سترون بعدى أثره وأمورا تنكرونها ، قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم وتسالون الله الذى لكم » •

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ولى عليه وال فرآه يأتى نسيئا منكرا لعصية الله فليكره ما يأتى من معصية ، ولا ينزعن يدا عن طاعة » (١) •

٧٩ — وهنا نجد علماء المسلمين ، وخصوصا علماء الجماعة مقتبسين من أراهم النبي صلى الله عليه وسلم ووصاياه كانوا يتجهون الى تحقيق العناية الأولى وهى الوحدة الاسلامية ، فكانوا يقررون وجوب طاعة الحكام ولو تولوا بغير المنهاج الشرعى وبغير الثمورى التى أمر بها القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، بل كانوا يأمرون بطاعة الولاة ، ولو كانوا عصاة على ألا يطيعوا ما يأمرون به من المعاصى ، فكانوا يرون الطاعة فيما لا معصية فيه ويردون ما فيه معصية •

وكانوا الا الأقلين منهم يكرهون الثبوتة على الحكام ، لأنها تؤدى الى الفتنة ، والفتنة تؤدى الى التفرق ، والفرقة فى أى صورة من صورها لا تجوز فكل ما يؤدى اليها لا يجوز •

وان ذلك الذى قالوه هو صريح ما دعا اليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روينا بعض أقوال الرسول الكريم الذى ما كان ينطق عن الهوى « ان هو الا وحى يوحى » •

وان الفقهاء اذ يقررون الطاعة المطلقة فى غير معصية يرون وجوب تغيير الحاكم الظالم ، ولكن من غير فتنة ، بل يرون أن ذلك يتم بالارشاد والكلمة

(١) « منهاج السنة » ج ٢ ، ص ٨٧ •

المجاهدة ، فعلى العلماء جهاد بالسنتهم كجهاد المجارئين بسيوفهم ، وقد قلنا
في غير هذا المقام : « ان السنة العلماء وهم يفضيئون للحق ، تعمل ما لا تعمل
السيوف العصاب » *

فهى جهادهم ، وهو أمر الله تعالى ، اذ قال تعالى فيما أخذه سبحانه
وتعالى على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه • فكانوا يبينون ويدعون الى
الحق ويقولون كلمته ، لا يخافون فى الله لومة لائم •

ونقصد بالعلماء الذين يقولون الحق لذات الحق لا يبيعون اتجارا فى دين
الله ولا علوا فى الأرض ولا فسادا •

الفرقة بعد الوحدّة

٨٠ - هذا هو الباب الثالث من بحثنا ، وقد تكلمنا فى تكوين محمد صلى الله عليه وسلم للوحدّة ، ثم تكلمنا على استمرارها فى عهد الراشدين وأثرنا الذى بعض الفتن التى أصابت النفس العربية ، ولم تصب الوحدّة الاسلاميّة التى كونها محمد صلى الله عليه وسلم على أسس المتآلف والتقوى .

ثم كيف استمرت الوحدّة فى عهد ملوك بنى أمية وملوك بنى العباس على تعرضها للوهن ، وكيف لم يؤثر فيها عصاة الملوك ما دامت قلوب أهل الايمان مطمئنة راضية بحم الله ، نافرة عن حكم الطاغوت .

والآن نتكلم عما أصاب الأمة من وهن فى النفوس استكنم ، حتى تفرق المسلمون بعد الاجتماع ، وقد يقول قائل : ان الموضوع هو الوحدّة الاسلاميّة فكيف نجعل الفرقة عنصرا من عناصر القول فيه ، والوحدّة والفرقة نقيضان لا يجتمعان ، ونجيب عن ذلك بأن المسلمين متفرقون قد توزعتهم الأرض ، وحمل بعضهم السيف على بعض ، ونريد أن تعود الوحدّة جذعا كما بدأت .

ولا يمكن أن نذكر مقومات الاعادة من غير أن نعرف أسباب التفرقة حتى نتلافها فى وحدتنا التى نرجو أن يوفق الله تعالى المسلمين لاعادتها ، فان المسلمين لا يصلح آخرهم الا بما صلح به أولهم ، وحدّة فى غير انقسام وائتلاف فى غير انفصام ، وجمع لا تفرق فيه . بل يكونون كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسور والحمى » ويتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلّمه ولا يخذله » .

ولذلك وجب أن نذكر أسباب الانقسام ، وان نحصى هذه الأسباب فى ذلك البحث الموجز ، كما لا نستطيع أن نعرف متى ابتدأت تلك الأسباب .

ان الظواهر الاجتماعيّة نراها واضحة جليّة ولكن ان أردنا أن نعرف متى

وجدت تعمى علينا الأمر ، ولا يكون البحث هينا لينا ، كمن يرى شجرة عالية متدللية الأغصان فانه يراها عالية شامخة تهتر وتتميل ، ولكن لا يعرف امتداد جذورها ، وان أحصى فروعها +

ونحن اذا نظرنا الى أسباب الفرقة الاسلامية التي هي ناتئة ظاهرة مشؤومة فاننا نرجع الى بروز أول الفتن ، فانها وان كانت لم تؤثر في الوحدة ، كأمر ظاهر فانها بلا شك ، كانت أساسا +

وفي الجملة ان تعرف الأسباب لأمر ظاهر من أصعب ما يكون ، فمبادئ الأمور حلها صعب ، حتى نرى آثارها بارزة للعيان ، اذ أن هذه الأسباب تتفاعل حتى تكون مزيجا يظهر أثره ، ثم لا يكون اختفاء بعد ظهور الأثر +

الأسباب المعنوية :

٨١ — ان الوحدة ائتلاف ، فكل ما ينافى ويوجد النفور انما هو سير في طريق الفرقة ، والأسباب المعنوية كبيرة متضافرة ، تكاثفت حتى اعتكرت بهما النفس الاسلامية + فاستعدت للافتراق بعد الاجتماع ، والأعمال التي قام بها الحكام في الفرقة انما حرثت أرضا لهم الأمور المعنوية +

وقد ظن الكثيرون أن السبب الأكبر هو قيام العصبية العربية من سبائتها وانبعائها من مرقدتها ، ولا شك أن ذلك جزء من الأسباب ، ولكنها جاءت في هذه المرة ليست تنازعا بين مصرية وربيعية ، وان ظهر شيء من ذلك في الفرق الاسلامية +

انما كانت العصبية العربية ، ومعها الشعوبية غير العربية ، فانبعثت من وراء ذلك ، ومن وراء الفرق الاسلامية ، الملوك وشهواتهم ، واتخاذ كل ملك حيزا من الأرض يذود دونه حتى أكلوا جميعا ، وتفرق المسلمون وجاء التناثر فما أبقوا ملكا على ملكه ، وأبادوا كل الملوك ولم يبقوا منهم ديارا ولا نافخ نار +

١ - العرب والموالى

٨٢ - نقصد بالموالى غير العرب الذين دخلوا فى الاسلام وسموا موالى لما ذكرنا من أن الذين ييسلمون من غير العرب كانوا بعقد موالاة ، وهو يشبه عقد الاخاء مع عربى . بحيث يكون فى ضمن أسرة هذا العربى وتعقل عنه تلك الأسرة العربيه ، وعند الحنفية ترثه اذا مات عن غير وارث من الأقارب على خلاف بينهم وبين بعض من الفقهاء على ما ذكرنا عند الكلام على عقد الموالاة .

وليس المراد من الموالى العتقاء أو نحو ذلك ، انما فهم ذلك من لا يعرف التاريخ الاسلامى على وجهه ، ولا يعرف أحكام الفقه المأخوذ من الهدى النبوى فى هذا .

وقد قلنا فى موضعه ان الموالاة بين المسلم غير العربى والعربى ، كالاخاء بين المهاجرى ، والأنصارى .

ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة النعمان من موالى بنى تميم ، ولذلك كان يقال عنه أبو حنيفة التيمى ، ولقد روى أن بعض التميميين الذين ينتمى اليهم أبو حنيفة . قال للأمام الأعظم : أنت مولائى ، فقال له الامام المعتز بالله وعلمه : « وأنا والله أشرف لك منك لى » أى أن ذلك التيمى يتشرف بعقد الموالاة هذا أكثر مما يتشرف به أبو حنيفة رضى الله عنه .

وان الاسلام سوى بين الناس فى الشرف ، ولا تفاضل فيه بين عربى أو أعجمى الا بالتقوى ، كما صرح القرآن الكريم ، وكما قرر النبى الأمين ، وقد تلوينا فيما مضى الآيات الواردة فى ذلك ، وروينا الأحاديث الموضحة التى كانت توجه أهل الاسلام الآن يندمجوا فى الاسلام ، ولا يكون فارق الا بالتقوى .

وكان الناس كذلك فى عهد الراشدين ، وان كانت بقايا العصبية تبدو أحيانا فى تفاخر لا ينفخ ولا يضر ، يروى فى هذا أن سامان الفارسى كان يجلس مع قوم يذكرون شرف نسبهم العربى ، فقال لبعض الحاضرين : ابن من أنت ؟ فقال

المؤمن التقى سلمان : « أنا ابن الاسلام » فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فبكى
وقال : وأنا ابن الاسلام •

وبذلك كان الاندماج ، وكانت الوحدة ، أو السير في طريقها حتى يبلغ
الاسلام غايته •

٨٢ — ولكن ما ان جاءت الدولة الأموية ، وقد كانت عربية ، وكانت شديدة
التعصب للعرب ، ولم تعط الموالي حقهم الكامل في الاسلام ، وأرادت الاسلام
عربيا ، ولم تفهم أنه دين الكافة ، لأن الله بعث محمدا بشيرا ونذيرا للكافة ،
لا لقوم دون قوم ، ولا جيل دون جيل ، بل هو دين الخليقة الى يوم الدين •

ولشدة التعصب للعرب من الدولة الأموية روى أنه في الجيش ما كان يقسم
لغير العربى اذا اشترك في الجهاد ، مع أن حكمه على غير العربى ، كالعربى على
سواء ، بل كان يرضخ له اذا جاهد مع المجاهدين أى يعطى عطاء غير مقدور من
غير أن يقتسم مع العرب •

وتلك في حكم الاسلام قسمة ضيزى ، ما كانت عدلا لأن الجهاد على الجميع
والغنائم للجميع لكل فيها سهم معلوم وحظ مقسوم ، وتلك جاهلية في الاسلام
وما كانت لتجوز في ظل خليفة أو من قائم مقام الخليفة •

وان غير العرب لبعدهم عن السلطان في العهد الأموى انصرفوا الى الفقه
والعلوم بشكل عام ، ولما ابتدأت المترجمة في آخر العصر الأموى ، وأخذ الفكر
الفارسى يغزو الفكر العربى كان الموالي هم الذين يحملون عبء ذلك ويسيروا به •

ومع ذلك كان الأمويون ينفسون عليهم ذلك ويتبرمون به •

جاء في كتاب مناقب أبى حنيفة للمكى ، من حديث جرى بين عطاء التابعى
وهشام بن عبد الملك الذى كان يسمى نفسه أمير المؤمنين ، ولا يقول أمير العرب
وحدهم وهذا الحديث هو :

قال عطاء : « دخلت على هشام بن عبد الملك بالرصافة فقال : يا عطاء ، هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى يا أمير المؤمنين فقال : فمن فقيه أهل المدينة ؟ قلت : نافع مولى عبد الله بن عمر قال : فمن فقيه مكة ، قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : أمولى هو أم عربى ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمن ؟ قلت : طاووس بن كيسان . قال : مولى هو أم عربى ؟ قلت : بل مولى ، قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟ قلت : يحيى بن كثير . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل الشام ؟ قلت : مكحول . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : مولى أم عربى ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه خراسان ؟ قلت : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربى ؟ قلت : لا بل مولى . قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟ قلت : الحسن وابن سيرين قال : موليان أم عربيان ؟ قلت : لا بل موليان ، قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟ قلت : ابراهيم النخعى ، قال : مولى أم عربى ؟ قلت : عربى ، قال هشام : كادت تخرج نفسى ، ولا تقول واحد عربى » .

وكان التعصب ضد غير العرب من المسلمين يبدو نفسيا لا من الحكام والأمراء فقط كما رأيت من هشام بن عبد الملك ، بل كان من الشعوب والولاة الذين دون الأمير ، فقد كانوا ينفسون كهشام على اخوانهم غير العرب مكانتهم العلمية ، وسيطرتهم على العلوم الاسلامية ، اذ أنهم قد فقدوا السلطان السياسى ، فاستعاضوا عنه بالسلطان العلمى ، وهو أبعد أثرا ، وأقوى تأثيرا وقد امتدت العصبية العربية الى أول العصر العباسى ، فاستمرت حتى كان عصر المأمون .

روى صاحب العقد الفريد : « قال لى ابن أبى ليلى : قال لى عيسى بن موسى شديد العصبية : فمن كان فقيه العراق ؟ قلت : الحسن بن أبى الحسن ، قال : ثم من ؟ قلت : محمد بن سيرين ، قال : فما هما ؟ قلت : موليان ، قال : فمن كان فقيه مكة ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار قال : فما هؤلاء ؟ قلت : موالى ، قال : فمن فقهاء المدينة ؟

فقلت : زيد بن أسلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبي نجيع ، قال : فمن هؤلاء ؟ قلت : موال ، فتغير لونه ، ثم قال : فمن أئمة أهل قباء ؟ قلت : ربيعة الرأى ، وابن أبي الزناد . قال : فما كانا ؟ قلت : من الموالى . فاربد وجهه ثم قال : فمن فقيه اليمن ؟ قلت : طاووس وابنه ، وابن منبه ، قال : ومن هؤلاء ؟ قلت من الموالى . فانفتخت أوداجه وانتصب قائما ، قال : فمن كان فقيمه خراسان ؟ قلت : عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال : فمن كان عطاء هذا ؟ قلت : مولى ، فازداد وجهه تريدا ، واسود أسودادا حتى خشيته . ثم قال : ذمن فقيمه الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فما كان مكحول هذا ؟ قلت : مولى فتنفس الصعداء ، ثم قال : فمن فقيه الكوفة ؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة ، وحمام بن أبى سليمان ، ولكنى رأيت فيه الشر فقلت : ابراهيم النخعى والشعبي ، قال : فما هما ؟ فقلت عربيان . فقال : الله أكبر ، وسكن جأشه « (١) .

٨٤ — ولا شك أن تلك المصورة التى رويت عن حاكم المسلمين الأكبر ، وعن امراء المسلمين ، تصور ألما نفسيا لكثيرين من العرب ، الأئمة تخلفوا فى العلم ، وخصوصا علم الاسلام ، وبالأخص علم الفقه الذى هو ذاته تتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، وانه اذا كان التخلف فى جانب العرب كان التقدم العلمى فى جانب غير العرب .

ولعل الأمر العظيم الذى كان يخشى على الاسلام منه ليس هو أن يكون العلم فى غير العرب لأنه لا يزال علم الاسلام فى المسلمين وان كانوا غير عرب وانما الذى كان يخشى منه على الاسلام ، هو أن العقول غير العربية معها دراسات أخرى وثقاليده موروثه ، وأكثر أولئك من غير العرب متأثرون بها ، وتسرى فى أئمتهم وكتبهم ، شاعرين بها أو غير شاعرين ، وبذلك يثيرون فى الاسلام أمورا ليست من جوهره بل تنافيه ، وليست من دعائمه ، بل ربما تهدمه ، ولذلك كانوا ، أو على الأقل المخلصون المدركون منهم ، يخافون على الحقائق الاسلامية ، أن تشوهها عجمة أولئك الأعاجم .

ولا شك أننا ان فرضنا حسن النية فى أولئك العلماء من غير العرب — ولا بد أن نفرض ذلك — فان عقولهم قد تكون مأخوذة بماضيهم وتسرى اليها بحكم

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج٢ ص ٢٦٥ طبع الأزهرية .

التقاليد والمعادن الموروثة ، وبحكم الثقافة الثابتة ، وان الأفكار الراكزة
لا تخلع خلعا •

وانه بلا ريب كان بجوار أولئك الذين تأثروا بحضاراتهم نوعان قد
يكونان متباينين •

أولهما — أولئك الذين أخلصوا دينهم لله ، وقدموا في الاسلام علما
غزيرا وفكرا قويا كآبى حنيفة المنعمان ، ومثل كثيرين من المحدثين ، وعلماء
السلف كالحسن البصرى ، وابن سيرين ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ،
وغيرهم كثير •

والفريق الثانى — أولئك الذين حنقوا على الاسلام ، لأنه أزال ملكهم
وقوض دولتهم ، وجعلهم تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ولم ينظروا الى الاسلام
الا من هذه النظرة غير المهادية بك الغاوية •

ولقد ذكر ابن حزم أن أسباب الفرقة حقد أهل فارس على الاسلام ،
فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه في خروج طوائف عن الاسلام : « والأصل
في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك
وعلو اليد على جميع العرب وجلالة الخطر في أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون
أنفسهم الأحرار والأبناء ، وكانوا يعدون جميع الناس عبيدا لهم • فلما امتحنوا
بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب ، وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم
خطرا: تعاضمت الأمور وتضاعفت لها المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة
في أوقات كثيرة ، ففي كل ذلك كان يظهر الله الحق فأظهر قوم منهم الاسلام ،
واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة آل البيت ، واستشناع ظلم على رضى الله
عنه ثم سلخوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الاسلام ••• » •

من أجل ذلك كان يتخوف كثيرون من أن يكون قادة الفكر في الفقه والعقيدة
والخلافة من غير العرب وان كان الصادقون في ايمانهم على سواء بلا فضل
لعربى على أعجمى ، ولا الأعجمى على عربى الا بالتقوى •

وفي الحق أن غير العرب خدعوا الإسلام في جملة أحوالهم والذين دخلوا
في الإسلام ظاهراً وأخفوا الكفر باطناً ظهر أمرهم ، كالمقنع الخراساني • وغيرهم
ممن حاربوا المسلمين في صدر الدولة العباسية •

ومهما يكن من أمر هؤلاء من غير العرب ، فإنه بلا شك كان لهم دخل عظيم
في الفرق الإسلامية حاشا الخوارج ، وإن الفرق الإسلامية ما عدا من ذكرنا
كان حمايتها ودعاتها من غير العرب ، ولا يعد من الفرق الإسلامية الجماعة الذين
اعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يخوضوا مع
الخائضين •

الفرق الإسلامية

من أسباب الفرقة :

٨٥ — ان الفسوق الاسلامية وانقسامها كانت من ذرائع الفرقة وفك الوحدة الاسلامية ، وهى وغيرها من الأسباب المعنوية تصيب الجسم الجماعى ، كما تصيب الأمراض جسم الحى تكمن فيه ، وما دام الجسم قويا ، فان حيويته تخفيها ، فاذا كان الضعف ، ووهن العظم وعرق اللحم فانه حينئذ تظهر الأمراض ، ويتضاعف الوهن ، ويمتد التخاذل ، وتنقطع الأوصال ، وكذلك كان على ما سنهين ان شاء الله تعالى :

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » ، وفى بعض الروايات عدم ذكر النصارى ، وفى بعضها زيادة « كلها فى النار الا واحدة » .

وقال المغيلى فى كتابه « العلم الشامخ » حديث افتراق الأمة الى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضها ، بحيث لا تبقى ربية فى حاصل معناه .

وان ذلك الحديث الذى تركى رواياته بعضها ببعض لا ترى أن كلمة سبعين للاحصاء ، وان كان التتبع والاستقراء قد يصل بها الى ذلك العدد ، ولكن نقول ان العدد الكثرة ، وقد تكون فوق السبعين ، فان عدد السبعين يذكر فى اللغة للتكثير . قال تعالى : « استغفر لهم أو لا نستغفر لهم ، ان نستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

وان نشأة الفرق الاسلامية ابتدأت غير عربية ، واننا اذ نرجع الى الوراء قليلا نجدها كذلك ، والوقائع تؤيد ما نقول .

ان الدعوة لطفى كرم الله تعالى وجهه فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله

تبارك وتعالى عنه ابتدأت في الأمصار بأشباعه السوء عن ولاية سيدنا عثمان رضى الله عنه ، ومن أظهر من تولوا كبر هذا عبد الله بن سبأ اليهودى فقد أخذ هو ومن معه يشيعون قتالة السوء عن عثمان وشيعته ويذكرون بالخير عليا وآله *

ومن هذا المنبت غير العربى نبتت نابئة الشيعة *

وان من الشيعة من يرجع بتاريخ ابتداء التشيع الى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ أن فريقا من الصحابة كانوا يرون عليا أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذكروا أن من هؤلاء الزبير بن العوام ، وعمار ابن ياسر ، ويعدد ابن أبى الحديد في شرحه لنهج البلاغة عددا كبيرا *

ويزعمون بذلك أن منبت التشيع عربى قرشى ، وليس فارسيا كما يذكر الكثيرون من المؤرخين ، وسواء أصح هذا الخبر أم لم يصح فإنه من المؤكد انواقع أن التشيع لم يظهر كفرقة قائمة بذاتها الا في آخر عهد على كرم الله وجهه في الجنة ، وكان الغلو معه ، وعلى كل حال هو لم يظهر على أشده الا بعد مقتله كرم الله وجهه في الجنة * واشتد وتزايد بعد مقتل الحسين رضى الله عنه وصلى الله تعالى على جده وسلم ، وبكته الأمة كلها *

وانا بعون الله نتعرض في بحثنا هذا الى الفرقة السياسية ، فانها هي التى كانت تثير الفتن ابتداء ، ثم صارت من بعد ذلك جرحا في جنب الدولة ، حتى تمزقت مزقا وتفرقت دولا ، أو جزيئات من دول ، وأظهر الفرق السياسية التى ظهرت :

الشيعة والخوارج :

٨٦ — نبتت نابئة الفرقتين في وقت واحد وهو خلافة على كرم الله وجهه ، وفى حربه مع البغاة عقب واقعة صفين التى أثار بها معاوية الفتنة في جيش على كرم الله وجهه في الجنة ، وجزى الله الذين وضعوا أول ثلثة في الاسلام ، وان هاتين الفرقتين وغيرهما من الفرق التى تجعل جزءا من عملها سياسيا تجعل الدين أساسا فيها تدور حول محوره ، فتبعد عن لب الدين أو تقترب ، ولكنها

في حال القرب والبعيد تجعل الدين هو الأساس الذي تبنى عليه قولها
في السياسة •

ولذلك كان يفتن بآرائها في السياسة الدينية آراء في الاعتقاد ، فكثرة
الشيعة تنحو نحو المعتزلة في آرائهم في الاعتقاد • ومنهم من يدرسون الفروع
دراسة علمية مبناها مذهبهم الذي يعتقدونه ، ولذلك وجدت آراء للشيعة نسبوا
أصولها الى الامامين زيد بن علي زين العابدين ، وأبي عبد الله جعفر الصادق
ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين ، وقد أثر عن الخوارج الإباضية آراء في
الفروع تابعوا فيها امامهم عبد الله بن اباض •

الشيعة والدولة التي قامت باسمها :

٨٧ — الشيعة كما ذكرنا ، وكما يقرر علماء تاريخ الفرق أقدم الفرق
الاسلامية • وقد أشرنا الى أنهم ظهروا بمذهبهم السياسي في آخر عصر عثمان
رضي الله عنه ، ونما وترزعع في عهد علي كرم الله وجهه في الجنة ، اذ كان كلما
اختلط رضي الله عنه بالناس وخطبهم ازدادوا اعجابا به •

ولما جاء العصر الأموي وقعت المظالم على العلويين واشتد نزول أدى
الأمويين بهم فثارت دفائن المحبة لهم ورأى الناس في علي وأولاده شهداء هذا
الظلم فانتسح نطاق التشيع وكثر أنصاره •

وقوام هذا المذهب المبادئ الآتية :

أولها — أن الامامة لا تفوض الى نظر الأمة ، لأنها ليست من المسالحي
التي تفوض للناس ، ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين ، وقاعدة
الاسلام ، ولا يمكن اغفالها بل يجب تعيين الامام لهم من النبي صلى الله عليه
وسلم ويكون معصوما من الكبائر (١) •

ثانيها — أن علي بن أبي طالب كان هو الخليفة المختار من النبي صلى الله

(١) مقدمة ابن خلدون •

عليه وسلم ، ويدعى الشيعة أنهم ليسوا وحدهم الذين قالوا ذلك بل ادعوا أنه كان يقول ذلك عمار بن ياسر والمتداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله ، وأبي بن كعب ، وحذيفة بن اليمان ، وبريدة ، وأبو أيوب الأنصاري ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن المثبهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الحنفية عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافة ، وكان الزبير بن العوام من القائلين ذلك . ثم رجع ، ومن بنى أمية سعيد بن العاص .

المبدأ الثالث : تفضيل على كل الصحابة :

والشيعة ليسوا على رأى واحد بعد انفصالهم على المبادئ السابقة ، بل منهم الغالون في تقدير على وبنيه . وروى عنهم أنهم يكفرون الشيخين أبا بكر وعمر . ومنهم المعتدلون المقتصدون ، وقد حكى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نحلة المعتدلين الذين يعد نفسه منهم ، قال : « كان أصحابنا أصحاب النجاة والخلص والفوز في هذه المسألة ، لأنهم سلكوا طريقا مقتصدا » .

قالوا : هو (أى على) أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلاهم منزلة في الدنيا وأكثرهم خصائص ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فإنه عدو الله سبحانه وتعالى ، خالد في النار مع الكفار والمنافقين الا أن يكون ممن قد ثبتت قلوبته ، ومات على توليه وحببه ، فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين أوتوا الأمانة قبله ، فلو أنكر امامتهم ، وسخط فعلهم ، فمضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو الى نفسه لقانا اتهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، قال : « حربك حربى وسلامك سلمى » ، وأنه قال : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وقال له : « لا يجهك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق » ، ولكننا رأينا رضى امامتهم وبإيعهم . وصلى خلفهم ، وأنكحهم وأكل فيئهم . ظلم يكن لنا أن نتعدى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ولما حكم بفساد أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص ، وعبد الله ابنه ، وغيرهما حكمنا أيضا

بضلالهم ، والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم وآله ،
الارتبة النبوة ، وأعطيناها كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه ، وبينه ،
ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم
بما عاملهم به عليه السلام (١) .

وان هذا الذى ذكره ابن أبى الحديد هو مذهب الامام زيد رضى الله عنه
الذى ذكر عنه ، بيد أن الامام زيدا رضى الله تبارك وتعالى عنه هرح بأمرين
ثم يصرح بهما ابن أبى الحديد ، أولهما أنه تجوز امامة المفضول ، ولذلك جوز
امامة أبى بكر وعمر وان كان على أفضل منهما في نظر الشيعة جميعا ، وهذا
فهم ضمنا من كلام ابن أبى الحديد ، وان لم يصرح به لأنه ذكر أن عليا كرم الله
وجبه في الجنة بايعهما بامامتهما *

وثانيهما — أن الزيدية يشترطون أن يطالب من يكون اماما بالدعوة لنفسه ،
فهيست الامامة بوصاية من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنها بالاختيار من
أولاد على من فاطمة وذريتهم *

هذا وان الشيعة كان لهم أثر في وحدة الأمة وكان منهم أمراء في بعض
البلاد الاسلامية ، فكان منهم ببلاد المغرب ، وكان منهم بمصر ، وكان منهم
باليمن ، وقد امتد تاريخهم في اليمن الى الامام أحمد بن يحيى الذى ينسب
الى الامام الهادى ، وكان يأخذ بمذهب الشيعة الزيدية ، وهو من أئمتهم *

وكان منهم من كان له أثر في أيام المتتار مما قد نعرض له في عصر الفرقة
وآثارها ، ومن أجل هذا وجب ذكرهم ببعض من التفصيل الموجز المناسب *

ولسنا نتعرض لفرق الخوارج ، لأنه قضى على دعواتهم ، ولم يكن لهم
من بعد ذلك الا فرقة في جنوب الجزائر تنسب الى عبد الله بن اباض ، لأن
لهم مذهباً فقهياً فهى باقية ببقائه *

(١) شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد .

فرق الشيعة :

٨٨ - تعددت فرق الشيعة على نحل مختلفة ، منهم الغلاة ، ومنهم أمة مقتصدّة ، كما ذكرنا ، ومنهم من خرجوا بتشيعهم عن الاسلام ، لأنهم ألّوها عليا رضى الله عنه واعتقدوا بطول الألوهية فيه وفي الأوصياء من بعده .
ومنهم من قال : ان النبوة كانت لعلى ثم أخطأ جبريل ، ونزل على محمد ، لأنه يتسبه كما يتسبه الغراب الغراب !! *

ولكن الشيعة في العصر الحاضر ينكرون أن أولئك منهم ونحن نصرب صفحا عن ذكرهم ما داموا ينكرون أنهم منهم ، ولنتقتصر على ذكر من لا يجدون محيصا من الاعتراف بهم *

وان الذين يعتبرونهم ليسوا أمة واحدة * بل منهم غلاة * وان لم يخرجوا عن نطاق الاسلام ، ومنهم مقتصدون يقربون من الجماعة الاسلامية *

وانا نذكر الذين لم يخلعوا الربقة ويعدون من أهل القبلة *

الكيسانية :

٨٩ - وهم أتباع المختار بن عبيد الثقفي ، وقد كان خارجيا ثم صار من شيعة على كرم الله وجهه وقد قدم الكوفة مع مسلم بن عقيل الذي أرسله الحسين بن على رضى الله عنهما ليعلم حالها ، ويعلم ابن عمه بأمرها *

ولكن قبض عليه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية وضربه وحبسه ، الى أن استشهد الحسين وأرتكب كبر هذا عبيد الله بن زياد ، ولذا قال الحسن البصرى باكيا : « ماذا دهى هذه الأمة فنزل ابن دعيها ابن نبيها »
والدعى هو زياد ابن أبيه ، وابن النبي الحسين *

وقد شفع للمختار زوج أخته عبد الله بن عمر ، فأطلق سراحه ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل على الأخذ بثأر الحسين أما انتقاما لنفسه لحبسه ، وأما غضبة الله ، ولقد أثر عنه أنه قال وهو عائذ الى الصباز :

« سأطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المرسلين ، وابن بنت سيد المرسلين الحسين بن علي ، فوربك لأقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا » •

ثم لحق بأبن الزبير وبايعه على أن يولييه أعماله إذا ظهر ، وقاتل معه أهل الشام إلى أن مات يزيد ثم عاد إلى الكوفة •

وعاد إلى الكوفة على أنه مبعوث من محمد بن الحنفية الذي سماه المهدي ، وقال للناس : المهدي الوصي بعثني اليكم أمينا ووزيرا ، وأمرني بقتل الملحدين والطلب بدم أهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، وقد ذكر محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب لأنه ولي دم الحسين إذ هو كان أقرب إلى البيت الراشدين إليه من الرجال ، ولأن ابن الحنفية كان ذا منزلة بين الناس ، وكان كما قال أشهرستاني في الملك والنحل : « كثير العلم غزير المعرفة رواد الفكر • مصيب النظر في العواقب ، وقد أخبره أبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخبار الملاحم » •

ولكن المختار لم يلتزم بعد ذلك الجادة والاعتدال في دين الله تعالى وأخذ يتكهن ويسجع سجع الكهان ، ولذلك أعلن محمد بن الحنفية البراءة على الملاء من الأمة ، إذ عرف خبيثة نفسه •

ومما قال المختار : « أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والقفار والملائكة الأبرار ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطر ، ومهند بتار » •

وقد أخذ المختار يحارب أعداء العلويين ، وأكثر من القتل الذريع هبهم ، ولم يعلم أن أحدا اشترك في الجيش الذي استشهد فيه الحسين الأقتله ، فحبسه ذلك في نفوس الناس ، فالتفتوا حوله ، وقاتلوا معه •

ولكن أرسل إليه عبد الله بن الزبير أخاه مصعب لما تفاقم أمره ، وقاتله وقتله بعد أن انتصر عليه ، وخلاصة مذهب المختار هذا الذي هو مذهب الكيسانية •

وخلاصة المبادئ التي يؤمن بها الكيسانية ما يأتي :

أولها — أنهم يؤمنون برجعة الامام الذي اختير من النبي صلى الله عليه وسلم . ثم ان الاختيار على من بعده ، فكان الأول عليا ، والثاني الحسن والثالث الحسين ، والرابع محمد بن الحنفية .

ويقول في ذلك شعرا :

ألا ان الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يرى عنهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

وثانيها — البداء ، وهو أن الله سبحانه يغير ارادته تبعا لتغير علمه ، وقد أخذ بهذا غيره من الشيعة لأنه كان يدعى الاخبار عن المغيب في المستقبل فيخبر فتجىء الوقائع بغير ما أخبر ، فيقول : قد بدا لربكم .

والمبدأ الثالث :

أنهم قالوا بتناسخ الأرواط كالهنود ، وهو خروج الروح من جسد ، وحلولها في جسد آخر . .

ونكتفى من الكيسانية بهذا القدر ، لأنهم طائفة انقرضت ، ولم يكن لها شأن من بعد في تاريخ الوحدة الاسلامية سلبا أو ايجابا ، وقد غمرهم التاريخ ، فلم يعرف لهم في ثناياه أتباع .

الزيدية :

٩٠ — وهم الذين ينتسبون الى الامام زيد بن علي زين العابدين الذي خرج على هشام بن عبد الملك ، وخذله أهل العراق ، فقتل في سنة ١٠٢ هـ .

وقد كان خروجه على أثر مشادة عنيفة بينه وبين هشام بن عبد الملك .
وان مذهب الامام زيد رضى الله تبارك وتعالى عنه أقرب المذاهب الى
الجماعة فى الامامة ، وهو مختلط فى الفروع بمذهب الجماعة ، وقوام المذهب
الزيدى كما روى عن الامام زيد يتلخص فى المبادئ الآتية :

أولها : أن الامام معروف من النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه ، لا باسمه
وأوصاف الامام التى قالوها : أنه لا بد أن يخرج للناس ، ويبياعوه ، وأن
ينتون علوييا فاطميا ، ورعا ، عادلا ، سخيا ، يخرج داعيا الناس لنفسه . وقد
خالفه فى شرط الخروج داعيا بعض الشيعة ، وناقشه فى ذلك أخوه محمد الباقر
« على قضية مذهبك يكون والدك ليس اماما فإنه لم يخرج » .

ثانيها : أن هذه عندهم هى للامام الأمثل الذى لا يتصور فى الامامة
أعلى منه .

ثالثها : أنه تجوز امامة المفضل ، اذا اختار أهل الحل والمعد ذلك ، لهذا
اختلفوا اماما لم يستوف بعض هذه الشروط وبياعوه صحت امامته ،
ووجبت طاعته ، ولزمت العامة بيعته ، ولذا لم يكفر ولم يفسق الامامين
أبا بكر وعمر .

وكان زيد يرى أن على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، الا أن الخلافة
فرضت لأبى بكر ، لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة
الفتنة ، وتطيب قلوب العامة ، فان عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان
قريبا ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام من دماء المشركين لم يجف ،
والضعائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل اليه
كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا
من عرف باللين والتودد والتقدم بالسن ، والسبق فى الاسلام ، والقرب من
رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) .

(١) المل والنحل لاشهر ستانى عند الكلام فى فرقة الزيدية .

ولكن الذى ظل راكزا فى نفس شيعة العراق هو ألا يقدر شيعى بامامة
الشيخين *

قال البغدادي فى كتابه الفرق بين الفرق :

« لما استحر المقتال بينه (زيد) وبين يوسف بن عمر الثقفى ، قالوا :
اننا نندرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما
جدك على بن أبى طالب ، قال زيد : « انى لا أقول فيهما الا خيرا ، وانما خرجت
على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم
رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار » ففارقوه عند ذلك *

وكان الامام زيد رضى الله تبارك وتعالى عنه يرى جواز اقامة امامين اذا
تباعدت الأقاليم ، ونحن نرى أن ذلك ينتافى مع الوحدة الاسلامية التى ندعو
اليها ، اذ أنه يجب أن يكون الراعى للمؤمنين واحدا ، ولا تتحقق الوحدة ، اذا
توزعت الامامة *

ونحن نرى أنه لا يجيز النزاع بينها حرصا على الوحدة ، لأنه أول امام
بارز بين أئمة الشيعة بل بين علماء المسلمين ، دعا الى الوحدة الاسلامية ، أو
بعبارة أدق دعا الى ألا تفترق الأمة الاسلامية * وكان يقول رضى الله تعالى
عنه وعن آبائه الكرام « لو أنى علققت فى الثريا ، وقطعت جزءا جزءا على أن
تجتمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لرصيت » فكيف يقال انه يجيز الفرقة ،
وقد كانت نبتت نابنتها ولم تكن قد تجاوزت كل معقول اسلامى والأحاديث
النبوية تمنع ذلك منعا تاما *

٩١ — ولقد كان أتباع المذهب الزيدى قليلين ، ولكنهم كانوا يعملون
ويظهرون بناء على مذهبه من وجوب أن يظهر الامام معلنا نفسه داعيا *

وقد ظهر من بعد مقتل زيد ابنه يحيى ، خرج على الأمويين ، واكنه قتل
فى آخر عهد الأمويين كما قتل أبوه من قبل *

والمذهب يجعله أولى الناس بالخلافة أبناء على من فاطمة ، سواء أكانوا من ذرية الحسين أم كانوا من ذرية الحسن ، ولذا خرج ولدا عبد الله بن حسن ، على المنصور وخرج عليه بالمدينة محمد النفس الزكية ، وقيل ان دعوته كانت دبنية على أحقيته أولا ، وعلى ظلم أبي جعفر المنصور ثانيا وأن بيعته أخذت باكرام ثالثا .

ولقد كان الامام مالك بالمدينة يروى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدرس مسائل الفقه ، فروى حديث : « ليس لمستكره يمين » ، فكان يعتمد على ذلك محمد النفس الزكية ، وقد نهى مالك عن روايته . فلم يفتنه ، وكيف يمتنع امام دارالهجرة عن رواية حديث الرسول .

ولذلك أنزل أبو جعفر المنصور بالامام مالك أشد الأذى بعد مقتل محمد النفس الزكية . أما أخوه ابراهيم فقد خرج بالكوفة ، وكان الامام أبو حنيفة يؤيده في مجالسه العلمية ، وقد أخذها عليه أيضا أبو جعفر المنصور ، وكان يترصب به حتى أنزل به أذى ، اذ سجنه سجنا اتصل بموته ، وكان يضربه أعوان أبي جعفر في محبسه ، ولم يرحموا شيخوخته .

وهكذا نجد أن ذلك المذهب كان له أثر في استنكار ظلم الخلفاء ، وكانت الدعوة العملية التي اشتهر بها تجعله واضح الحركات ، ولم يكن كل عمل أتباعه في بث النحل الهادمة في نفس الشعب ، كما نسب الى غيره من دعاة التشيع الآخرين وان كانت قد ظهرت من بعد ذلك ، في دول منفصلة ، لا في انتفاضات تذهب بعد الهزيمة ، وان كان للمذهب الزيدي دولة من بعد ، كما سنشير .

الجارودية :

٩٢ — وان المذهب ، وان كانت له بعض تلك المظاهر العملية ، فانه أخذ بعد مقتل عبد الله بن حسن يتغير عند بعض أتباعه بالأخذ من الشيعة الامامية كما سنبين .

شددت فيهم فرقة الجارودية وهم أصحاب الجارود بن المنذر العبدى ، وقد خرجوا عن آراء الامام زيد ، وان قالوا بامامته ، فقد قالوا ان الرسول نص على الامام بالوصف ، وقالوا ان امامة غيره لا تجوز ، لأن الوصف كان واضحاً لا ينطبق على غير على ، وحكموا بأن الصحابة ضلوا اذ اختاروا غيره ، وبذلك رفضوا امامة الشيخين ، وكانوا بذلك من الرافضة ، والامام زيد لم يقرر أن هناك هدياً من العلويين وسيظهر في آخر الزمان ، فزاد هؤلاء ذلك ، ويقولون برجعة الامام كالامامية .

والجارودية قد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً كثيراً . ويقول النوبختي فيهم : سموا كلهم في الجملة زيدية الا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام^(١) .

السليمانية :

٩٣ - هؤلاء أشد استمساكاً بآراء الامام زيد من الجارودية ، وان خالفوه في بعض الأمور ، وهم أصحاب سليمان بن جرير ؟ وكان يقول : « ان الامامة شورى فيما بين الخلق » (ويصح أن تعقد الخلافة بعقد رجلين من الأئمة على أن يكونا من خيار المسلمين) .

وامامة المفضول تصح عند هؤلاء كالامام زيد مع وجود الأفضل ، وان الامامين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان اختيارهما اجتهادا منهما ومن بايعوهما ، وهو خطأ لا يصل الى درجة الفسق ، وأنهم لذلك ينزعون أنفسهم عن الطعن فيهما واكتهم يتناولون بالطعن ذا النورين عثمان بن عفان ، ويكفرونه ، ويذهب بهم الخلو المذهبي أن يكفروا أم المؤمنين عائشة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً) .

وقد استنكروا على الامامية والكيسانية القول بالبداة كما استنكره الامام زيد .

(١) فرق الشيعة للنوبختي ص ٥٠ طبع استانبول .

واستنكروا مبدأ التقيّة بغير ضرورة ملجئة ، الأنوم وجدوا الذين يدعون
الأخذ بالتقيّة ، يقولون ما يكون مما لاة للظالمين ، وليس بحق ولا ضرورة تدعى
الى القول ، فاذا أقيم الدليل على بطلانه ادعوا أنهم قالوا ما قالوا تقيّة •
وأن القول مما لاة انما كان من المدعين للتشيع لا من آل البيت أنفسهم ،
رضوان الله تبارك وتعالى عنهم •

البترية :

٩٤ - وهم أتباع كثير النهوى الأبتى ، وقد وافقه على رأيه الحسن
ابن صالح بن حى ، ولذا يقال لهذه الفرقة البترية والصالحية •

وهم فى آرائهم كالسليمانية ، ولكنهم لم يكفروا سيدنا عثمان رضى الله
عنه ، بل توقفوا فى شأنه ، وقالوا ان ماضيه يجعله من أهل الجنة ، فهو من
العشرة المبشرين بالجنة ، وكان له فضل فى نصره الاسلام بما له من مواقف
سامية •

ولكنه فى خلافته ولى الظالمين من بنى أمية ، وترك شورى عمر ، فتحيروا
بين ماضيه قبل الخلافة وحاله فى نظرهم بعدها ، فتوقفوا ووكلوا أمره الى
أحكام الحاكمين •

وجوزوا امامة المفضل وترك الأفضل ولكنهم اشترطوا رضا الأفضل
وقد يكون اختلاف بين نظرهم ، وما روى عن الامام ، فالامام زيد نظر الى
المصلحة ، لا الى رضا الامام على المجرى ، وان كان كلامه قد يفيد أنه أقر
امامة الشيخين لرضا من على كرم الله وجهه • ولقد اشترطوا فى ولاية الامام
صباحة وجهه ، وهو شرط أولوية ، فاذا دعا اثنان الأئسفهما بالخلافة وقد
تساويا فى كل شىء ، ولكن أحدهما أصبح من الآخر ، كان أولى •

وقد جوزوا أن يكون ثمة امامان من أولاد فاطمة ، ويكون كل واحد منهما
واجب الطاعة ، ويقولون قولاً غريباً ، وهو أنه يجوز أن يفتى أو يحكم أحدهما

بغير ما يحكم الآخر ، وكل منهما يصيب في اجتهاده ، وان أفتى باستحلال دم الآخر (١) .

وهذا رأى غريب ، وهو يؤدي الى أن يستحل فريق من المسلمين دم الآخرين ، وكيف يستباح دم مسلم بالرأى ، ثم ان هذا الرأى يؤدي الى الفرقة التى لا يقبلها الامام زيد الذى كان يود جمع المسلمين ، ولو كان بتعليقه فى الثريا وتقطيعه جزءا جزءا .

وان الذى يتصور مع الوحدة الاسلامية بالنسبة لوجود امامين هو أن يكون كل واحد منهما فى اقليم من الأرض ويتعارفان ولا يتنافران ، كما حدث فى تاريخ الزيدية فى الحكم على ما سنين ، ان شاء الله تعالى .

ولقد وصف الشهرستانى رأى هذه الطائفة من الزيديين فى قولهم فى الامامين بأنه « خبط » .

قيام دول على أساس المذهب الزيدى :

٩٥ — فى القرن الثالث الهجرى أخذت يد العباسيين تهن عن أن تدبير دولة الاسلام التى صارت تمتد من بحر الظلمات غربا الى الصين شرقا ، فكانت الاجزاء المتطرفة تتناثر من قبضتها جزءا جزءا .

وفى ذلك العصر (القرن الثالث الهجرى) كانت الدولة معرضة لمذهبين أحدهما بينى والآخر غير ذلك ، أما المذهب الذى بينى فهو المذهب الزيدى ، وأما المذهب الآخر فهو مذهب بعض الغلاة من القرامطة .

والمذهب ظهر منه امامان جليلان امتازا بالعلم وقوة الدين — أولهما — أبو محمد الحسن بن على بن الحسن ، وينتهى الى الحسن رضى الله عنهم جميعا ، ويقلب فى التاريخ الزيدى بالأطروش ، لطرش أصيب به ، ويسمى الناصر التجير تمييزا له عن جاء بعده باسم الناصر .

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج٢ ص ٢١٨ هامش الفصل .

ولد سنة ٢٠٣ من بعد الهجرة وتوفي سنة ٤٣٠ هـ ، وقد كان الذين يظهرون ويعلمون أنفسهم من الزيدية ، يقاتلون ويقتلون أما هو فقد اتخذ العلم سبيله ، ولم يظهر بنحلة سياسية ، وان كان علمه في العقائد والفروع على مقتضى المذهب الزيدي * وقد تتبعه العباسيون ليقتلوه ، وخصوصا المتوكل الذي كان ناصبيا ، ناصب آل على العداء ، ففر الى أرض الجبل والديلم ، وكان أهل هذه البلاد غير مسلمين فاتخذها مستقرا لدعايته الى الاسلام ، وتعليمهم فروعهم على اساس المذهب الزيدي ، فكان بذلك ينشر الاسلام ، وينشر العلم الزيدي معه ، واستقر له الحكم بالخلافة الاسلامية ، وبهذا يعد الناصر محيي الامامة الزيدية ، أول امام استقامت له الامامة في بقعة من الأرض ، وان كانت نائية ، ولقد قال في ذلك الشهر ستاني « لم ينتظم أمر الزيدية ، حتى ظهر في خراسان ناصر الأطروش ، فطلب مكانه ليقتل فاختمى ، واعتزل الى بلاد الديلم والجبل وهم لم يتحابوا بدين الاسلام فدعا الناس الى الاسلام على مذهب زيد بن على ، فدانوا بذلك ونشأوا عليه ، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرة ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلي أمرهم (١) » *

اذن هؤلاء الزيدية أضافوا الى الاسلام بلادا ، ولكنها مستقلة عن الدولة العباسية التي كانت تتبع الزيدية وتقتلهم ، فأنشأوا لأنفسهم امامة ، وتولوا اماما بعد امام *

ولا نستطيع أن نقول ان انشاء هذا الاقليم وقيام دولة شيعية زيدية فيه اقتطاع جزء من الدولة الكبرى للاسلام ، ولكن بلا ريب يتنافى مع الوحدة الاسلامية الجامعة التي لا تختلف فيها النزاعات الدينية ، وان كان ذلك لا يحسبه تناحر أو تنازع مع الدولة العباسية التي كانت تضم الجماعة الكبرى الاسلامية ، قبل أن تتفرق عنها الأقاليم *

الهادي :

٩٦ — في الوقت الذي كان ناصر الأطروش ينشئ ملكا سماه امامة زيدية في الديلم ولم يكن تابعا لبنى العباس كان الهادي ينشئ دولة في اليمن ، والهادي

(١) الملل والنحل للشهرستاني ، ج١ ، ص٢١١ ، على هامش الفصل .

ينتهي في نسبه الى الحسن بن علي ، وقد ولد في سنة ٢٤٥ هـ وتوفي سنة ٢٩٨ هـ
أى أنه عاش نحو ثلاث وخمسين سنة ، أنشأ دولة أو امامة كانت باقية آثارها
الى سنة ١٣٧ هـ * وقد ولد بالمدينة ، وقام هاديا ومرشدا يدعو الى الله والى
طريق مستقيم ، وكان فقيها باحثا يرجع اليه العلماء من كل الطوائف الاسلامية
يسألونه ، فيجيبهم ، ويستفتونه فيفتيهم ، وكان يرد برسائل قيمة أثرت عنه (١) *

وقد ذهب الى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ، فوجد فيها أرضا خصبة ، فبذر فيها
بذرا طيبا نقياً من العلم السلفى الصالح ، وكان بيت المذهب الزيدى النقى
في لبابه *

وقد عاد الى الحجاز بعد أن تعلق به القلوب ، وصار له أتباع من
أهل اليمن *

واليمن في هذه الأيام لم تكن محل عناية ملوك بني العباس ، وقد استغل
ذلك قوم ، واشتهروا في التاريخ الاسلامى باسم القرامطة ، فكانوا يساورون
اليمن ، ويريدون أن يقتلعوه من الحكومة العباسية ، والأهالى يتبرمون بالقرامطة
وما يفعلونه *

لذلك اتجهوا الى الهادى وأرادوه اماما لهم ، فذهبوا اليه في بلاد الحجاز ،
وأخرجوه من محرابه في المدينة الطاهرة — وفاء اليهم فبايعوه على الامامة ،
فعاهدهم عهدا سلفيا وقال فيه :

« أيها الناس انى أشترط لكم أربعاً على نفسى : الحكم بكتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم ، والأثرة لكم على نفسى فيما جعله بينى وبينكم ،
أوثركم فلا أفضل عليكم ، وأقدمكم عند العطاء قبلى ، وأتقدم عليكم عند لقاء
عدوى وعدوكم ، وأشترط لنفسى عليكم اثنتين : النصيحة لله في السر والعلانية ،
والطاعة لأمرى على كل حالاتكم ما أطعت الله فيكم ، فان خالفت فلا طاعة لى

(١). راجع بعض هذه الرسائل في كتاب الامام زيد ، لمحمد أبى زهرة ، الناشر
دار الفكر العربى *

عليهم ، وان ملت وعدلت عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فلا حجة عليكم ، فهذه سببيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » *

بهذه البيعة تقدم ، وأخذ على نفسه ما أخذ من اليهود ، ووفى ، وحاول أن يجمع بين المسلمين ، وكان يقول « لوددت أن الله أصلح هذه الأمة » • وائى جعت يوما وشبعت يوما » •

وبهذا يتبين أنه ما أراد ملكا ، انما أراد اصلاح الأمة ، واردة اصلاحها جمع كلمتها ، وتحقيق وحدتها ، كما تركها النبي صلى الله عليه وسلم والراشدون من بعده •

وان الاصلاح لا يكون الا بالعدل ، وتوزيعه بالمقسطاس بين الناس ، ليطمئنوا ، واذا اطمأنوا ائتلفوا ، واذا ائتلفوا كانت الوحدة قربية ، ولا تكون بعيدة غير دانية •

وعلى رأس العدالة - العدالة الاجتماعية ، فنظم بيت المال وجمع الزكوات ، وبعد أن أقام العدل عمل على وحدة اليمن ، وما يجاورها من البلدان ، وضم نجران الى اليمن •

وأقام الحدود كلها ، ولم يعف منها كبيرا لكبره ، بل نفذها بغير هوادة ، وبعد أن جمع القلوب ، وأقام العدل ، ونفذ الشرع اتجه الى الجهاد فجاهد القرامطة ، وقد أخذوا يعيشون فى الأرض فسادا •

ولقد وقع الاسلام بين الغلاة فى الشرق والغرب ، ففى المغرب كان القرامطة ، يساورون حدود اليمن ويريدون أن يقنصوها من حاكم بغداد الذى كان لا يزال يسمى نفسه خايفنة ، وان هت يده عن أن تقبض على ناصية فى أرضه •

وفى المغرب كان الباطنية الذين أنشأوا الدولة الفاطمية ، واستولوا على

مصر ، وشرق ملكهم وغرب ، تقدم الهدى للقرامطة ، وحاربهم خمس سنين دأبا .

وقد جرح سنة ٢٩٨ هـ ، ومات من بعد ذلك راضيا مرضيا .

دولتان منفصلتان عن حكم بغداد :

٩٧ — ونلاحظ هنا أن الزيدية أقاموا دولتين : احدهما دولة الناصر الأطروش ، وأقامها في الديلم والجبل وتعاقب فيها من بعده خلفاؤه . ولا نقول أنه انتزعها من ملك العباسيين ببغداد ، ولكن يقول انهم أقاموها في مكان لا سلطان لأحد من المسلمين عليه ، ولم يكن بينهم وبين الحكم العباسي مغالبة .

والثانية في اليمن : وقد أقامها الهدى ، واستمرت قائمة الى حوالي سنة ١٣٨٠ هـ ، وآخرهم أحمد بن يحيى ، وقد تخلفت في آخر عهدهم .

ولا يقال انهم انتزعوها من أيدي العباسيين ، لأن القرامطة قد غلبوا على ما حولها وكانوا يقصدون أن يغلبوا عليها ، فجاء الهدى وخلفاؤه فأزالوهم ، حتى كانت جهودهم من بعد في المغرب . ونلاحظ هنا أيضا أن الأطروش ، والهدى ، كلاهما كان يلقب بلقب الامامة ، ولم يكن له تبعية للدولة العباسية في العراق .

وكلا امامي الزيدية كان يعترف لصاحبه ، وان ذلك فيه تطبيق للمذهب انزيدي الذي يجيز اقامة امامين في قطرين متباعدين .

وان الأسباب قد توافرت لاقامة هاتين الدولتين ، فالناصر أدخل الاسلام في اقليم لم تمتد اليه يد الدولة العباسية التي قصرت في ذلك الابان .

والهدى نشر راية العدل والاصلاح في وسط التخاذل والفساد ، وأزال القرامطة من حكمه .

فلم يمكنهم من أن يقطعوا البلاد لغالية الشيعة كما كان حكم الباطنية في الغرب الذي انحدر الى مصر ، ثم اجتازها الى الشام وبذلك تقطعت الدولة الاسلامية وذهبت الوحدة .

الامامية من الشيعة :

٩٨ — هذه الطائفة التي تحمل اسم الشيعة الامامية يدخل في عمومها أكثر المذاهب الشيعية التي سارت في التاريخ ، ولا يزال كثيرون منها الى الآن في العالم الاسلامي في ايران والعراق ، وما وراءها من باكستان وأندونيسيا والهند .

ويدخل في حكمها طوائف لم تنحرف في اعتقادها الى درجة أن تخالف نصوص القرآن في أي أمر علم من الدين بالضرورة .

ويشمل طوائف أخرى فيها انحراف شديد .

والجامع لهؤلاء المقتصد منهم في الاعتقاد والقول ، وغير المقتصد هو اسم الامامية .

وأنهم يقولون أن الائمة عينوا من النبي صلى الله عليه وسلم بالشخص ، لا بالوصف ، فعين النبي صلى الله عليه وسلم عليا وهو يعين من بعده بوصية من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بعده . الخ .

وقد أجمع الامامية على امامة على كرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وأنها قد ثبتت بالنص عليه بالذات من النبي صلى الله عليه وسلم نصا ظاهرا ويقينا صادقا من غير تعريف بالوصف ، بل بالعين .

قالوا : « وما كان في الدين أمر أهم من تعيين الامام ، حتى يفارق عليه السلام الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة ، فانه اذا كان قد بعث لرفع الخلاف ، وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويترك الناس هملا ، يرى كل واحد منهم طريقا ، ولا يرافقه غيره . . . بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع

اليه ، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه^(١) وعلى هو الذى عين
بنص نبوى » *

ويستدلون على ذلك بأدلة من السنة ، يعتقدون صدق سندها ، وباستنباطات
من أعمال النبى صلى الله عليه وسلم ، اختلف بها عليا كرم الله تعالى وجهه
في الآخرة *

وليس هذا المقام مقام توضيح المذهب ، فليرجع اليه في مواضعه (٢) *

وكما اتفق الامامية فيما بينهم على أن الامام عليا كرم الله وجهه وصى
النبى صلى الله عليه وسلم بالنص قرروا أن الأوصياء من بعد علي هم أولاده
من فاطمة : الحسن ، ثم الحسين رضى الله عنهما ، ثم اختلفوا من بعد ذلك على
فرق مختلفة في الأئمة بعد هؤلاء ، بل قيل انهم اختلفوا من بعد ذلك على أكثر
من سبعين فرقة *

وأظهرها فرقتان ، وهما الباقيتان الاثنا عشرية ، والاسماعيلية *

الاثنا عشرية :

٩٩ — ترى الاثنا عشرية أن الأوصياء اثنا عشر وصيا ، وأن الوصى أو الامام
بعد الحسين ابنه علي زين العابدين ، ومن بعد علي زين العابدين محمد الباقر
ابنه ، ومن بعد محمد الباقر جعفر بن محمد الباقر *

ومن بعد جعفر ابنه موسى الكاظم ، ثم علي الرضا ، ثم محمد الجواد ، ثم
علي الهادى ، ثم الحسن العسكري ، ثم محمد ابنه وهو الامام الثانى عشر *
ويعتقدون أنه دخل سردابا في دار أبيه بسر من رأى ، ولم يعد الى الآن ، وقد
اختلفوا في سنه عند اختفائه ، فقيل كانت سنه أربع سنين ، وقيل كانت ثمانى

(١) الملل والنحل للشهرستاني *

(٢) راجع في هذا الكتاب « الفرق بين الفرق » وكتاب تاريخ المذاهب الاسلامية
« الاعتقادية والسياسية » لمحمد أبى زهرة ، الناشر : دار الفكر العربى *

سنيين ، وقال بعضهم أو أكثرهم : كان في هذه السن عالما ما يجب أن يعلمه الامام ، وأن ذلك يتفق مع أصل المذهب في علم الأوصياء الاثني عشر يقولون : ان علمهم النهامى لا كسبى •

وقال آخرون : كان الحكم لأهل مذهبه •

والاثنا عشرية يوجدون الآن في العراق وعددهم كثير يقارب النصف وهم يسيرون على مقتضى المذهب الاثنى عشرى في عقائدهم ، ونظمهم في أحكام الأسرة من الزواج وأحكام الأولاد والمواريث ووصايا الأوقاف والزكوات والعبادات كلها •

وكذلك أكثر أهل ايران على المذهب الاثنى عشرى •

ومنهم من يقيمون في لبنان وسوريا وكثير من البلاد الاسلامية ، وهم على ود مع اخوانهم من أهل الجماعة ولا ينافرونهم •

وان الامامية الاثنى عشرية كثيرهم من الامامية يفرضون في الامام سلطانا مقدسا يأخذه بإيضاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكما أن ولايته للأمة كانت بوصاية تنتهى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتصرفاته كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية •

ونكتفى من بيان المذهب بذلك وليرجع الى بقية البحث في مصادره •

الاسماعيلية :

١٠٠ — والاسماعيلية طائفة من الامامية كما ذكرنا ، وهى منبثة في أقاليم متفرقة من البلاد الاسلامية ، وبعضها في جنوب افريقيا ووسطها ، وبعضها في بلاد الشام ، وكثير منها في الهند ، وباكستان ، وكان لها دولة الفاطميين التى كانت من المغرب الى مصر ، وحكمت معها الشام •

والقرامطة الذين سيطروا وقتنا ما على عدة أقاليم اسلامية كانوا منهم وان لم تكن لهم دولة قائمة بذاتها ، وهذا المذهب ينتسب الى اسماعيل بن جعفر

الصادق • وعند اسماعيل يفترقون عن الاثنى عشرية ، اذ يعدون الوصى بهد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم ، ثم تكون الوصاية من بعده في اولاده أما الاسماعيلية فيعدون اسماعيل هو الوصى بعد ابيه جعفر بن محمد •

ويلاحظ أن اسماعيل مات قبل ابيه جعفر ، ولكنهم قالوا أن جعفر نص عليه ، فكان اعمال النص بأن تبقى الامامة في عقبه ، فان النص الذي يقوله الامام اعماله أولى من اهماله اذ أن أقوال الامام عندهم كتصوص الشارع تماما فلا عجب في قولهم هذا •

وقد انتقلت الامامة عن طريق اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ، وهذا أول الأئمة المكتومين أو المستورين اذ هم يقولون ان الامام يصح أن يكون مستورا ، ولا يمنع ذلك من امامته وتجب طاعته ، ومن بعد محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق ، وبعده ابنه الحبيب وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ظهر في شمال أفريقيا ومالك المغرب ثم كان من عقبه من أنشأ الدولة الفاطمية في مصر •

وقد نشأ مذهب الاسماعيلية بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية ، واضطهد فيه كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية أو بالأحرى الرجال الذين كانوا يظهرون دعاة له •

وخرج المعتنقون له تحت تأثير الاضطهاد الى بلاد فارس وخراسان ، وما وراء ذلك كالهند وتركستان وأن هؤلاء الاسماعيلية قد اتصلوا بأهل المذاهب القديمة ، فاتصلوا بالكلدان والبراهمة والفلاسفة الاثرائيين ومنهم من أوغل في دراسة هذه المناهج ، ومنهم من أخذ منها وكان بمقدار ايغاله وأخذه يكون بعده عن الاسلام أو قربه منه ، فبعضهم أخذ بقدر لم يفارق به الاسلام وبعضهم أخذ بمقادير جرته الى الخروج عن الاسلام •

وانهم قد أحاطوا أنفسهم بالسرية في تفكيرهم • ومبادئهم الآراء ، وكانت تظهر أحيانا • كما كان من القرامطة وغيرهم ولكنهم يبيئون ما يبيئون فما كانوا يستأنسون بالناس •

وانه بلغ لهم من الكتمان حد أن كانوا يكتبون الرسائل ، ولا يعنون أسماء كاتبها ، كما ترى في رسائل اخوان الصفا التي اشتملت على علم غزير وفلسفة عميقة ، فقد ذكر المؤرخون أنهم هم الذين كتبوها ، ولم يعرف العلماء الذين كتبوها ، وهي تشرفهم لو ظهوروا ، ولعلمهم معروفون عندهم^(١) .

وقد سموا الباطنية أو الباطنيين ، وذلك لاتجاههم الى الاستخفاء عن الناس ، وقد ابتدأ الاستخفاء بسبب الاضطهاد أو خشية الاضطهاد . ولكنهم من بعد ذلك استمروا وألفوه ، واتخذوه سبيلا للتدبير المحكم ومنهم طائفة سموا في التاريخ باسم الحشاشين ، وقد ظهرت أعمالهم في ايام الحروب الصليبية و ايام حروب التتار ، وكان بعضها سرياً على الاسلام والمسلمين وقد لاقى منهم صلاح الدين الأيوبي العنت الكبير .

ومن أسباب تسميتهم بالباطنية أنهم قتلوا بالامام المستور ، وقد استمر امامهم مستورا . الى أن ظهر متغلبا في المغرب ، ثم اجتاز شمال أفريقيا الى مصر .

ومن الأسباب أيضا أنهم يقولون أن للقرآن ظاهرا ، وباطنا وان للباطن باطنا حتى نصل الى سبعة بواطن وما عند الامام من أسرار علم باطن .

وقد شاركهم في هذا الاثنا عشرية ، وهو الجزء الخاص بعلم الباطن بجوار علم الظاهر .

وقد بنيت الآراء التي يعتنقونها على ثلاثة مبادئ ، شاركهم في بعضها الاثنا عشرية أولها — الفيض الالهي من المعرفة الذي يفيض الله تعالى به على الأئمة فيجعلهم بمقتضى امامتهم فوق الناس علما واحتسابا ، وقربا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وربيه ، فعندهم علم الشريعة قد أوتوه دون الناس .

(١) راجع في اخبار الاسماعيلية كتاب اصول الشيعة ، وكتاب تاريخ المذاهب الاسلامية الاعتقادية والسياسية لمحمد ابي زهرة ، الناشر : دار الفكر العربي ، للشريف المرتضى .

والثانى — ان الامام لا يلزم أن يكون ظاهرا معروفا * بل يصحح أن يكون خفيا مستورا ، ومع ذلك تجب طاعته * وان المهدي الذي يهدى الناس في قابل الأيام * وان لم يظهر في جيل من الأجيال ، فمانه لا بد ظاهرا من بعد ، ولن تقوم القيامة ، حتى يظهر ، ويملا الأرض عدلا ، كما ملئت جورا وظلما *

الثالثة — أن الامام ليس مسئولا أمام أحد من الناس ، وليس لأحد من الناس أن يخطئه فيما يقول من أقوال ، وفيما يأتي من أفعال ، ففعله دائما خير لا شر فيه ، لأن عنده من العلم ما ليس عند غيره ومن هذا المبدأ قرروا أن الأئمة معصومون * لا بمعنى أنهم لا يرتكبون خطايا فقط ، بل بمعنى أعمق من ذلك ، وهو أن ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه ويكون سائغا بالنسبة لهم ، وليس سائغا لغيرهم من الناس *

وليس في هذه المبادئ التي ذكرناها ما يخرجهم من اطار الاسلام الى غيره ، فليس ما يصحح أنه خالف أمرا حريحا في الكتاب أو السنة *

ولا شك أن بعض نواحي التفكير التي عند الباطنية ليس فيها ما يصحح أن يكون كفرا حريحا ، وأقصى ما نقول فيها اننا لا نعرف بها كتابا ولا سنة *

ولكن في أهل هذا التفكير وجدنا من خلعوا الربقة ، وكانت السرية التي اتخذتها هذه الفرقة مدرجة لهذا الخروج ، ففي ظلها فرضت آراؤهم ، وكانت سببا في أن وجد الحاكمية ، وهم أولئك الغلاة الذين تجاوزوا حدود الاسلام ، ولقد غالى بعضهم في معنى الأشراق الروحي ، حتى زعم أن الاله يحل في نفس ، ودعا الى عبادته (أى الامام) *

الحاكمية :

١٠١ — وانه كان على رأس هؤلاء الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تنسب اليه الطائفة الحاكمية وقد ادعى أن الاله حل فيه *
وقد اختلفى الحاكم ، ثم مات أو قتل على اختلاف الرواة ، وان الراجح

أنه قتله بعض أقاربه ، ولكن أنكر مريدوه وأتباع مذهبه الذى ظهر بعد موته — أنه مات ، وزعموا أنه يعيش مستورا عن الناس ، وأنه سيرجع * وقد سميت الطائفة التى تتبعه بالحاكمية ، والدروز الذين يكثرون بלבنان وسوريا لهم صلة وثيقة بالحاكمية * وان كنا نظن أن كثيرين منهم لا يقولون ما يقول الحاكم فى الحاكم *

وان بعض المؤرخين يقول ان الذى وسوس الى الحاكم أن يخرج على الناس بهذه الآراء الغالية رجل فارسى اسمه حمزة الدرزى *

ومهما يكن من أثر الحاكم فان بعض الدروز يعلنون آراءهم ، ولا نجد فيها ما ينافى الاسلام ، ومنهم من كانت له مواقف مشهورة مذكورة فى الدفاع عن الاسلام مثل المرحوم شكيب أرسلان * وكثيرون يستخفون بأرائهم وأعمالهم ، والله أعلم بحالهم *

وبجوار الحاكمية والدروز فرقة تسمى النصيرية لا تنسب نفسها للاسماعيلية والكلام فى هذه الطائفة كثير ، ونضرب الآن صفحا عن ذكره ، وليرجع فى الكلام فيها الى مصادره (١) *

نتائج الطائفية :

١٠٢ — كان يبدو بادىء الرأى أن الاختلاف الطائفى اختلاف علمى ونظرى فقط * والاختلاف النظرى أو العلمى ليس من شأنه أن يفرق الجماعات ولا يمزق الوحدة ، ولا يجعل بأسها بينها شديدا ، لأن الاختلاف العلمى لا يتجاوز مواطن التفكير ، ومواضع النظر *

ولكن الاختلاف الطائفى الشيعى أدى الى أن تنشأ دول تفك الوحدة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم ، ووثقها عليه السلام ، بالاخاء ، وبالموالاتة كما أشرنا من قبل *

(١) مراجعة تاريخ المذاهب الاعتقادية والسياسية فى الاسلام وكتاب ابن تيمية وكلاهما لمحمد أبى زهرة — الناشر دار الفكر العربى *

ولم تكن تبعة هذا الاختلاف أو الافتراق تقع على الشيعة وحدهم ، بل على العباسيين الأنهم لم يعالجوا الأمر بالتلاقى على أحكام القرآن والسنة ، بل عاجوه كما يعالج الملوك الخارجين عليهم بالقتال والقتل وبث العيون ، وتتبع الناس بالسعاية ونحوها •

فمهرروا في الاستتار والاستخفاء ودبروا ما دبروا في ظل الكتمان ، واتخذوا من ظلامه درقة اتقوا بها سيف القتال ودبروا أمرهم ، وأحكموا التدبير •

وصارت دعوى الامامة متنازعة بين ثلاث دول متفرقة •

أولها : امامة الناصر الأطروش في بلاد الديلم والجبيل ، وهو يدعى أنه امام ، وان كان لا ينازع امامة بنى العباس ، لأنه في أرض نائية عنهم ، وله فيها فضل الانشاء •

الثانية : امامة الهادي ، وهي في اليمن ، وامتدت الى ما يجاوره ، ولم تكن لتنقص الأرض من أطرافها على بنى العباس ، بل كان لها الفضل في القضاء على انقراضة الذين كانوا يقضون مضاجع العباسيين •

وهاتان الامامتان ظهرتا في القرن الثالث الهجري ، وتوطدت دعائم الهادي ، حتى بقى ما سمي الامامة الى بضع سنين خلت •

وفي القرن الرابع الهجري ظهر امام الفاطميين الذي انبعث من بين الباطنيين أو الاسماعيليين وابتدأ حكمه في المغرب ثم انتقل الى مصر ، وأخذ الشام ، واستمر حكمهم الى أن قضى عليهم الأيوبيون في القرن السادس الهجري •

وبذلك صارت الامامة الى القرن السادس الهجري مضطربا لأربعة أئمة هم أمير المؤمنين العباسي والامام الناصر الأطروش وذريته ، والامام الهادي وذريته ، والمعز لدين الله وأولاده الى أن أдал الله منهم بالدولة الأيوبية •

وكان سلطان الخليفة العباسي اسميا ، وليس حقيقيا يتبع في الحكم
والسلطان *

تقطع الدولة في العهد العباسي :

كانت الطائفية لها الأثر في تفريق الوحدة من الناحية العملية ، على
النحو الذي ذكرناه ، كقامت دول وانفكت الوحدة الاسلامية التي كانت تمثلها
الخلافة ، ولو اسميا ، ولم تكن للخلافة النبوية حقيقة قائمة بل كانت الملكية
هي المتحكمة ، وان تسمت بالخلافة وامرة المؤمنين *

ولقد قلت ان الوحدة كانت قائمة في عهد ملوك بني أمية ، وان كانت على
دخن ، لأنه لم يكن حكم الاسلام قائما على الوجه الأكمل ، ولأنها لم تقم على
أصول الاختيار بالشورى الاسلامية *

فلما آل الأمر الى بني العباس ، وكانوا أقرب رحما بالنبي صلى الله تعالى
عليه وسلم ، وان يكونوا في حكمهم أعدل وأشمل ، ولكن كانوا أقل تعصبا
للعرب * ثم آل الأمر الى العنصر الفارسي ثم العنصر التركي ، ثم كان استبداد
هؤلاء ، وأولاء بمن تسموا بالخلفاء من بني العباس *

الحكم الأموي بالأندلس :

١٠٣ - والدولة العباسية في ايمان قوتها ، ونشأتها القوية الفتية ، وفي عهد
أبي جعفر المنصور الذي يعد أقوى منشىء للدولة العباسية نشأت دولة بني مروان
بالأندلس *

ذلك أنه عندما نزل الاضطهاد العباسي بالأمويين ، وتنبعوا قتلًا وتشريداً،
جزاء ما قدمت أيديهم بالنسبة لآل عابى كرم الله وجهه في الجنة وان كان
العباسيون ساروا على مثل منهجهم *

في هذا الوقت ، وفي عصر أبي جعفر المنصور ، فر عبد الرحمن بن معاوية

ابن هتسام بن عبد الملك الى الأندلس ، ولم يكن العرب الذين بها قد اقتنعوا بالتغيير والتبديل في العراق والشام والمدينة ، فدانوا لعبد الرحمن بالطاعة وارتضوه حاكما عليهم ، وسمى في التاريخ بعبد الرحمن الداخل : وسماه أبو جعفر المنصور تقديرا لعمته ، واعجابا به — صقر قريش *

ظهر صقر قريش في الأندلس فاستولى عليها وضبط الأمور وجمعها تحت سلطان واحد *

واقترنت الحضارة الأندلسية بالدولة الروانية هذه في ذلك الوادي الخصب ، حتى لقد قال ابن حزم أن دولة بنى أمية بالأندلس كانت أنبل دول الاسلام ، وأنكاهها في العدو * وقد بلغت من العز والنصر ما لا زيادة عليه (١) * ولم يكن الملوك الأمويون الروانيون بالأندلس يدعون أنفسهم باسم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بل كانوا ملوكا ، ولم يدعوا لخلافة حتى لا يكون بين جماعة المسلمين خايفتان ، ولم يكن قد انفتق الخرق * فلم يريدوا أن يكونوا المبتدعين للافتراق *

ولكن ضعف أمر الخلافة العباسية ، واستبد بالخلفاء منهم الفرس ، ثم الأتراك ضعف شأنهم وخرج بالامامة أو الامرة عليهم الناصر الأطروش والهادى في القرن الثالث — ثم نشأت الدولة الفاطمية على يدى المهدي الذي انتقل أحفاده من بعده الى مصر *

رأى هذا عبد الرحمن الناصر في مطلع المائة الرابعة من التاريخ الهجرى، فعندئذ ادعى الخلافة لنفسه ، ولقب نفسه بلقب أمير المؤمنين ، ثم صار ذلك اسما لمن جاء بعده من ملوك بنى أمية في ذلك الاقليم الخصيب *

وفي عهد عبد الرحمن الناصر هذا بلغ ذلك الاقليم الاسلامى الذروة في العز والسؤدد والرفعة ، وأخاف الفرنجة وأرهبهم ، وامتد سلطانه في البلاد

(١) نفع الطيب ج ٣ ص ٧١ *

الإسلامية إلى المغرب ونازع المهدي من الإسماعيلية. فيمهم وجهه شطر مصر .

ولكن ما بعد ارتفاع الشمس في كبد السماء الا زوالها ، فإنه قد سار على الأمر من بعده ابنه الحكم على منهاجه وسياسته ، فلم تضعف الأندلس .

ولكن لم يدم ملكه طويلا كآبيه . إذ أن أباه عاش ملكا وخليفة نحو خمسين سنة ، أما الحكم فقد عاش خليفة ست عشرة سنة فقط .

ولقد اعتري الحكم بعد ذلك ضعف إذ تولى غلام كالشأن في كل الحكم النوراني ، إذ قد يتولاه الضعفاء كما يتولاه الأقوياء .

ولنترك هذا إلى موضعه في دراسة تاريخ الأندلس .

وان المقصود بذلك السياق الذي سقناه كيف ابتدأ تفرق الوحدة الإسلامية بعد العصر الأموي مباشرة ، وفي عصر فتوة العصر العباسي ازدهاره .

ولقد ضعف بعد ذلك الخليفة العباسي وكانت تتساقط أجزاء دولته ، حتى آل الأمر إلى الافتراق الذي نعاني منه الآن تفرق كلمة المسلمين ، وأن يكون بعضهم حربا على بعض أو على الأقل لا يشعر كل إقليم منهم بما يعانیه الاقليم الآخر ، أو يشعر ولكن ينظر إليه من لا يهمه الأمر فيه ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

الدولة الطولونية ثم الاخشيدية :

١٠٤ — أخذت الأقاليم بعض الاستقلال عن دولة العباسيين ، فأحمد ابن طولون تولى مصر ومن بعده أولاده ، وكان خاضعا للدولة العباسية ينادى بالاتبعية لها ويعمل على حفظ ما تحت يده ويقدم الخراج والهدايا إلى الدولة ، وكانت دولته وراثية ، ثم جاء الاخشيدية كذلك ، ومؤسس الدولة الأولى أحمد ابن طولون ، وكان أبوه مملوكا تركيا ، أهدى إلى المأمون بن الرشيد وكان من الجنود الأتراك الأكفاء وولد له أحمد سنة ٣٢٠ وقد تولى حكم مصر من

قبل المسيطرين في الدولة العباسية سنة ٢٥٤ هـ فتولى ادارة الدولة والأعمال الخارجية .

وقد استقل بها أحمد سنة ٢٥٧ هـ ، ودعى له بها بعد الدعاء للخليفة .
وكانت وراثية لمن بعده ، حتى أخذها الأخشيدي .

وكان الأمر قد اضطرب بعض الاضطراب ، حتى اقتنصتها الدولة الفاطمية
ونوات العباسية التي لم يكن لها من الخلافة الا الاسم .

الحال في الدولة العباسية :

١٠٥ — وجدت الدولة العباسية ، وهي تحمل في نفسها عوامل انهيارها
واضطرابها .

لقد قامت على التأييد الفارسي ، فالدعوة الفارسية كانت هي التي تقوم
بالدعاية لتلك الدولة ، وقد ابتدأت الدعوة علوية ، ثم حولت من علوية الى
عباسية .

فكانت بسبب ذلك مربوطة بالعلويين والفراسيين معا ، فالعلويون كانوا
لا يسكتون عنهم ، ولا ينوون الخروج عليهم ، والقرامطة الذين اتخذوا العلوية
مظهرا أقضوا مضجعهم الوقت بعد الآخر ، وهكذا .

والفراسيون كان يخشى بأسهم من وقت أن قامت الدولة ، فأبو مسلم
الخراساني الذي انتزع الملك من الأمويين ، وأعطاه للسفاح ثم للمنصور ، كان
أخشى ما يخشاه أبو جعفر حتى بادر بقتله ، فتعداه قبل أن يتعشاه ، وجاء
المنع الخراساني فثار على حكم المهدي ، وتولى نشر الزندقة ، فتلقاه المهدي
بالمقاومة الشديدة ، وحاربه في ميدان الحرب ، وميدان القلم .

حاربه حتى هزمه وقضى على قوته .

ودفع المعتزلة اليه يحاربون الزندقة التي كان يبشها المقنع الخراساني
وانتصر في الميدانين ، ولكن بقى أصل الداء لم يستأصله *

وجاء من بعد ذلك عهد الرشيد ، فتقرب اليه البرامكة زلفى ثم اكتشف
أنهم يعملون لفارس لا للعرب ، ولما تكتشف له ذلك نكبهم ، ولكن بعد أن
نحروا الشعوبية على العربية *

ولما عهد الى الأمين ثم المأمون ، وقد كان الثاني أسن من الأول ،
وضعت المعركة سافرة بين العرب والفرس ، إذ أيد العرب الأمين وقد كان ذا نزعة
عربية ، وأيد الفرس المأمون ، عندما تنازعا وانتهى الأمر بمقتل الأمين
وهزيمة الجيش العربى ، وإشاعة قالة السوء عن الأمين *

وهكذا كان العنصر العربى يضعف ، وغير العربى يقوى ، وقد اتخذ المأمون
من الفرس الحجاب والوزراء والقواد وكانت دولته فى حقيقتها فارسية وان
كانت فى زى عربى *

ثم جاء المعتصم ، فأضاف الى العنصر الفارسى العنصر التركى . وهكذا
نالت العناصر غير العربية على السيطرة على الحكم *

وقد يقول قائل : وما الذى فى هذا والاسلام دين عام خالد لكل الأجناس
ولكل الأجيال ، فاذا! كان المتغلب عربيا أو المتغلب فارسيا أو تركيا ، فهم على
سواء ، لأن الاسلام سوى بينهم *

وان ذلك الكلام ظاهره الحق ولكن عند فحصه يتبين أنه بعيد عنه ، ذلك
أن الذى نأخذه على نظام الحكم المغالبة ، فكما أنا أخذنا على الحكم الأموى
التعصب العربى ، فانا نأخذ على التغلب الفارسى التعصب والمغالبة *

ولو كان الأمر معاونة بين العرب والأعاجم لكان الخير المتفق مع حقائق
الاسلام *

ان الوحدة الاسلامية تقتضى مزجا يشبه المزج الكيمائى ، ولا تكون

خلطاً ، وان المزج يوجب أن تختفى كل الخواص الجزئية بعناصر أجزاء المركب ، بحيث لا يتغلب عنصر على عنصر بل يكون البارز هو صفات المزيج وحده ، وكذلك الأمر في الوحدات الاجتماعية عامة ، وفي الوحدة الإسلامية خاصة .

السامانية :

١٠٦ - أخذ ظل الدولة العباسية يختفى من الحكم ، ففي المغرب ، كانت دولة الأدارسة ثم دولة المهدي الفاطمي وأولاده الذين أنشأوا الدولة الفاطمية بمصر ، وأزالت كل أثر للعباسيين في مصر والشام .

وفي الشرق كان يتنازع الحكم كثيرون من أولاد فارس ، وغيرهم ، وكان منهم ، الذين استبدوا بملك خراسان وتوارثوه أكثر من سبعين ومائة سنة وكان الملك فيهم وراثياً ، وقد قضاوا على كل سلطان للخليفة في التنفيذ ، ولم يبق له في الخلافة الا الاسم .

ويقول أستاذنا المرحوم الخضرى المؤرخ الأول في هذا العصر للإسلام :

« تنسب هذه الأسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز في أسرة عريقة المجد في الأمة الفارسية ، وكان في عهد المأمون من تلك الأسرة اولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لبعض البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم . وكانت بلاد ما وراء النهر مقسمة بينهم يلوونها من جهة أمير خراسان ، فكان نوح بن أسد في سمرقند وأحمد بن أسد في فرغانة ، ويحيى بن أسد في الشاس ، وأشروسنة . والياس بن أسد في هراة ، وكان أحمد ابن أسد عفيف النفس ، رضى السيرة ، لا يأخذ رشوة ، ولا أحد من أصحابه ولما توفى استخلف ابنه نصرأ على أعمال سمرقند وما وراءها فبقى عاملاً بها . » (١) .

وهكذا كما قررنا أن الدولة العباسية كانت تحمل في نفسها عوامل هدمها ، وتفزيق الناس عن الوحدة الإسلامية الجامعة ، فان أولاد سامان توارثوا الملك . وصاروا دولة داخل الدولة العباسية .

(١) محاضرات تاريخ الامم الإسلامية ، الدولة العباسية ص ٣١٠ .

والنتيجة الطبيعية لهذه السياسة أن يستضعف الخلفاء ، وأن يقتلوا خليفة بعد خليفة ، أو بالأحرى ملكا ضعيفا بعد ملك ، ويتساقط نفوذهم تساقط الذباب على موائد من ولوهم *

ولقد ذكر أستاذنا الخضرى النتيجة الحتمية لذلك وهو تفرق الوحدة الاسلامية وتقطع أجزاء الدولة التى كان يرجى أن تكون جامعة لأمرها ، وهما يكن نوع حكمها ، ومن أى طريق كان سلطان ملوكها *

مما تقدم يفهم أن البلاد الشرقية تقلص عنها ظل الدولة العباسية فعلا ، وان كان يدعى لهم ببعضها اسما *

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان * وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة *

أما بالغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر ، وسوريا وهى دولة أحمد بن طولون^(١) ، واته خلف ابن طولون وأولاده الأخشيديون ، وخاف من بعدهم دولة الفاطميين ، وقد جاءوا من المغرب ، وهؤلاء ساوروا ملك العباسيين ولم يدينوا لهم بطاعة ، بل أغرى بينهم بالعداوة والبغضاء *

بنو بويه :

١٠٧ — وقد انقبض سلطان بنى العباس وصار نفوذهم العملى والادارى مقصورا على بغداد وما حولها من العراق ، وأما بقية الدولة فقد خرجت من أيديهم ، وصارت الولاية الحقيقية للسلطين والولاة الذين استقلوا بهذه البلاد القاصى منها والدانى *

حتى جاء بنو بويه ، وأزالوا ما بقى لهم من سلطان فى ادارة بغداد

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، الدولة العباسية ص ٢١٠ .

والعراق ، ولم يبق لهم الا السلطان الاسمى وصاروا لا يملكون من أمورهم الشخصية أكثرها ، و ذلك على أيدي بنى بويه •

وقد ظهرت هذه الأسرة في وقت اضطرب فيه الأمر بين الحكام الذين استلبوا النفوذ في بلاد المشرق من دولة بنى العباس ، وصار الحكم فيه لمن غلب •

ولقد أصاب بعضهم الترف والطغيان ، حتى أنه جعل له سريرا من ذهب كان يجلس عليه ، وسريرا من فضة كان يجلس عليه أكابر قواده •

واتخذ بعضهم شارة الملك الفارسي وما يماثله ، فكان اذا جلس على سريره الذهبى يقف الجند حفاصفا بعيدين عنه رهبة ، أو ليصوروه للناس مرهوبا • لا يصل اليه أحد الا الحجاب الذين جعلهم رتبا ، رتبة فوق رتبة ، واتخذ لحمل الناس على طاعته السبيل الذى يتخذه كل جبار طاغية ، وهو مكون من أمرين أحدهما الخوف الشديد ، وبذلك لا يفكر أحد في مقاومته أو مجابهته أو لومه أو نقدد أو أن يقول له اتق الله ، وكان لسان حاله يقول « من قال لى اتق الله تطعت عنقه » •

والعنصر الثانى : البذل والعطاء ، وان كان مال الدولة ، وكان بذله لمن يعاونه في سلطانه ويقدمون له مظاهر الطاعة العمياء •

وهذا الحاكم الطاغية اسمه مرداويج من الديلم وقد غلب على حكام كانوا على شاكلته ، وسلخوا مثل طريقه ، وأخذ منهم السلطان بحسد السيف ، وما كان منه كان صورة للمغالبات في داخل الدولة الاسلامية الكبرى التى فرقت وحدة المسلمين ، وقسمتهم فرقا ، ودولا ، أو جزيئات من دول •

انضم الى نصرة هذه الطاغية اولاد بنى بويه وهم على والحسن وأحمد ، والطامعون دائما يلجأون الى الركن الشديد ذى الغلب والقوة • ويقول في شأنهم أستاذنا الخضرى :

« ولما استقر قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم •• وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ••• وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق ، وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية » •

والأدوار التي يشير إليها المؤرخ العظيم ، دور قوة الخلفاء وهو العصر العباسي الأول ، عصر الازدهار ، والدور الثاني بقاء الخلافة اسما ، وتحكم موالى العباسيين من الفارسيين ، والأتراك مع بقاء نوع من النفوذ والسلطان ويظهر ذلك في العزل والتولية أحيانا ، أما الدور الثالث وهو الأخير ، نهج الذي أخذ الحكم والسلطان فيه بنو بويه لم يبقوا للخليفة فيه شيئا •

وبنو بويه ، قبل أن يتول اليهم السلطان ، لم يكن لهم نسب معروف ولكن بعد أن آل كتب تاريخ ونسب ينتهي الى بهرام جور الملك ، ولكن أبا الريحان البيروني يرجح أن هذا النسب جاء به سلطانهم بعد أن صار لهم سلطان وقوة ، والذي دونه هو أبو اسحاق بن هلال الصامبي • وقد أثر عنه أن بعض الأدباء دخل على ابراهيم الصامبي ، وقد اعتكف لكتابة تاريخ تلك الدولة فسأله : ماذا تكتب ، فقال له : « أباطيل أنمقتها وأكاذيب ألفقتها » •

استطاع على بن بويه أكبرهم أن يصل الى قلب الطاغية مرداويج حتى عينه واليا على الكرج ، وكتب له بذلك العهود والمواثيق • وقد استطاع على أن يعمل انفسه ، لا لمن ولاه الذي أوجس منه خيفة ، بعد أن فصل عنه : وأحس بذلك على بن بويه ، فتألب عليه ، وانتهى الأمر بينهما بموت مرداويج ، قتله جنوده من الترك اذ كان فظا غليظا ، وكان يؤثر قومه من الديلم على الترك فثاروا عليه •

وانتهى أمر كل المنافسين لعلى بن بويه • فكان في يده ما كان تحت سلطان مرداويج من الأرض وسير أخاه الحسن الى بلاد الجبل ومعه جند قوى •

وعين أخاه أحمد وسيره الى الأهواز ، فاستولى عليه ، ثم سار الى واسط واستطاع الاتصال بقواد بغداد فدعوه اليها •

فدخلها دخول الظافر القوي في ١١ من جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ ،
والخليفة هو المكتفى ، فبايع أحمد على أن ينادى بالمكتفى على أنه الخليفة
وينادى بأحمد بن بويه على أنه السلطان *

وان الخليفة لم يكتف بما خلعه على أحمد من لقب السلطان ، بل ، شرف
كل بنى بويه بالألقاب الفخمة ، فلقب عليا أخاهم الأكبر بلقب عماد الدولة
وهو صاحب بلاد فارس ، ولقب الحسن صاحب الري والجبل بلقب ركن الدولة
ولقب أحمد صاحب العراق بلقب معز الدولة *

ويقول أستاذنا الخضرى ، وهذا هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية
وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم ، وصيرورة الخليفة منهم رئيسا
دينيا لا أمر له ولا وزير ، وانما له كاتب يدير اقطاعاته ، واخراجاته وصارت
الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء^(١) *

تمزقت الدولة العباسية ذلك التمزق ، وزالت الخلافة حقيقة ، وان بقيت
حكما على حد تعبير الفقهاء *

ولم يكن للمسلمين جامعة سياسية أو دينية تجمعهم ، بل تفرقت وحدتهم ،
ولم يعودوا فى الوجود شيئا قائما بذاته ، ومن الحق علينا أن نترك الكلمة
لأستاذنا شيخ مؤرخى الاسلام فى هذا العصر الخضرى اذ يقول رضى الله عنه
« كان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية ، والقائم بالأمر منهم
عبد الرحمن الناصر ، وقد لقب بأمر المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد الى
ما وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديلمة الذين سال سيولهم ببغداد *

وببلاد أفريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغلبة ،
والأدارسة ، والقائم بالأمر منهم اسماعيل بن منصور ، وهو ثانى خلفائهم ،
وكان يلقب بأمر المؤمنين *

(١) الكتاب المذكور بهامش ص ٢٠٠ — ص ٣٧٨ .

وبمصر والشام الاخشيدون وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي ،
وبحلب والشعور سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيباني ويخطب باسم
الخليفة العباسي « يحصى رضى الله تبارك وتعالى عنه الأقسام التي كانت في
القرن الرابع الهجرى ، وبذلك تجزأت الوحدة وتقطعت أسبابها • ثم يختم
ذلك بقوله :

« هذه هي القوى الكبرى التي كانت الأسر ملوكية في الرقعة الاسلامية ،
فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسكا الأعصر كلها ،
وله حاضرة كبرى تجمع شتاته • ومما يستحق النظر أن العنصر العربى لم يبق
له شيء من الملك الا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة الحمدانى فانهما
من عنصر عربى ، ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانها من البلاد
للشواد الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى ، بل كان أمر بنى بويه فوقهما ،
وكانوا يذكرون اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي » (١) •

آل سلجوق :

١٠٨ — نذكر آل سلجوق بكلمة لأنهم ورثوا بنى بويه ، وقاموا من بعدهم ،
ولأن استيلاءهم على بغداد يصور كيف كان الخليفة لا حول له ولا قوة إذ أنه
عندما استحكم الفساد دعاهم لانقاذ البلاد ، وأن الخليفة صار لا يستطيع
المحافظة على نفسه ، حتى انه كان يودع عند بعض الحكام كوديعة يحافظ
عليها ، ولأن آل سلجوق عاصروا الحركات الصليبية وقاوموا فيها حتى أخذ
الرأية منهم صلاح الدين يوسف الأيوبي •

وآل سلجوق من تركستان كانوا تحت حكم ملك الترك بها ، وقد أوجسوا
منه خيفة فهاجروا إلى أرض الاسلام ، ولم يكونوا قد دخلوا في الاسلام ،
فدخلوا فيه وخرجوا من عقائد الجاهلية إلى العقيدة الاسلامية •

وقد ربطوا بحالهم ببعض ملوك السامانية ، إذ أن أولئك اختلفوا

(١) تاريخ الأمم الاسلامية — الدولة العباسية — المرحوم الخضرى ص ٣٨٠ •

فاستعان بعضهم بسلجوق رأس الأسرة ، فأعانه وأخذ أولاد سلجوق يعملون في البلاد الإسلامية متعرضين للخطر دائما يعاونون من يستعين بهم .

وتفرقوا في البلاد يحكمون ويتسلطون ، وكان أظهر أحفاد سلجوق طغرل بك وقد تم له الاستيلاء على أرض اسلامية كبيرة ، وهي خوارزم ، وخراسان ، وبلاد الري ووصلت مقدمات جنوده الى البلاد العراقية .

وفي هذا الوقت كانت الأحوال قد ساءت في بغداد ، لأن آل بويه قد تفرقت كلمتهم ، وزالت من القلوب هيبتهم فلم يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارئ ، ولا من لصوصها فأعدوا البلاد لقبول ما يغير من هذه الحال (١) .
وانه في هذه الأثناء جاء بعض من يناصر الفاطميين بمصر والشام ، والذين تناخم سلطانهم العراق ، وحاول هذا أن يدعو للفاطمي المتولى أمر مصر بالخلافة على منابر بغداد .

علم الخليفة العباسي بذلك ، فكتب الى السلطان طغرل بك السلجوقي مستغيثا ، وقد كانت هذه أمنيته وكتبه من بغداد من الأفراد والرؤساء يبدلون له الطاعة وأن يخطبوا له على المنابر .

جاء طغرل بك الى بغداد وأظهر للخليفة الطاعة وتقدم الخليفة فأمر الخطباء بأن يخطبوا في جوامع بغداد لطغرل بك فخطبوا ، وكان يوم الجمعة ٢٢ من المحرم سنة ٤٤٨ هـ ، واذ صار له السلطان قبض على آخر سلاطين بني بويه .

وبذلك انتهت دولتهم ، وحل محلهم السلاجقة .

وقد قامت فتن وحروب اشترك فيها ضد طغرل بك . بعض عمومته ، وكانت الحروب بالموصل والجزيرة واشترك ضد طغرل بك بعض العرب ، ولكنه تغلب على كل مناوئيه ، ورضى بذلك الخليفة الذي ليس له من الأمر شيء . وقد خضع عليه الخلع والشارات .

(١) الكتاب المذكور ص ٤١٧ .

واستمر الأمر في نزاع بين السلاجقة وبعض العرب ، وبين السلاجقة بعضهم مع بعض أحيانا ، والخليفة لا أمر له ، حتى أنه في أثناء المعركة بين بعض العرب والسلاجقة ، دخل المناوئون لطغربك بغداد ، ودعوا لخليفة الفاطميين والخليفة العباسي قد خرج من قصره على أن يكون في ذمام رئيس القوة العربية قريش بن بدران العقيبي ولقد قال أستاذنا المرحوم الخضري في ذلك : « واستند منه (أى من قريش بن بدران) بذمام الله تعالى وذمام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذمام العرب ، فأعطاه ذلك ، ونزع قريش قلنسوته فأعطاه الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة ، وبيده السيف ، وعلى رأسه اللواء ، وأنزله في خيمة » .

هذه حال الدولة الى أول القرن السادس الهجرى . وقد مزقتها الأهواء وحكمتها العصابات المتغلبة ، فكل ملك يريد أن يحكم البلاد ينازل الآخر . والخليفة قد ضاقت يده ، حتى صار لا يملك الا عقاره ونسبه ، ولا يهمه الا أن تبقى له تلك الدعة ، وصار ينطبق عليه قول المحيطي في الزبيرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهما واقعد فانك أنت الطاعم التكاسي

اكتفى الخليفة بأن يكون آمنا في سربه عند متعته ، وتحقيق رغبته وهان أمره حتى اذا كانت حرب حوله ، لم يكن له فيها ناقة ولا جمل ، وكانوا ينقلونه الى خيمة الحرب ، كما تنقل النساء والذراى .

هذا أمر الخلافة الكبرى التي كانت للمسلمين ، فلم يكن غريبا أن يمزقوا كل ممزق وأن يكون الخليفة نهب المقتسمين وهدف المغتصبين ، وأن يتحقق فيهم ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يا رسول الله ، قال : بل أنتم اليوم كثير ، ولكن غناء كغناء السيل . ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليذيقنكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

غارة الصليبيين :

١٠٩ — انتهى القرن الخامس ، والمسلمون في المشرق على ذلك التداير والتنازع ، ولا جامع يجمعهم ، ولا رابط يربطهم ، وقانون الغلبة هو الذى يحكمهم ، ولا يستقر الأمر الغالب حتى يبادر الى الانتقام ممن غلبهم ، والمغلوب يتحين الفرصة للانقضاض ، وهكذا استمرت الحال على ذلك والشعب مأكول من الغالب والمغلوب على سواء ، ومصالح الأمة ضائعة فى كل حال * كانت هذه الحال مغرية للصليبيين لأن يقبضوا قبضة من ذلك النهب الضائع ، ورسلمهم تجيء الى المسلمين وتعرف حالهم فى خفى أمرهم مع ظاهره ولم يكن فيه خفاء يحتاج الى تعرف *

أخذ بطرس الراهب يحرض ملوك أوروبا على الشرق ، ويدعوهم الى الأرض المقدسة ، يدعوهم مرة باسم المسيحية ومولد المسيح ، وأرض نشأته ، وبها نشأته * وبها كنائسه ومرة باسم المادة ، لأنها تفيض لبنا وعسلا ، وتقدم هو بجمع ، وان لم يكن منظما ففتح الطريق للجيوش المنظمة *

فاندفعت تلك الجيوش ، واستولت على الأرض المقدسة وعاثوا فيها فسادا وقتلا ذريعا ، ويجب أن نذكر هنا الفضل لرجلين عظيمى الشأن فى الاسلام :

أحدهما — محمود نور الدين زنكى السلجوقى ، فانه جمع الصنفوف من جيش المسلمين المنهزم ، وأخذ يقاوم الصليبيين ، وينازعهم الأرض شبرا شبرا فعلق تقدمهم ، ومنعهم من أن يتغلغلوا فى البلاد الاسلامية ، وفى أول الأمر ظنوا الطريق مفتوحا *

ولكنه لم يقف عند ذلك ، بل أراد أن يسترد منهم بيت المقدس والأرض المقدسة التى دنسوها وهى التى بارك الله فيها *

والرجل الثانى — هو يوسف صلاح الدين الأيووبى الذى كان قائدا من قواد نور الدين ، ثم حمل العبء كاملا من بعده ، وقد عمل عملين : أولهما أنه قضى على الدولة الفاطمية فى مصر لأنه رآها عامل تخذيل لا عامل تأييد ولأن

فريقا من الفاطميين كانوا على الجيش الاسلامي ، وكانوا يتصلون بالفرنجة
الغزاة من وراء ، ولعلمهم كانوا على حملة بالفاطميين *

العمل الثانى — أنه جمع الجموع من البلاد الاسلامية وأكثرها من
البلاد العربية * وأخرج الصليبيين من الأرض المقدسة ، وطهرها من رجسهم ،
وظلمهم الذى كان يشمل النصارى من سكان البلاد الاسلامية ولا يقتصر على
المسلمين *

وقد استمرت الحروب الصليبية من بعد ذلك ، ولكنها كانت غارات تنتاب
ولم يكن فيها انتصار لهم حتى كانت مدينة المنصورة مقبرتهم الأخيرة فى عهد
دولة المماليك *

التتر :

١١٠ — وما ان خفت ويالات الصليبيين ، وأخرجوا من الأرض المقدسة
وصارت الحرب من بعد ذلك سجالا ، لا يغلبون ولا يسيطرون ، وان لم
يقهروا ، وتتوالى منهم الغارات ، ولكن يتلقاها المسلمون بالصبر ، وقد أبلوا
فى ذلك بلاد حسنا *

وما ان كان ذلك ، حتى فوجيء المشرق بمن هم أدهى وأمر ، وهم المغول
أو التتر ، فقد انقضوا انقضاضا على الممالك الاسلامية الجزأة فحطموها *

ولقد اختلف الرواة فى سببها فثقل ان بعض المغالبيين لخوارزم شاه أحد
ملوك المسلمين حرضهم عليه ، لشغله بهم وأخذه على غرة وهو مشغول بهم ،
وكان غريبا أن يعين قوما غير مسلمين على ملك مسلم ، ولكنه الطمع الذى يعمى
ويصم ، وضعف الخلق والدين والرجولة تجتمع فيكون منها ذلك *

وقيل ان السبب أن جنكيز ملك التتر الوثنى عقد مع خوارزم شاه اتفقا
تجاريا ، أرسل بمقتضاه رسلا أربعمئة ومعهم المتاجر فقتل أتباع خوارزم
شاه التجار وأخذوا ما معهم ، فأرسل من يذكره بعهدده فقتله *

ولعل ذلك السبب كان ظاهرا ، ولكن الطمع في البلاد الاسلامية التي كانت بلاد الخصب والنماء والثروة هو الباءث الأول أو الثانى ولكنه كان باعثا على كل حال .

انسابت الجيوش التتريه المغولية في الأرض الاسلامية، حتى جاءت الى بغداد ، وساروا في طريقهم الى دمشق ، وكانوا من بعد بغداد قد دخوا في الاسلام ، ولم يمنعهم من الفساد والاسترسال ، حتى لقيهم قطز ومن بعده الظاهر بيبرس البندقدار .

وان الذى يهمننا في هذا المقام هو ما فعلوه في الشرق عامة وفي بغداد خاصة ، وفي المسمى خليفسة المسلمين بشكل أخص ، ولنترك الكلمة في هذا لابن الأثير في كتابه الكامل ، قال :

« ولقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما ، كارها لذكرها ، وهأنذا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذلك ، فيأليت أمى لم تلدنى ، وباليئنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي نفعا .. فنقول : هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التى عمقت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل : ان العالم منذ خلق الله تعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لا تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، الى أن ينقرض العالم وتفنئ الدنيا الا بأجوج ومأجوج ، هؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال والحوامل ، وقتلوا الأجنة ، وانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالنيران استدبرتها الريح ، ان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ومنها الى بلاد ما وراء النهر فملكوها ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفترغون منها ملكا وتخريبيا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الري وهمذان الى حد العراق ثم

يُفصدون بلاد أذربيجان ، ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينسج منهم الا الشريد النادر — في أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم قصدوا بلاد قفجاق ، وهم من أكثر الترك عددا ، فقتلوا كل من وقف لهم . فهرب الأباقون الى الغياض ورعوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولوا هؤلاء المنتر عليها ، فعلوا هذا في أسرع زمان ، ولم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها ، من بلاد الهند ، وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد ، هذا مما لم يطرق الأسماع ، فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك أندنيا لم يملكها في هذه السرعة ، انما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا ، انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض سيرة — في نحو سنة ، ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها ، الا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم اليه ، ثم انهم لا يحتاجون الى مدد يأتينهم ، فانهم معهم الأغنام والبقر والخيال وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التى يركبونها ، فانها تحفر الأرض بحوافرها ، وتأكل عزوق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج .

وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئا ، يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب والخنازير وغيرها ، ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتينها غير واحد من الرجال ، فاذا جاء الولد لا يعرف أبوه .

هذا وصف هؤلاء المنتر الذين دخلوا الديار الاسلامية وأتموا تمزيقها بعد أن مزقها أهلها .

دخولهم بغداد :

١١١ — واننا لا نكتفى بهذا الوصف العام ، بل لا بد أن نشير الى ما كان ببغداد . كيف تم الاستيلاء عليها فانه ينطبق عليها بعض القول ، يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي الكافرين ذلك أن وزير الخليفة ابان ذلك كان مؤيد الدين

ابن العلقمى ، وكان شيعيا متشددا ، ذلك أن السلاجقة والبويهيين من قبلهم كان فيهم تشيع . وكانوا يحمون الشيعة ، كما كانوا يحمون ذات الخليفة العباسى ، وإذا كانت سياستهم قد منعتهم من أن يعينوا خليفة شيعيا فإنها لم تمنعهم من أن يعينوا وزيرا شيعيا .

لقد كانت الفتنة قائمة على أشدها بين أهل السنة والشيعة ، والتتر بساورون ببغداد ، ونال السنيون من الشيعة ، وتغلبوا عليهم ، فأحرق ذلك ابن العلقمى .

وبغداد فى هذا الوقت كانت مبتلاة من داخلها ، كما هى فى بلاء من خارجها ، ففى الخارج كان التتر ، وهم وحدهم يزيلون كل حضارة أو فيهم الكفاية الكاملة لذلك ، ولقد مالاهم من داخل بغداد اليهود والنصارى الذين تقموا على الاسلام اذ آواهم وحملهم وكفل لهم الحرية الدينية من غير اضطهاد أو أذى .

وكان فيها ابن العلقمى الناقم على السنيين وخليفتهم ، ولو كان خليفة بالاسم لا بالحقيقة ، فدفعه حقه وحب الانتقام أن يختار مائة التتر عبدة الشمس على اخوانه المسلمين عبدة الواحد القهار ، لقد عمل على اضعاف المسلمين عن المقاومة .

كان فى بغداد مائة ألف جندى معهم السلاح والعدة والعناد ، وكان فيها الأمراء الأكابر الذين كان فيهم حمية الأسود الكواصر ، فأخذ فى تقليل العدد حتى نزل الى عشرة آلاف ، ثم أطمع التتر وكشف لهم الحال وضعف الرجال .

ولم يكنف بذلك الذى قدمه ، بل أنه عندما أقبلوا كالوحوش الضارية حسن للخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ويكون للخليفة النصف فرضى ، وذهب الخليفة ليفاوض ، فأعاده هولاء قائلهم مذموما مدحورا ، اذ أشار الوزير العلقمى على هولاء ألا يقبل المصالحة لأن الخليفة

ينقضها بعد سنة ، وأشار عليه بأن يقتله فقتله وأيد العلقمى فى قوله هذا نصير الطوسى الذى كان فى صحبته ، ليكون كاشفا لحال البلاد الاسلامية التى يفتحتها •

قتل الخليفة باشارة وزيره ابن العلقمى وانساب التتر يقتلون ويخربون ، ولم ينجح من أهل بغداد الا اليهود والنصارى ، وهن لجأ الى ابن العلقمى (١) فهؤلاء وحدهم كان لهم الأمان •

هذه صورة لذلك العصر ، وكيف كان المسلمون والبلاء بلاء ، وكان ما يفعله التتر اباداة لا تبقى ولا تذر ، ولا تفرق بين مذهب ومذهب ، اذ نهبت محلة الرافضة أهل مذهب ابن العلقمى ، ونهبت دور ناس لهم قرابات بابن العلقمى ، فأتار ذلك حنقه وهاجه ، ولعله ندم على أنه دبر ما دبر مما كانت عاقبته وخيمة على الاسلام وأهله ولات ساعة مندم • وأنه مع هذه الصورة البشعة المؤلمة صورة أخرى أشد شناعة وأشد اقتتاما وهى تبين كيف كان أثر المتعصب الطائفى اذ فرق المسلمين أولا ، وقدمهم لقمة سائغة للعدو أخيرا • ولا حول ولا قوة الا بالله •

الخلافة من بعد بغداد :

١١٢ — دخل التتار حلب بعد بغداد ، وذهبوا الى دمشق ، فاستولوا عليها سنة ٦٥٨ من الهجرة ودخلوها ، ولكنهم لم يمكثوا بها أمدا طويلا ، فقد جاءت الجيوش المصرية فى آخر رمضان من السنة نفسها بقيادة ملكها المظفر قطز ، فلقد بلغه أنهم قاصدوه ، فبادرهم قبل أن يبادروه ، وتعداهم قبل أن يتعشوه فالتقى الجيش المصرى فى عين جالوت بالجيش التترى فانهزم التتر الأول مرة وتبعتهم الجيوش المصرية تديقتهم بعض ما أذاقوه الآمنين ، فقتلوهم وتردوهم ، حتى اندعروا فى البلاء فارين •

ولم يكتف المصريون باجلاتهم عن دمشق بل أجلوهم بقيادة الظاهر

(١). تاريخ البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ١

ببيرس من بعد تظز عن البلاد العربية كلها وثغورها * وبذلك تكسرت تلك الصخرة التي جاءت من الصين هاوية على رؤوس الناس عامة والمسلمين خاصة وهنا يجب أن نذكر أن الاسلام وصل الى قلوب هؤلاء التتر ، وذاقوا بشاشته بعد فترة من الزمان *

لهذه المكانة التي نالتها مصر بانتصارها على التتر لأول مرة ، اتجه التفكير الى أن تكون دار الخلافة بعد العراق وأن تكون القاهرة بدل بغداد *

أراد الظاهر أن يعيد الخلافة الاسلامية وأن يجعل موطنها القاهرة ، وقد شغل منصب الخليفة ثلاث سنين من سنة ٦٥٦ هـ الى سنة ٦٥٩ هـ ، حيث بويع المستنصر العباسي خليفة ليسير في سياسة بنى العباس *

وان اقامة خليفة مهما يكن ضعفه فيها رمز للوحدة ، وعسى أن يكون المرز حقيقة *

وكان المخزنون أن تعود الخلافة اسما لامعنى له ، وشكلا لا حقيقة له ، ولكن المستنصر أرادها قوة موجبة ، وأن يعيد للاسلام معناه ، وللمشكك حقيقته *

وقد استفاد الظاهر من وجود الخليفة عنده ، وهو صاحب السلطان الشرعى في نظر الأكثرين والجمهور الأعظم ، وقد جعل المستنصر للظاهر سلطان المسلمين عامة لا سلطان مصر وحدها *

تقدم الخليفة ليثبت سلطانه وسلطان من عينه بقوة السيف ، فقتل ساعيا ، بدل أن يقتل ضعيفا مستخدما *

بايع من بعده الظاهر أخاه الحاكم في الثانى من المحرم ٦٩١ هـ *

وفي اليوم التالى لتوليته ارتقى المنبر يوم الجمعة ، وخطب داعيا الى للوحدة والجهاد ، وجاء في خطبته ما يدل على ألمه ، ورغبته في الوحدة الاسلامية ، فقد جاء فيها :

« اعلّموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام * والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبب انصرم الا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء الا بارتكاب الجرائم . فلو جاهدتم أعداء الاسلام ، لما دخلوا دار الاسلام * واستباحوا الدماء والأموال وقتلوا الرجال والأطفال ، وسبوا النساء والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات ، وهتكوا حرم الخليفة الحريم ، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم العظيم ، فكلم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكلم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه ، فشمروا عباد الله عن ساق الجد في احياء فرض الجهاد ، واتقوا: الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين ، وهذا السلطان الملك الظاهر هو السيد الأجل الكامل العادل المجاهد المؤيد ، ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الامامة عند قلة الأنصار ، وشرذ جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، وأصبحت الخلافة بهتمته منتظمة العقود ، والدولة العباسية متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله تعالى الى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا دينكم تنتصروا ، وقتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يزعجكم ما جرى ، فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان ، والأجر للمتقين ، جمع الله تعالى على الهدى أمركم ، وأعز بالاسلام نصركم ، واستغفر الله لى وللمسلمين ، فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم » (١) *

ونرى في هذه الخطبة دعوة الى الجهاد في ظل الظاهر بيبرس ، وقد اشتملت من الثناء عليه ما اشتملت ، وفيها دعوة الى جمع الكلمة *

ولكن هل عادت الخلافة العباسية كما ابتدأت ، ان عيشها في ظل سلطان لا يجرى فيها دماء الحياة ، ولا يحيى مواتها ، لأنها تكون مانعة له *

ولذلك استمرت تتبادلها أيدي السلاطين من المماليك حتى جاء آل عثمان واقتنطوها وادعوها لأنفسهم فكانوا يلقبون بأمرء المؤمنين ، والدول الاسلامية ننتقص جزءا جزءا وما ينتقص يكون تحت حكم المسلمين *

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الثالث عشر ص ٢٣٨ *

الاندلس والمغرب:

١١٣ — كانت مصر بعد أن فتحها الله تعالى على المسلمين في عهد أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه المكان الذى كانت تنبعث منه جيوش الفتح الاسلامى الى شمال افريقيا ، وعبرت البحر الى الاندلس ، وانسابت فيها الجيوش الاسلامية حتى وصلت الى جنوب فرنسا ، واحتلته أكثر من عشرين عاما . ولذلك نرى فى سكان جنوب فرنسا ما يدل على أنهم من بقايا الغزاة .

وانه مع اتساع ذلك الفتح ترك الفاتحون الجبال فى شمال الأندلس الى المغرب فاتخذت مثابة أوى لها المنهزمون من الوندال ورجال الكنيسة وأمراء البلاد الذين نجوا من حد السيف ، وما كان العرب ليهتموا بسكان هذه الجبال لأنهم كانوا أقوياء مسيحيين ، وان كان هؤلاء يكونون داء يخشى أن ينفجر وقتنا ما ، فان قوة الجسم تهزمه لا محالة .

ولكن حكام الأندلس من بعد عبد الرحمن الناصر ، كان فيهم فساد . فمنهم من انغمس فى الشهوات يجترع منها اجتراعا ، ومن لم ينغمس فى حرام أنرفه النعيم ، واسترخى بالعيش الفاكه ، وذهب البأس العربى ، وزاد الطين بلة الفتن التى توالى .

ولما تولى بعض الخلفاء بولاية العهد فى سن العاشرة استولى على الحزم الوزير أبو منصور العامرى ، وفيه بأس وقوة ، ولم يسترح فى حياته بنعيم . وكان سكان الجبال ابتدأوا يقتطعون أجزاء من أرض المسلمين . فرددهم على أعقابهم خاسرين .

ولكن من بعده اضطربت الأمور ، فالأمويون اختلفوا فيما بينهم . ثم كان انحلال الحكم الأموى ، ومجيء ملوك الطوائف ، وحدار كل إقليم له حاكمه ، فتفرق المسلمون فى الأندلس ، والعدو يترصدهم وينقص الأرض عليهم من أطرافها .

ولكن المرابطين بالمغرب جاءوا بقيادة أميرهم ابن تاشفين ، وأزال الحكيم المتفرد ، وقاوم الفرنجة ، ولكن يجيء من بعد ذلك الموحدون ويخرجون المرابطين *

وهكذا أصبحت الأندلس عرضة للتفرد والانقسام ، وغارات المسلمين من المغرب ، وغارات الفرنجة من الشمال يقتطعون من تحت أيديهم الأرض مدينة مدينة *

وفي هذه الأثناء كان عماد الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، يردون جحافل الصليبيين عند بيت المقدس ، حتى ينتزعه منهم ، وتتبعوهم حتى أحلوههم ، أو أضعفهم ، فجاءت فلول منهم وانضموا الى المغيرين على المسلمين في الأندلس *

فكانت حربهم صليبية ، تتعاون على المسلمين ، والمسلمون متفردون ليس لهم غرض مقصود ، ولا جامعة تجمعهم ، بل تفرقوا أيدي سبأ ، فرقههم الهوى ابتداء ثم مزقههم الضعف انتهاء ، لأنه لا وحدة توحد لهم الغاية والمقصد ، أعداؤهم قد توحدت غايتهم *

لقد أرسل المسلمون بالأندلس يستغيثون بمن يظنون فيهم القدرة على النجدة فلم يجدوا الا المماليك في مصر ، مع بعد الشقة ، وعظم المشقة في الاغاثة ، فأرسل حكام المماليك الى الترك العثمانيين الذين يمثلون القوة الاسلامية الكبرى ، أرسلوا اليهم يستحثونهم على معاونة اخوانهم المسلمين لينقذوهم وهم يعذبون وتفتش وتفتت محاكم التفتيش قلوبهم *

ومن الغريب أن المسلمين كان يحدث لهم ذلك كله ، وجيوش سايمان القانوني تلك أسوار فينا دكا ، وما كان كل ذلك الا أن الوحدة الاسلامية تفرقت بعد اجتماع ، وصار حب الغلب هو المسيطر ، وليس الرغبة في اعزاز الاسلام والمسلمين ، والرغبة في اعلاء كلمة الدين ، ونسى الجميع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يسلمه ولا يخذله ،

والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » ، فاستنصر المسلم في الكريهة
والشديدة فلم ينصروه لأنه لا وحدة للمسلمين •

موت اللغة العربية :

١١٤ — لا نقصد بموت اللغة العربية ضياعها ، ولكن نقصد بذلك أن
اللغات الأعجمية من الفارسية والتركية والرومية وغيرها من اللغات التي كانت
قد طوتها اللغة العربية في ظلها ابان علو شأن المسلمين ، والاسلام ، واعتبار
القرآن الجامع بينهم ، ولو تنزلنا وقلنا كما يجمع الصليب النصارى ، والتلمود
اليهود ، لكان كلامنا موضع ظن في القول ، ولكن نعوذ بالله من هذا التشبيه
الذي يخطر بالبال ، فالقرآن أعلى لأنه حق وغيره باطل ، ولا يشبهه الحق
بالباطل •

لقد كانت اللغة العربية هي الجامعة بين الشعوب الاسلامية تجمعهم ديناً ،
لأنها وعاء الاسلام ، اذ هي لغة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبها نزل القرآن ،
ومن المفروض أن يعرف المسلم من اللغة العربية قدراً يصحح به دينه •

وهي لغة التفاهم بين المسلمين ، وبها يتعارفون ، ويتلاقون ، ويجتمعون ،
وقد كان لعلماء الفرس وغيرهم المقام في العلوم الاسلامية التي دونوها
باللغة العربية •

ولما تفرق الحكم الاسلامي ، واضطرب بسيطرة أهواء الملوك والحاكمين
وسيطرة قانون الغلب بدل قانون الاسلام ، ولما صارت الأمور كذلك ، كانت
اللغة العربية ، وكان المسلم يسير بين المسلمين ، لا يجد فيهم مجاهل لأنه يعرف
خطابهم ، وتجمعه بهم لغة القرآن •

ولما اذا ضعفت اللغة ضعفاً يصح أن يعبر عنه بالموت ، وان الموت لا يمكن
تحقيقه ؟ لأنها لغة القرآن ، وما بقى القرآن فهي باقية ، وانها اذا اعتراها
عارض الفناء جدها القرآن وأعادها ، ان لم يكن كما ابتدأت فان المحاولة
نجددها ، وتمدها بعناصر العلم •

ونجيب عن هذا السؤال الحائر ، وهو : لماذا ضعفت العربية أو أوشكت أن تموت .

ونقول في الجواب انه سنة الوجود تجعل اللغة كائنا حيا ككل الأحياء وحياة الحي تتبع المكان والبيئة التي يعيش فيها ، فان كانت تمده بالغذاء القوى قوى ، وان ضعفت ضعف ، فكان ضعف العرب في وسط ذلك الخضم الذى كان العصر العباسى وما حوله مؤديا الى ضعف اللغة ، والناس انما يحاولون تقليد الأقوياء في لغتهم ، فينطقون كما ينطق القوى ، فان كان فصيح انسان قلده ، وان كان ملتوى البيان حاكوه ، وانا لنرى ذلك يجرى بين أيدينا ، فلما ضعف العرب ضعفت معهم لغتهم ، ولولا القرآن لانت ولكنه باق فبقيت « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

وضعف العربية كان له مظهران ، ولكل مظهر سبب قائم بذاته ، أولهما ، سيادة العامية . وثانيهما : احياء اللغات القومية لغير العرب لزعزعة الشعوبية .

العامية :

١١٥ — ابتداء الذين يتكلمون العربية من كبار المتكلمين يلحنون ، فلا ينطقون بالفصحى سليمة من الخطأ في أواخر الكلمات أو بنيتها وقد لوحظ ذلك في العصر الأموى ، بل في آخر عصر الراشدين . حتى أن اللحن ترتب عليه أمران أحدهما خير ، وهو ضبط العربية بعلم النحو الذى يكون مقياسا لضبط آخر الكلمات ، والآخر الذى يضبط بنيتها .

ولقد كان اللحن من الخطباء غير كثير في عهد الأمويين ، ولكنه أخذ يكثر ويزيد في عهد العباسيين ، حتى لقد روى أبو عمرو الشيبانى قال : « تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابى فلحن فصر^(١) الأعرابى أذنبه فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى فقال الأعرابى : أف لهذا ما هذا . ثم تكلم المنصور ، فلحن الثالثة ، فقال الأعرابى : أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر » .

(١) معنى صرهما صرفها للاستماع .

وعن الواقدي: « صلى رجل من آل الزبير خلف المنصور ، وقرأ « الهاكم المتكاثر » فاحن في موضعين ، فلما ختم التفت الزبيرى الى من بجانبه ، وقال : ما كان أهون هذا القرشى على أهله » (١) .

وأخذ اللحن يفتشو ، حتى أخذ الناس يتحللون من الفصحى الى العامية ، حتى لا يتعرضوا لتخطئة النحاة ، ومن لف لفهم ، كما ترى فى الخطبة بالعامية ، فى مواطن الفصحى ، وهبوط البيان العربى .

وان فشو العامية لهذا السبب ، ولدخول الأعاجم الذين كانت تلتوى أنسنتهم بالفصحى فلا تحسنها ، فلما كثر اختلاط العرب بالأعاجم ازداد فشو العامية وكانت البلاد العربية تدخلها العجمة ، واكن بجوارها الفصحى ، أما فارس ، وخوارزم ، وخراسان وغيرها من بلاد الأعاجم فان العربية كانت العامية ، وبجوارها كانت لغتهم السائدة المسيطرة .

الشعبوية واحياء اللغات القديمة :

١١٦ — استيقظت الشعبوية قوية لجة ، وهى التى تفضل الأعاجم على العرب ، وقويت فى العصر العباسى الثانى الذى صار للحكم فيه لغير العرب وان كانت بذورها قد وجدت فى العصر الأموى ، ولكن لم تظهر نباتا قد خرج نبتة ثم أخرج شطاه الا فى العصر العباسى الأول ثم استنوى على سوقه بعد ذلك فى العصر العباسى الثانى فى الدول التابعة للخلافة العباسية التى استبدت بالملك والسلطان ، فكان جزءا من سياستها أن تضعف شأن العرب وأن تعلى العنصر الديلمى ، ثم العناصر الأخرى غير العرب ، وما كانت السنة الأكرمين منهم تطوع للعربية ، وتطوع لها لغتهم الأصلية .

وكانت اللغة العربية القريية من الفصحى حيث لا تكون حضارة تسيرها المعجمة . وكان البدو من العرب والقرييون منهم يتشددون فى العربية ، وكانوا حريصين على ألا يساكنوا الأعاجم ، حتى لا يؤثروا فى لغتهم بالعدوى .

(١) كتاب المرحوم الأستاذ نجاشى رحمه الله لطلبة دار العلوم .

ويقول الفيروز آبادى صاحب القاموس المحيط فى مادة عكد ان عكاد جبل
باليمن قرب مدينة زبيد ، وأهله باقون على اللغة الفصيحة . وقد زاد شارحه
مريتضى الزبيدى : ولا يقيم الغريب فى بلادهم أكثر من ثلاث ليال خوفا على
لسانهم . ولسان البدو النازلين فى الجنوب من شبه الجزيرة العربية لا يزال
انى اليوم قريبا من الفصيح ، ويشبهه فى بعض الوجوه (١) وان ذلك التشدد
فى العربية فى مقابل النزعة الشعوبية التى بدأت تدعو الى غير العربية حثدا
وعجزا ومهما يكن من الشعوبية فان سيل العامية لم يوقف .

ولما قبض آل بويه على الحكم طغى سيل العامية فى العراق العربى ونزحت
العناصر العربية عنها ، هروبا من الطغيان الأعجمى ، ومن بقى فى العراق اندمج
فى الأعاجم بالتزاوج وكل ذلك زاد العامية انتشارا ، والفصحى أفولا .

أما فى غير البلاد العربية فان حظ العربية حتى العامية أخذ ينقص ، وكلما
انقبضت العربية ولو علمية انبسطت امة الأقاليم وسيطرت ، واستيقظت من
...باتها وقامت من مرقدتها .

وقد نمت تلك الحال سريعا ، فما أن امتد نفوذ بنى بويه فى الأقاليم
الشرقية حتى نشطت اللغات الأخرى واستردت حياتها ، وطوردت اللغة العربية
من بلاد سكنتها وازدهرت فيها حتى صارت بلادها .

وهاهو ذا المتنبى فى القرن الرابع الهجرى خرج قاصدا فارس ، فما كاد
ينادر بغداد ويدخل أرض فارس حتى هاله الأمر ، فلم يجد لسانا عربيا يخاطبه
بل وجد لسانا أعجميا ، وقد قال فى وصف الحال عند شعب بوان :

مغانى الشعب طيبا فى المعانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان (٢)

(١) تاريخ الادب العربى فى العصر العباسى ص ٣٩ للأستاذ المرحوم نجاشى .
(٢) الكتاب المذكور .

ولم يكن للعربية الفصحى نصيب الا في بعض المكاتبات والمرسائل تكون بين بغداد وغيرها من البلدان وكان أولئك الملوك من الأعاجم يحرصون على تشجيع الكتّاب بالعربية في الأدب وان لم يكن مترسلا بل كان السجع يسوده ولذلك كان من بين هؤلاء الأعاجم من الأدباء من زخر بهم علم الأدب ، مثل مقامات الخوارزمي ومقامات بديع الزمان الهمذاني فكانت اللغة العربية وعاء الأدب في الجملة •

ولكن بجوار ذلك وجد من كان يتعصب للفارسية في الأدب ، فشجع الذين يسجلون أدبهم باللغة الفارسية ، ومن هؤلاء ، أو من أولهم السلطان محمود ابن سبكتكين الغزنوي الذي كان له نفوذ وسلطان ، فقد شجع الفردوسي على أن يكتب الشاهنامه بالفارسية ، وعلى أوزان الشعر العربي •

وان الفرس من أيام بنى بويه ومن شابههم أخذوا يهجرون العربية ليحيوا لغتهم ، ومنهم من جهل العربية جهلا تاما ، ومنهم من كان يعرف اللغتين ، ولكن خطابه ومعاملاته بلغته ، لأنها اللغة التي عادت الى الشعب ، بعد افتراق عنه ، وان كان الى خير منها ، وهي لغة القرآن •

وكانت اللغة التركية تجد لها حياة وقوة في وسط المعترك اللغوي بين العربية والفارسية ، وصارت لسان الترك حتى اذا آلت الخلافة الاسمية الى آل عثمان رفعوا التركية ، وفرضوها على كل الأقاليم الاسلامية الخاضعة ، ثم كان أن انسلخت من العربية حتى في الشكل والكتابة ولا حول ولا قوة الا بالله •

خلاصة ونتيجة :

١١٧ — اننا الآن مفترقون ، بل بيننا تناجر وتنازع في بعض نواحيها • وأن ذلك داء اعترانا بعد أن لم يكن ، وعارض عرض على أصل كياننا ، ورأينا قدقدسانتنا كيف تتهدم بأيدي أعداء الله وأعداء الحق ، وأعداء الاسلام • ووجدنا من لحن أقوالهم ومراميتهم أنهم يرومون البيت الحرام ، وروضة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال قائلهم بعد أن استولوا على ايلياء والمسجد الأقصى :

لقد صار الطريق الى مكة والمدينة مفتوحا ، وهم متفقدون على باطلهم ، ونحن متفقدون متنازعون على حقنا .

داء لايد من أن نعالجه ، ولكي نعالجه لايد من معرفة الكيان الأصيل للوحدة الاسلامية الذي اعتراه الداء ، ولايد أن نعرف كيف دخل الداء . ولايد أن نعرف حقيقته وذاته ، فليس الطبيب الماهر هو الذي يستطيع أن يكتب الدواء انما الطبيب النطاسى هو الذي يستطيع أن يكشف الداء ، وقوة البناء الجسمى ، وأصل تكوينه ، وأبعاده ، وما أثر فيه فى الماضى ، وما يؤثر فيه فى الحاضر .

ولذلك اتجهنا الى أصل تكوين الوحدة الاسلامية . فذكرنا تكوين النبى صلى الله عليه وسلم . وكيف آلف الله تعالى قلوب المؤمنين . وكيف حولهم من عداوة على شفا حفرة من النار . الى وحدة تجمعها المحبة ، وتقربهم من نعيم الجنة ، وعز الدنيا والغلب العادل ، والفتح المبين .

ثم ذكرنا كيف استمرت هذه الوحدة بعد أن انتقل الاسلام بالعرب فجعلهم يندمجون فى غيرهم من الأمم . وكيف صار شكل الوحدة فى عهد الراشدين رضوان الله تعالى عنهم ، وكيف كانت المساواة تجمع والعدالة تقوى الوحدة ، وكيف كانت الأمة كلها عربا وعجما كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وكيف زالت الحجزات بين الأقاليم الاسلامية التى كانت تدين بالقرآن ، وحكم الله الذى كان الخلفاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولين لا ينطقون الا به ، ولا يصدرون الا عن كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وخيرات البلاد الاسلامية يفيض بعضها على بعض ، لا يحتكر اقليم على اقليم ، ولا ييضم قوم بفيض خيرهم على الآخرين ، والتعارف يربطهم ، والمساواة العادلة تجمعهم ، والتعاون على البر والتقوى قوتهم التى يدرعون بها أمام أعدائهم ، وبه يهاجمون الشر فى مواضعه ، وتحقق فيهم قول الله

تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » •

ومن تكوين الوحدة وقيامها علمنا كيف يمكن اعادتها ، وكيف يستطيع
الحكيم المصلح أن يعيد الجمع المتفرق الى وحدته والنفور المستحكم الى
الاتلاف •

وقد صورنا كيف أخذ سوس الفرقة يتغلغل في الأمة الاسلامية ، وكيف
حلت الاقليمية محل الوحدة الاسلامية ، ولم تستطع أن تعيش معها ، والعدل
يرجب أن يأتلغا ، الآن الوطنية يوجب الاسلام فيها ألا يعتدى الوطنى على
غيره ، فان ذلك هو العصبية المقيتة وقد روينا في ذلك قول النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم : « ان العصبية أن يعين قوم على الظلم » وبيننا أن عناية كل وطنى
ببطنه فى ظل الاسلام ، والجمع الاسلامى يجعل من الأوطان القوية المتحددة
قوة للجماعة الاسلامية ، اذا كانت الهبة لنصرة الاسلام واستجابت كل
الأوطان القوية •

ولقد ذكرنا التفرق وكيف دخل شيئا فشيئا الى الجماعات الاسلامية ،
حتى نسى الناس الاسلام الجامع ، ولم يذكروا الا الوطنية الجامعة المفرقة •

واننا بعد أن سرنا فى تلك الرحلة الشاقة رحلة التفرق والانقسام فابتدأنا
من وحدة جامعة فى عهد الراشدين ثم سارت فى الدانية فى العصر الأموى ، ثم
وجدنا أجزاء الجسم يتساقط بعضها عضوا عضوا ، ثم صارت أشلاء متفرقة
وأخذت الذئاب تنوشها ثلوا ثلوا ، ثم أخذت تفترسها جميعا ، حتى انتهى
الامر فلم نجد جمعا متلاقيا ، بل وجدنا أجزاء تنوشها ذئاب الغرب بل الشرق
أيضا •

وما جاء القرن الرابع عشر الهجرى الموافق له المتمم للعشرين الميلادى .
ولا يوجد اقليم اسلامى مستقل ، أو غير خاضع لنفوذ دولة أخرى غربية
لا ترجو للاسلام وقارا ، بل انها هليبية فى ثوب جديد من الصليبية : حتى أن
ملك الانجليز عندما قابل المنتصر فى فلسطين قال له : لقد انتصرت فى آخر حرب

سليبية . والقائد الفرنسى فى الشام زار قبر صلاح الدين الأيوبى وقال
ها نحن أولاء وقد عدنا يا صلاح الدين •

١١٨ - والآن نلخص أسباب التفرق ، بل التجزؤ والسير فى طريق الفناء ،
كما رأينا فى سير التاريخ الذى سقناه فيما يلى :

أولها : وهو أعظمها أثرا ، فساد الحكم عند الحكام ، وصيرورته ملكية
نتغالب مع غيرها ، وتطبيق قانون الغلبة على المسلمين بعضهم مع بعض فلم يفرق
الحكام بين حكم نبوى يستمد أسوله من الاسلام ، وحكم الغلب والقهر •

وان فساد الحكم نجم من ثلاثة عناصر مخالفة كل المخالفة الأحكام القرآن
وسنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

(أ) اعمال الشورى عند تعيين الحاكم ، وفى حكمه ، فان الله تعالى يقول
« وأمرهم شورى بينهم » وان ذلك يقتضى ألا يختار الحاكم الا بشورى
المؤمنين وأن تكون بعد الشورى حرية المبايعه ، وأن يوفى الحاكم بحق البيعة
ويوفى المحكوم بحقها ، وحقها من الحاكم العدل وألا يهلك الحرث والنسل وأن
يعمل ما فيه خير المسلمين ، وأن يستشير حتما أهل الرأى والخبرة ، على حسب
النظام الذى يناسب الزمان ، وحقها على المحكوم الطاعة فى غير معصية الله
تعالى ، أو كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنشط والمكره
الا أن يؤمر بمعصية . ومن حق المبايعه النصيحة الأولى الأمر ان اشتطوا
أو جاروا ، وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولقد قال صلى الله
عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ،
ولتأطرنه على الحق أطرا • أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض ثم
تدعون فلا يستجاب لكم » •

(ب) ومن عناصر الفساد جعل الحكم وراثيا - يتلقاه الخلف عن
السلف ، كأن الشعوب مادة تورث ، وأن الحكم حق ينتقل من مالك الى مالك ،
وما نظر الاسلام الى الشعوب هذه النظرة ، وقد وصف الرسول هذا النوع

من الحكم بأنه ملك عضوض ، وأنه ترتب على جعل الحكم وراثيا أن تولاه
غلمان لا يدركون ، ويتلعب بهم •

وقد نتج من اهمال الشورى ، وصيرورة الحكم استبداديا في اقامته .
وفي نظامه اهمال رأى الجماعة الاسلامية اهمالا تاما ، فانقطع الاتصال بين
الحاكم والمحكوم ، وطغى الحاكم وذل المحكوم •

ومن فساد الحكم اهمال الأحكام الاسلامية ، فنتشيع المحاباة ، وتباح
الدماء ويهمل القصاص ، وتهمل الحدود التي أمر الله تعالى باقامتها ، واقامتها
فريضة محكمة لا مناص من اتباعها والقيام بحقها •

(ج) ومن فساد الحكم المغالبة التي كانت بين حكام الأقاليم بحيث ينظر
حاكم كل اقليم الى الآخر نظرا المتربص الذي يريد الفتك بصاحبه ، فان لم
يسبقه سبقه ، والسابق والمسبوق في النار •

(د) وشر مظهر من مظاهر الفساد في الحكم الاسلامي أن يستعان بغير
المسلم على المسلم ، كما استعان الفاطميون على الأيوبيين بالصلبيين ، وكما
استعان ابن العلقمي بالنتتر على من سمى خليفة المسلمين ، وكما روى من أن
أول من فتح أعين النتتر على المؤمنين ، وال ناقم أو ملك غاشم •

ومن ذلك النوع مما لآة الحاكم المسلم مع غير المسلم ضد بعض المسلمين ،
وقد كان ذلك في الماضي ، فكان الملك الأموي يمالئ الروم في القسطنطينية ،
وهو على عداوة مع العباسيين ، فكان هؤلاء يذهبون الى الأندلس ويهادونهم
وأولئك يكرمون وفادتهم ، وكان العباسيون يمالئون شارلمان وغيره من الفرنجة
الذين يساورون الأندلسيين ويحاولون أن يخرجوهم من ديارهم •

ومن هذا النوع سكوت الحاكم المسلم القوي عن معاونة من يستغيث من
ضعفاء المسلمين ، كما فعل العثمانيون مع أهل الأندلس ، وهم يستغيثون
ولا مغيث وتركهم سليم الأول وسليمان القانوني حتى شردوا ، ومزقوا كل
ممزق ، وذهبت دولة الأندلس ، غصن الاسلام الرطيب •

الطائفية :

١١٩ - والسبب الثانى من الأسباب التى فرقت المسلمين الطائفية : وكانت الطائفية أول طريق اتجه بالمسلمين الى الفرقة والانقسام * ولكن المعول الأول رد على صاحبه ، وذلك لأن الجدار الإسلامى كان قويا ، يحطم من حاول أن يحطمه ، ولكن الأثر امتد لما بعده * .

فالطائفية ظهرت فى أسباب مقتل الشهيد ذى النورين عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وقد رأيت مما سقنا كيف ترتب عليها أنه نادى بالأمر من ليس أهلا له متمسحا بدم عثمان رضى الله عنه ، وكيف انقلب بعد ذلك أمر الحكم الإسلامى من خلافة نبوية الى ملك عضوض متوارث * .

ولقد كانت الطائفية سببا فى الفتن أو الثورات المتوالية على بنى أمية أولا ثم بنى العباس ثانيا ، ونحن لا نقول ان الذين ثاروا على الحكم الأموى كانوا أقل فضلا من ملوك بنى أمية ، فما كان زيد بن على أستاذ أبى حنيفة أقل فضلا من هشام بن عبد الملك ، وكذلك ما كان محمد النفس الزكية ولا أخوه ابراهيم أقل فضلا من أبى جعفر المنصور ، ولكن مهما تكن أسباب الخروج عادلة فى ذاتها، فان الخروج ، وفشله يؤدى الى أمرين لا محالة * .

أحدهما - توهين شأن الوحدة ، وبلبلة أفكار المسلمين نحو حكامهم ومن غير نتيجة * .

ثانيهما - ان الخروج وان أضعف الثقة فى الحكام يزيد الحكام عنفا ويزيد الشعب ضعفا وما ذلك من المصلحة فى شىء * .

وقد ترتب على الطائفية أن انقسمت الحكومة الإسلامية الى حكومات متفرقة * فكان الأدارسة بالمغرب ثم الفاطمية بالمغرب ومصر والشام ، وأخذت تنقص الأرض من أطرافها على العباسيين ، وكل ذلك على حساب الوحدة الإسلامية * .

وكان من آثار الطائفية أن قامت دولة الفاصر الأطروش بالديلم والجيل ،
وقامت دولة الهادي ومن بعده باليمن ، وتوارث ذلك بنوه من بعده .

ولا ننظر أي هؤلاء أعدل ، وأقوم للحق والقسطاس ، ولكنها فرقة على
أي صورة كانت . ومن التفريق يدخل الضعف ، وتذهب قوة الجمع . ويكون
أمر المسلمين من بعد فوضى لا رابطة تربطهم .

وانه في وسط النورات الطائفية، أو الانقسام بسبب الطائفية وجدت النحل
المفاسدة سبيلها للدخول في جماعات المسلمين هادمين ، مشيرين فتنة القبول
والاعتقاد ، كما كان الأمر في القرامطة وغيرهم من الفئات التي تسهل دخول
الانحلال الديني إلى القلوب ، فضلا عن الفرقة والانقسام وجعل بأس
المسلمين بينهم شديدا ، وقد أخذهم الأعداء الذين كانوا يتربصون بهم من
كل جانب .

وقد ذكرنا في صلب البحث أثر الطائفية في حرب التتر وزوال الدولة
العباسية وفي حرب الصليبيين ، ولم يكن أثر الطائفية مقصورا على ما ذكرنا
هنا ، وما ذكرناه من قبل ، بل كان لها أثر أشد وأفضل وأقوى تأثيرا . وربما
كان تفرق الحكام أثرا من آثاره ، وذلك في أمرين :

أحدهما : الافتراق النفسى ، فقد كانت كل طائفة تحسب نفسها مسلمين
منفصلين عن الآخرين ، وكل فرقة تحسب أن أتباعها وحدهم المسلمون ، ولقد
وجدنا في بعض كتب الشيعة أنهم لا يعدون غيرهم من المسلمين مؤمنين ، وان
كانوا يعدونهم من أهل القبلة ، ووجدنا أن الشيعة لا يقبلون شهادة واحد من
السنة ولو كان في ذاته عدلا مستقيما السيرة ، ويقبلون شهادة الشيعى ، ويردون
بها شهادة السنى ، ولو كان الشيعى فاسقا في ذاته ، ولا نريد أن نقول أن
ذاك حق أم باطل ، ولكن أن نقول أنه فرقة في النفوس وقد أدى في الماضى الى
أن يكون لكل دور ، ويؤدى في الحاضر الى الضرر الدائم المستمر ، اللهم ألف
القلوب في الحاضر ، كما ألفتها في الماضى ، اللهم انك رؤوف بعبادك ، فلا تمكن
ذئاب الأرض منهم قليلا ، كما تمكنا سابقا .

الأمر الثانى : اختلاف الأحكام المطبقة ، فالشيعة لهم اجتهاد فقهي ، والسنينيون لهم اجتهاد فقهي وان ذلك لا خطر فيه فى ذاته ، ولكن له أثر فى الفرقة والانقسام فى داخل الدولة الواحدة ، وقد كان المستعمرون يوسعون التوتة بين الشيعة والسنة فى كل بلد يحكمونه ، ونريد ألا يكون هذا الباب مفتوحا يلج الشر منه دائما ، ولا نريد أن نمحو منه الاختلاف المذهبى فهو ميراث يكون تركة مثرية من الفكر الاسلامى ، ويجب احياؤه فى الدراسة ، وتحقيقه فى العمل . والله بكل شىء حفيظ *

احياء اللغات القومية :

١٢٠ — ذكرنا كيف ماتت اللغة العربية فى الأقاليم الاسلامية غير العربية فى المشرق ، ولكنها استمرت باقية فى العراق والشام ، ومصر ، وشمال أفريقيا على عجمية دخلت فيها ، ولكنها على أى حال استمرت باقية * وان حاول المستعمرون فى العصر الحديث أن يزيلوها * فالجزائر قد حوربت فيها اللغة العربية ، حاربها الفرنسيون اذ استولوا عليها أما غير قصير ، وحاربوها فى المغرب *

ولكنها استيقظت فى كل بلد حوربت فيه ، وأخذت تنهض من الكبوة التى أسقطوها فيها ، وانها سائرة بعون الله تعالى نامية قائمة ، وصارت عربية بالتعرب بعون الله تعالى ، أما المشرق وبلاد العثمانيين فقد زالت فيها اللغة العربية زوالا كاملا ، ولم تعد لغة التخاطب ، ولا لغة الدولة ، وان كانت مستمرة بين كثيرين من العلماء الذين عتوا بدراسة القرآن ، أو الدراسات الاسلامية بشكل عام ، فباكستان غلبت فيها الأردنية ، والأفغان ويران سادتها الفارسية ، والعثمانيون وبلاد الأتراك سادتها التركية ، والمسلمون فى الهند والصين يتكلمون بلغاتهم ، ولا يعرفون من العربية الا ما يصححون به صلاتهم من حفظ الفاتحة وخطبة الجمعة فى تلك البلاد الشرقية ما عدا تركيا وأندونيسيا وفيها نحو مائة مليون مسلم أو يزيدون عن ذلك كثيرا أو قليلا ، وهم كذلك يتخاطبون بلغتهم ولا يتخاطبون بلغة القرآن *

ومسلمو الشرق الذين لا يتخاطبون بلغة القرآن يبلغون نحو ستمائة

مليون أو يزيدون ، ولا يجمعهم بالمسلمين الا اسم الاسلام ، وان جهل اللغة العربية في تلك الأقاليم جعل أطراف البلاد لا يعرفون أحكام الاسلام في الأسرة والمعاملات المالية ، بل العقيدة ذاتها ، يؤمنون بالله على حرف أو انحراف ، ولا يتصلون بالعلم الاسلامى الذى يرفع درجاتهم الفكرية والنفسية .

وانه في أطراف أندونيسيا ، يتزوج المسلمة البوذى والمسيحى ، وغيرهما ، ولا تعرف أن ذلك محرم عليها ، ويتزوج المسلم الوثنية ، ولا يعرف أن ذلك حرام عليه لأنه لم يقرأ قوله تعالى « ولا تتكحوا المشركت حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تتكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النار ، والله يدعو الى الجنة والمفخرة بإذنه » ولم يجدوا من يصلحهم بالثقافة الاسلامية ، ولا يصل اليهم العلم الاسلامى الا بلغاتهم التى تنقصها الثقافة القرآنية والنبوية ، وانه من المناظر التى تؤذى الحس أنه في بيت الله الحرام حيث يجتمع المسلمون للتعارف في ضيافة الرحمن ، وحيث مهبط الوحي ومنزل النبوة . نجد المسلمين لا يستطيع بعضهم أن يخاطب الآخرين ، الا باللغة الانجليزية لغة من حكموا بخير الحق أرضهم ، وحاربوا في خفية الأمر دينهم الذى ارتضوه ، وكذلك الذين استعمرهم الفرنسيين يتكلمون بلغة الفرنسيين ، وليس فيهم من تذهب همته الى أن يحج بيت الله الحرام ، وهو يعلم العربية ليستطيع مخاطبة أهله .

واننا نجد في المؤتمرات الاسلامية لا رواج للغة العربية الا بين العرب ، ونجد سكان أفريقيا وآسيا من المسلمين يتكلمون الانجليزية والفرنسية .

وان المؤتمرات التى هى مظهر الوحدة نجدها مظهر التفرق ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

كيف تكون الوحدة الآن

١٢١ - ان التفرق والتناذب هو الظاهرة القائمة الآن ، وقد كان للمسلمين عذر من قبل لأنه كانت كل البلاد الاسلامية ، ان استثنينا دولة آل عثمان تحت السيطرة الأجنبية * فمصر والهند ، وكان المسلمون نحو مائة وعشرين مليون مسلم بهما ، تحت سلطان الدولة الانجليزية ، وشمال أفريقيا ، وكل البلاد الاسلامية بها كانت خاضعة لفرنسا وانجلترا .

ولما خرجت الشامات والعراق من سلطان العثمانيين تلقفتها فرنسا وانجلترا وكان العراق من نصيب الانجليز خاصة ، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أخذت الدول الاسلامية تتحرر من الاستعمار الصليبي بجهاد شعوبها ودماء أهلها ، حتى تسلم الأمر حكام منها ، فصارت الباكستان دولة مبنية ، وهي تضم الآن نحو مائة مليون مسلم . وأندونيسيا مثلها أو أكثر ، وأفغانستان وإيران ، كلها بلاد اسلامية تحررت من النير الأجنبي الفعلي ، وتحررت مصر وشمال أفريقية ، والبلاد الاسلامية التي كانت تحت الحكم الانجليزي أو الفرنسي أو الهاسيكي .

وهكذا رفع الأجنبي يده ، أو ردت يده مغلوله .

ولكن الأجنبي الغريب ربي ناسا من أهل البلاد ، كان يقربهم اليه ، ويدنيهم ، وقد آل أمر الحكم في هذه البلاد الى أولئك الذين كان قد اصطفاهم أعداء الاسلام ، وأولئك يؤمنون بمن اختاروهم ولذلك كانوا على ولاء مع أولئك .

وصار المسلمون اليوم تتفرق حكوماتهم فمنهم من يوالون الغرب في انجلترا وأمريكا ، ويرثمون فيهم ، ويجعلون لهم نفوسا بغير الجيوش التي تتجوب الديار ، ولكن بالاتجاه الفكري ، والمعونات المالية والعسكرية على أساس ألا يعملوا فيها الا ما يريده الذين أعطوهم . ومن هؤلاء من يوالون الشرق ، ويستمدون منهم المال والسلاح ، ويتكلمون بنعمتهم ، ويجعلون أنفسهم لهم تبعاً ، ومنهم يتوسطون فيميلون لهذا تارة ، وللآخر أخرى . وبذلك اختار حكام

المسلمين التبعية فلم تفرض عليهم ، والمتبوع دائما لا يشجع الاسلام بل لا يريد أن يكون تابعه للاسلام خالصا .

والمشعوب ليست وراء الحكام ، بل هم منفصلون عنهم شعورا وایمانا ، ورغبة في الوحدة والاتحاد بين المسلمين والاندماج في وحدة اسلامية جامعة .

أول طريق :

١٢٢ — وأول الطريق أن ننزع من نير الأجنبي ، فلا يقال عن حاكم أنه ينزع منزعا غربيا وأنه ذو الحضوة عند أمريكا ، أو انجلترا ، أو غيرها ، بل تكون نزعته اسلامية خالصة . ولا يقال عن حاكم آخر أنه ينزع نحو الشرق وهو الذى يوجه سياسته وهو منسبه بمنزلة التابع من المتبوع ، ولكن نريده اسلاميا ، ولسنا نريد أن نقطع العلاقات بين أى حاكم ، وأى أجنبي ، بل نريد أن يكون الحاكم أيا كان لونه رئيسا أو ملكا ، أن تكون كلمة الاسلام هي العليا ، وأن تكون العلاقات كلها دون العلاقة الاسلامية بحيث تكون هي الرابطة الأولى ، اليها تتجه النفوس وتتحرك الغايات .

ويكون الاسلام هو المستغرق للنفس المستولى عليها الذى لا تعرف سلطانا لغيره ، مهما يكن سلطان القوى ، ولكن حكام المسلمين لا يزالون في غيرة من أمر الذين أذاقوا البلاد الاسلامية الوبال ، مع أن نيات العداء لا تزال واضحة لنعيان ، فقد عملوا في الحاضر ما لم يعملوا في الماضي .

لقد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم في بقعة من أرض السلام (فلسطين) ومزقوا أهلها كل ممزق ، وتركوهم يأكلهم العرى والجوع ، فلا مأوى يؤويهم ، ولا أرض يستقرون بها . ولقد يكون ذلك كالمبضع يقطع في جسم حي قد ذهب عنه المخدر ، أو كالكسكين تقطع في جسم حي ليحس بالألم فتكون له ارادة ، ولكن لم يتحرك المسلمون لذلك ، وتركوا الأمر للعرب وحدهم ، وكانهم ليسوا مسلمين ، والعرب أنفسهم تدابروا فمنهم من له هوى مع أمريكا الثنى كان ذلك القطع تحت سمعها وبصرها ، وأيدت المفسدين من اليهود ولا تزال تؤيدهم

وتطغيهم ، ومن العرب الذين يزعمون أنفسهم ينتمون للنبي صلى الله عليه وسلم
من يوالون اليهود باطنا ويوالون الأمريكان ظاهرا أو باطنا *

اتنا الآن تحررنا من نير الأجنبي الذي يعادينا ، وسلمنا أمورنا الأولياء منا
ولكنهم لم تكن أعمالهم للإسلام خالصة كلها ولم يعملوا للوحدة كاملة مع أننا
في عصر التجمع الذي تتجمع فيه الدول المتفرقة تحت حلف ، أو أمر جامع أيا كان
سبب ذلك الجمع ، وان الاقليم الذي يدخل في كتلة لا نكاد نرى له وجودا
بينهم ، ولكن الأقاليم الاسلامية تنفرد فيما بينها ، ويحاول بعضها أن يدخل
في حلف من أحلافهم فيكون كالوانغل بين شرب يتبرمون به ، ولا يعطونه
مما يشربون *

ان روح العصر توجب على المسلمين أن يتجمعوا في وحدة حول كتاب الله
تعالى وسنة رسول الله ، الآن الله تعالى يناديهم من وراء الخلود في قوله
تعالى كما تلونا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم
مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم
اذ كنتم أعداء فآلف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » *

انه لا بد أن نجتمع بعد طول الافتراق ، لأن الأمة الاسلامية تقوم فيها
الروابط على وحدة الدين والعقيدة ، ووحدة المبادئ الخلقية الفاضلة ، والنظم
الاجتماعية العادلة والعبادات الجامعة ، وفي كل يوم يمر يشعر المسلم بالوحدة ،
ان أدى العبادات على وجهها ، فنتك الوحدة في قلبه أثناء الليل وأطراف النهار ،
فانه في الصلوات الخمس يتجه الى الكعبة المكرمة قبلة المسلمين أجمعين ، فاذا
كان وهو يؤدي الصلوات يشعر أنه واحد من ألوف الملايين الذين يتجهون الى
هذه القبلة ، فيشعر بأن قلبه مرتبط بالله رب العالمين رب الخلق أجمعين ،
ومرتبط بالمسلمين في بقاع الأرض بهذه القبلة التي توحد قلوبهم ومشاعرهم ،
وإذا كان ذلك الارتباط بالمكان في الصلاة فهناك ارتباط بالزمان في شعيرة
أخرى من شعائر الاسلام وهي الصوم ، فانه اذا جاء رمضان ، ورؤى هلاله في

مكان ألزم به جماعة المسلمين في كل بقاع الأرض فيكون ذلك اشعاراً لهم بأنهم أمة الله تعالى دعاهم الى الوحدة فيها ، كما أوجب العقل والشرع وحدانية الله تعالى ، فالصوم يوحد المسلمين باتحاد زمان العبادة ، كما أن الصلاة توحدهم بهكان الاتجاه فيها ، وفي الحج تلتقى جماعات من كل اقليم اسلامي في بيت الله الحرام ، في ضيافة الله سبحانه وتعالى ، ويتعارفون فيعرف كل اقليم آلام الآخرين وآمالهم ، ويتصل باحاساسهم ومشاعرهم ، ويعرف ما يحتاج اليه كل اقليم ، وما يفيض من خيراته ، ليمد به الآخرين ، وبذلك تتحقق في الحج أمور ثلاثة هي من رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أولها — اتجاههم موحدين متحدين لربهم واقامة نسكه ، وتذكر أبي الأنبياء ابراهيم ، والقيام بالناسك وأداء العبادة الجماعية والاجتماعية والروحانية وتعرف مهابط الوحي ، ومنازل الرسالة •

ثانيها — التعارف الانساني ، وقوة التآخي ، والشعور بأن المسلمين جسم واحد •

ثالثها — التعاون في دفع الضر ، وجلب الخير ، والتعاون في الكسب الطيب ، والتعاون في أخذ خيرات الأرض بحيث يأخذ كل اقليم مما عند الآخرين ، وقد وجه الله سبحانه وتعالى الحجاج الى ذلك بجوار أداء النسك ، فقال تعالى : « ليس عليكم جناح أن نبتغوا فضلاً من ربكم ، فإذا افضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم ، وإن كنتم من قبله لمن الضالين » وقرأ قوله تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » •

نعم جاء النص الكريم بأن الحج مع النسك الأعظم ، يشهد المسلمون فيه منافع لهم ، وأي منفعة أجل وأعظم من التعارف والتعاون على البر والتقوى ، وأن يعملوا على أن يفيض أهل كل اقليم على غيرهم بما ليس عندهم •

وقد كانت الأسواق التجارية مجنة وعكاظ وذو المجاز في موسم الحج ،
بتبادلون فيها البضائع ، فلنتبادل نحن الصفقات المثمرة التي تتعاون فيها
الشعوب الاسلامية ، وان الذي تنتهي منه بعد التعرف للعبادات الاسلامية
أنها تسمى أو تصرح بالأخوة الاسلامية ، ويؤدى القيام بها على وجهها الى
شعور كل مسلم بأن المؤمنين اخوة بحكم الاسلام وأن الأخوة الاسلامية فوق
الجنسية والعنصرية ، وأن أسباب هذه الأخوة قائمة ، وأن العقائد والتكليفات
وحدها كافية لاقامة وحدة اسلامية •

وقد قال في ذلك باعث النهضة الاسلامية في العصور الحديثة ، جمال الدين
الأفغانى : « أما وعزة الحق ، وسر العدل لو ترك المسلمون أنفسهم بما هم عليه
من عقائد مع رعاية العلماء العاملين اتعارفت أرواحهم ، وانفقت آحادهم » •
ولكن وأسفاه على المسلمين !! كانت الشعوب في جانب وحكامها في جانب
آخر ، فقلوب بعض الحكام مع بعض من الأجانب ، وآخرون مع جانب آخر ،
وقد توزعت المسلمين في الماضى الأمم الغريبة فسيطروا عليها ، وأدنوا
المروجين لهم ، وأبعدوا المؤمنين المخلصين لدينهم وبلادهم ، فلما تحررنا من
الأجنبي حكمنا نحن المسلمون من كانوا يدنونهم ، وبعده عن الحكم من كانوا
يعادونهم •

الوحدة الاسلامية ووحدة العقيدة :

١٢٣ - تقوم الوحدة الاسلامية على وحدة الدين ، والدين عقيدة
وعباداة وفضيلة ، وتعاون على البر والتقوى وعدل •

فاذا قلنا أن الوحدة الاسلامية تقوم على الدين ، فمؤدى الكلمة أن
تسود العقيدة المنزهة ، والعبادة المتجهة الى الله ، والتعاون بين آحادها بل
بينها وبين الناس أجمعين ما داموا يعملون في سبيل الخير ، والفضيلة التي
تجعل الانسان لا يرتع في مراتع الشر ، ولا يفسد في الأرض ، ولا ينخلع عن
انسانيته الى أن ينزرو نزو القرردة ، وينهل كالخنزير من معادن النتن ، ثم هو
بؤدى الى العدالة بين القريب والبعيد والعدو والولى ، والمسلم وغير المسلم ،

خالعدالة قانون الله وقانون الاسلام ، وقانون الانسانية السامية ، لقد قال تعالى في النهي عن ظلم العدو البغيض « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وانه اذا قامت الوحدة الاسلامية على أساس الدين ، وأخذ المسلمون جميعا بأخلاق الاسلام التي علمها القرآن ، وأوصى بها محمد صلى الله عليه وسلم ، ذهبت أكثر شرور العالم ، وكان المسلمون كما ابتدأوا مثلا عالية للفضيلة والانسانية العالية .

وقد فقد العالم ذلك بتفرق المسلمين ، وتأخرهم عن الصف الأول في بنى الانسان ، واحتل الصف الأول من تخلفوا بأخلاق القرده في نزواتهم والخنازير في مفاذرهم ، وائ. الأخوة الاسلامية تقوم على عناصر ليس فيها اعتداء على أحد ، ولا تعصب ضد أحد ، انما تقوم على ثلاثة مبادئ كلها يتصل بالأخلاق الفاضلة :

أولها — شعور بالأخوة بين المسلمين بعضهم مع بعض ، يتحقق فيها قوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة فاصالحوا بين اخويكم » واتقوا الله لعالم ترحمون » ، وألا يكون منها اعتداء على غيرهم الا اذا اعتدى عليهم اقليم منهم .

ثانيها — وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية ، حتى يتضافروا جميعا على محاربة المذاهب الهدامة ، ومنع شيوعها بين المؤمنين خاصة ، وبين الناس عامة ، حتى لا يكون فساد في الأرض .

ثالثها — ألا يكون من اقليم اسلامى حرب على اقليم آخر ، أيا كانت أساليب هذه الحرب سواء أكانت بالاقتصاد ، أو بالتحالف على مسلمين .

وقد يقول قائل : ان هذه الوحدة مخالفة لنواميس الاجتماع ، ان المجتمعات في الأمم تقوم على وحدة الجنس ، أو الاقتصاد ، أو وحدة المكان ، كما في أمريكا . وهؤلاء المسلمون في أقاليم شتى في الأرض فكيف تجمعهم وحدة دينية مع تفرقهم في الأرض ، وتنوع اقتصادهم ، وتحالف عناصرهم ؟ ونقول في الجواب عن ذلك :

ان قيام الاجماع الاسلامى على مبادئ الفضيلة ووحدة العقيدة هو أمثل الطرق لتكوين الجماعات الدولية ، ونحن لا نريد بالوحدة تكوين دولة ، انما تكوين مجتمع اسلامى من عدة أقاليم *

ولا يعد الاجتماع العنصرى أو الاقتصادى أو المكانى أمثل الاجتماعات لتكوين الأمم ، وذلك لأن الجهساعة الواحدة لا تتكون وحدة الا اذا اتحدت المشاعر والمنازع النفسية ، ولا تكون هذه المشاعر تحت سلطان تبادل المنافع فقط ، بل لا بد مع تبادل المنافع من اتحاد المشاعر النفسية ، وذلك لأن تبادل المنافع يحقق اتحادا وقتيا عند قيامه ، ويزول بزواله ، وهو عرض غير دائم ، واذا قامت أمة على أساس التبادل الاقتصادى أو الاشتراك فى المنفعة المادية ، فانها تكون غير مندمج آحادها بعضهم فى بعض *

وأن الاجتماع فى مكان واحد مع اختلاف العناصر يكون اجتماعا يحمل فى نفسه عوامل انحلاله اذا لم تكن معان روحية تمنع قوة العنصرية وتدفعها ، فلا بد من أن يظل العناصر المختلفة دين مهذب ، لأن العنصرية تفرص دائما تفضيل عنصر على عنصر ، ومع هذا التفضيل الاعتداء على غير هذا العنصر ، والعنصرية شكل من أشكال التجمع الحيوانى ، اذ تجتمع فصيلة من الفصائل وتقاتل الأخرى ، وتجتاز مكانها الذى تقيم فيه لتغالب الآخرين ، وبذلك كانت الحروب المستمرة حيث لا يكون دين جامع ، ولا تهذيب مانع *

فليس التجمع على أساس العنصرية الا بقية من بقايا الحيوانية المتخلفة فى الانسان *

وانا لنرى ذلك واضحا فى الدول التى تعامل الشعوب على أساس ألوانها وليست فكرة الشعوب الملونة والشعوب البيضاء الا صورة تحكم العنصرية وبقية من بقايا الحيوانية المتخلفة * بل أخص صفات الحيوان *

أما الاجتماع باسم الدين ، أو بعبارة أخص الاجتماع باسم الإسلام ،

فهو اجتماع لا يقوم على المغالبة ، بل على الأخوة العامة بين المسلمين . والمودة والرحمة بينهم والتعاون الانساني الكامل معهم ومع غيرهم من الدول التي لا تعتدى ، ولا تحكم باسم العنصرية أو العنصرية .

فهذا الاجتماع الاسلامي تتكون منه أمة متحدة المشاعر الانسانية العالية ، متجهة نحو الفضيلة ، والمثل العليا التي تنزع بالروح الانسانية نحو الملكوت الأعلى ، ويخضع فيها الانسان لخالق الأكوان وحده ، وعندئذ يعلو الانسان عن المغالبة الا اذا اعتدى عليه ، فالدفاع يكون واجبا في هذه الحال . ويكون ذلك من الفضيلة ومنع الفساد في الأرض ، كما قال تعالى : **« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »** .

وانه في الوحدة الاسلامية التي يكون أساسها تطبيق الدين تكون العدالة الحقيقية التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، اذ لا عنصرية في الاسلام ، بل الذي فيه : كلكم لأدم ، وآدم من تراب ، والناس سواسية كأبنان المشط .

وان المجتمع القائم على العنصرية هو في أمريكا الشمالية ، وان فيها لعبرة لأولى الألبصار ، ففيها قد صارت الأمور فوضى في الأخلاق وفي النفوس ، والانطلاق مقرب للبيض ، والجرمان والاضطهاد مفروضان على السود ، فانك واجد ظلما على السود لا يقل عن ظلم الجاهلية الأولى ، وما دون ذلك من قوانين ظاهرها المساواة في الحقوق والواجبات انما هي خطوط مسطوية على قراطيس . ليس لها في العمل مظهر يدل على وجودها . ولذلك هوى المجتمع الأمريكي من ناحية الخلق وضبط النفس الى ما لم يهوى اليه مجتمع انساني في عصر حضري .

ان العلو في المجتمعات الفاضلة كالمجتمع الاسلامي ان تحققت وحدة المسلمين ، انما يقوم على أساس فعل الخير والتقوى ، لا على أساس نبل

الدم . تقوم هذه المجتمعات الاسلامية على أساس احترام الكرامة الانسانية التى هى حق مشترك بين بنى الانسان . كما قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفعلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ان الفضيلة اذا سادت ذهب التناحر ، وسكت قانون الغلب .

انما تقوم الفضيلة الشخصية والاجتماعية فى ظل الاسلام الذى يدعو الى التعاون الانسانى العام ، والذى يدعو الى التسامح العادل ، بعد قمع الرذائل .

ونحب أن ننبه الى كلمة عامة نقول فيها أن الأديان السماوية كلها التى جاء بها الرسل من الله لا تدعو الى التناحر ، ولا تحرض عليه ، والتعصب الذى يؤدي الى الفرقة والانقسام بين البشر ، ليس منشؤه التدين ، أو الاستمسك بالحقائق الدينية السليمة ، انما هو من ضعف الاعصاب الذى يؤدي الى هوس فى التفكير وليس من التدين .

وإذا كان التاريخ يذكر تناحرا بين الناس باسم الأديان ، فليس ناشئاً عن الدين نفسه ، وانما هو ضعف الأعصاب عند الذين يتزعمون باسم الدين ، وضلال فى الفهم .

وفوق ذلك قد يتحول الدين عند الذين لا يدركون حقائقه ، الى معنى يشبه الجنسية العنصرية ، ولا يكون حينئذ التناحر منبعا من ذات الدين ولا من دبادئه ، بل من العنصرية التى لبست ابروس الدين ، والدين منها براء ، وهم بمقدار تناحرهم يتخلفون عن مبادئ دينهم .

وان الاسلام يبيث فى النفس معنى الخير ، وسمو الفضيلة ، وحب التعاون والتعارف بين بنى الانسان ، فشعار الاسلام هو التعارف . ولذا قال عليه الصلوة والسلام : « خير الاسلام أن تغرأ السلام على من عرفت ، ومن لم نعرف » . ووراء التعارف التعاون على البر والتقوى ، والتعاون على دفع

الفساد ، ولقد قال سبحانه وتعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » *

هذه حقائق مقررة تشير الى معنى الجمع الاسلامى والوحدة الاسلامية وأنه لا عصبية ولا جنسية ، ولا اقليمية ، بل محبة ومودة ، واقرأ قوله صلى الله عليه وسلم « ان لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لكانهم من الله يوم القيامة ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : قوم تحابوا فى الله من غير أرحام تربطهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله انهم لنور ، وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس ، « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هذه هى الوحدة الاسلامية التى نريدها *

شكلها

١٢٤ - أننا نريد من الوحدة أن تتحقق معانى الأخوة ، والتعاون الاجتماعى والاقتصادى والحربى والسياسى ، والثقافى ، ولكن كيف تتحقق هذه الأمور ؟ أتتحقق باحياء الخلافة الاسلامية كما كانت فى عهد الراشدين ؟

ان ذلك هو الاجتماع الأمثل ، وخصوصا أنه قد وردت به الآثار ، وكان عليها الصحابة أجمعون . ولكن أيمكن الأخذ بها فى هذا العصر ، وأيمكن تحقيق شروطها ، وهل من المصلحة بعد أن توزعت الأرض المسلمين ذلك التوزيع أن تكون لهم دولة واحدة ، يرجع فيها الحكم الى امام هو أعظم الولاة ؟

ونقول فى الجواب عن هذا : اننا لا نرى أن تكون الوحدة قائمة على دولة واحدة لها حكومة مهيمنة على كل المسلمين . فان ذلك لا يمكن مع الوضع الهندسى للبلاد الاسلامية فى الأرض ، وخصوصا أن الأراضى الاسلامية ليست متصلة الأجزاء ، وأن الأقاليم كما ذكرنا عندما امتد اليها الفتح الاسلامى كانت لها شخصيتها والامام له السلطان عليها والتنظيم الكامل غير بعيد عنه ، ولكنه فى عماله وحكومته له استقلال ذاتى .

واتنا اذا اتجهنا الى الوحدة الاسلامية ، فاننا نتجه الى أن تكون مناسبة للعصر ، ولا ننسى المبادئ الاسلامية ، فاننا اذا تأثرنا بروح العصر ، انما هو فى شكل الوحدة لا فى جوهرها ، فاسننا ممن يخضعون أحكام الاسلام لروح العصر ولكن الاسلام أمرنا بالقيام بحقائق مقررّة ، وترك لنا أساليب تحقيقها ، فنجتهد فى تعرف أقربها توصيلا لهذه الحقائق ، فمن روح العصر نستمد الطريق الموصل وما يمكن أن يكون عليه شكل الوحدة ، ولا نسوغ الأى أحد أو نظام أن يتحكم فى أى حقيقة شرعية باسم أنها تناسب العصر أو لا تناسبه ، فحقائق الاسلام ثابتة مستقرّة ولا يجوز التغيير فيها أو التبديل .

ان الوحدة التى نبتغيها لا تمس سلطان أى سلطان يقوم بالحق ، وينفذ

الأحكام الإسلامية في جوهرها ولبها ولا يتمن شكل الحكم في أي اقليم إسلامي بالفدر الذي يجعل الوحدة أمراً ثابتاً ، كما دام يقيم العدل وينفذ الحق في رعيته ولا يرهقهم من أمرهم عسراً ، فلكل اقليم أسلوب حكمه .

ان معنى الوحدة الإسلامية هو الذي نريده وهو غايتنا ، وهو أن نعتبر أنفسنا مهما تنامت الديار مرتبطين بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا ، وهي مبادئ الإسلام وشعائره ، وعبادته وعقيدته ، اذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة ، كما هو دين التوحيد الكامل الخالص من كل شرك .

ان الوحدة الإسلامية هي غايتنا . ويجب أن ينغياها كل مسلم ، ومن لم يؤمن بأن المسلمين أمة واحدة ، فقد عاند نصوص القرآن ودخل في عداد الذين ينساقون الله ورسوله ، ولقد قال سبحانه : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً » . لقد تفرقتنا في الماضي ، فأكلتنا ذئب الأرض ، وأصابنا الذل ، ومزقنا شرمزق ، واذا كانت العنصرية المقيتة قد فرقتنا ، فالقرآن الآن يجمعنا ، كما كان ينبغي أن يجمعنا من قبل ، واذا كان هوى الحكام وحجب الغلب ضيعنا وضيعهم في الماضي فانه يجب أن نجتمع في ظل الإسلام ووحده .

اننا كما قلنا لا نقصد بالوحدة دولة واحدة ولكن نريد أخوة شاملة ، واذا كانت الخلافة الكبرى يمكن أن تكمن من غير أن يكون للمسلمين دولة واحدة ، بل تكون أقاليم مختلفة في ظل اتحاد كامل ، فانه يمكن وجودها في النظام الذي يتصور جامعا ، وذلك على أساس ألا يكون الاختيار مدى الحياة ، بل يكون على نوبات زمنية متبادلة ، وعلى أساس أن القرشية أو العربية ليست بشرط ، فقد علمت أن الحديث « الأئمة في قريش » اخبار بأبناء المستقبل ، وليس تكليفيا ، وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الإمامة بعدى ثلاثون ، ثم تكون ملكا عضوضا » ثم قوله : « ان الأدر في قريش ما استقاموا ، فان اعوجوا لحوا كما يلحى الشجر » أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . وهكذا نحن لا نرى ذلك الشرط لا لأنه لا يتفق مع زماننا ، ولا لأنه لا يتناق مع المساواة العادلة التي نص عليها النبي صلى الله عليه

وسلم ، ولا لاضطراب الأنساب وجعلها ، وعدم معرفتها على وجه اليقين ، حتى ادعى القرشية بل الهاشمية من جعل لغير المسلمين عليه ولاية ، لا نبعد شرط القرشية لشيء من هذا ، ولكن نبعده لأن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه لا يدل دلالة قاطعة على أنه أمر تكليفي ، يجب الأخذ به ، وتجب مراعاته عند البيعة ، وتقديم الطاعة إذ أنه كما ذكرنا يحتمل أن يكون النص للتكليف ، ويحتمل أن يكون للاخبار ، وهو ما نرجحه ، وإذا دخل الدليل الاحتمال بطل الاستدلال ، فلا دليل يلزم بالقرشية ، وخصوصا أنه قد وردت نصوص أخرى تدل على جواز أن تكون الامامة من غير قریش ، فكان عدم أخذنا بشرط القرشية ليس فيه رفض الأمر مقرر ، إذ لا يوجد أمر من النبي صلى الله عليه وسلم .

هذا وأنا لا نجد أن الخلافة بعد الراشدين لم تكن محققة للوحدة الإسلامية لأنها صارت ملكية ، لا خلافة نبوية .

ان الوحدة الإسلامية يمكن تحقيقها من غير خلافة ، ولكن يمكن أن يكون للخلافة موضع فيها على أنها ليست الركن ، بل على أنها مظهر الوحدة .

وانه اذا تحققت الوحدة في السياسة والحروب ، والاقتصاد فقد قامت الوحدة قوية منتجة مثمرة ، وتتحقق هذه العناصر بأن يكون أمر جامع وهو الجامعة الإسلامية .

الجامعة الإسلامية

١٢٥ - لقد نادى الامام جمال الدين الأصفهاني وصحبه الى الجامعة الإسلامية ، ولم تذهب دعوته صرخة في واد ، بل كانت منبهة للغافلين ، موقظة للنائمين ، واذا كانت الشعوب لم تستجب لها في ابانها ، فلأنها كانت سابقة لأوانها ، وما يعيب صاحب الفكرة أن يكون سابقا ، وان لم يتحقق له ما يبغي وما يريد ، ما دامت الفكرة في ذاتها صحيحة واجبة التنفيذ ، وتارك التنفيذ ملوم مقصر ، أو مغلوب معذور ، ولم يمنع تنفيذ تفكير الامام وصحبه الأكرمين ، الا جهل المسلمين ، وعدم ادراكهم مغبة استسلامهم للمستعمرين الذين كانوا لا يألونهم خبثا لا في دينهم ، وذات أمرهم ، وفوق ذلك كان العدو الأجنبي الصائبي جاثما فوقهم ، لا يستطيعون أن يتصرفوا الا فيما يرضى عنه ، ولا يرضى عن أن يكون جمع المسلمين حقيقة ، ينتفون فيما بينهم ولا يختلفون ، فانه في الوقت الذي كان يصبح فيه جمال الدين الصيحات التي كانت تنفذ الى القلوب كان رئيس أكبر دولة غير اسلامية تحكم المسلمين وتناوئهم ، يقف أمام نواب هذا البلد ، ويأخذ كتاب الله ، ويقول : ما دام هذا الكتاب في الوجود فانه لا سلام *

والآن قد قبض الأجنبي يده ، وان كان كثيرون من الحكام يسيرون في ركاب بعض الدول غربا وشرقا ، ويصدرون عن أمرها ، في شأنهم وشأن الرعايا المغلوبين بحكمهم *

ولكننا في كتابتنا هذه نتجه الى الشعوب ذاتها * لقد كانت الحجب من الحكام والأجانب تحول بين الامام جمال الدين والشعوب ، والآن يسوغ لنا أن نتجه الى الشعوب نواجهها بأمر دينها الذي ارتضته واتبعته ، وضاعت ، وأكلها أعداء الله تعالى وأعداء الاسلام يوم أن تركت أمورها الى حكام طغوا على الشعوب ، واستكانوا للهوى أولا ، وشغلوا عن الشعوب ، واتجهوا الى مرضاة الأقوياء ثانيا ، ثم استسلموا وذابوا وهانوا على الناس ثالثا ، ورضوا

بألقاب الملك والسلطان ، وكانوا الطاغمين الكاسنين • ان الشعوب هي التي يجب أن تنهض . ويجب أن يكون الحكام منهم ظاهرا وباطنا وقوة وايمانا ، ويكونوا على الأعداء لا على المؤمنين ، وأن يكونوا أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين •

واننا اذا قلنا الجامعة الاسلامية فاننا لا نريد جامعة الحكام ايا كانوا ، تتألف منهم كيفما كانوا ، وتصدر عن أمرهم سواء كان صادرا عن الشعوب المؤمنة ، أم كان صادرا عن حكمهم الذي يتجاني مع ارادة الشعوب •

وإذا كنا نريد لنا شعبية ، فاننا لا نباعد الحكام عنها مطلقا • انما نريد الحكام الذين يختارون من شعوبهم • وليسنا نبعد الملوك أولا أو الأمراء • أو من يشبههم ، انما نريد الحكومات المقيدة بارادة الشعوب ايا كانت ملكية أم جمهورية ، فارادة الشعوب تتحقق في الحكم الملكي • كما تتحقق في الحكم الجمهوري ، فالوراثة الملكية لا تمنع من أن يكون الشعب هو الحاكم ، وأن يكون الوزراء ممثلين له ، غير خارجين عن أمره ، كما نرى في الحكومة الانجليزية ، والبلجيكية والدول الاسكندنافية ، فان هذه الحكومات رؤساؤها ملوك يتوارثون فيها الملك خلفا عن سلف ولكن الشعوب هي التي تحكم ، وكما تقول القاعدة القانونية الدستورية « الملك يملك ولا يحكم » •

اننا نريد من الحكومات الاسلامية أن تتمكن الشعوب من تحمل التبعة في الحكم ، ولقد جربنا حكم الحكام منفردين عن الشعوب • اذ ليس عندهم في الحكم ارادة فأدى الأمر الى الضياع ، والى الفرقة والانقسام • والى أن تتداعى علينا الأمم تداعى الأكلة على قصعتها فلم يبق لنا الا أن نترك الأمر للشعوب الاسلامية • وانها لرشيده لن تضل ، وان ذلك حكم الاسلام اذ يقول الله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ويقول تعالى أيضا مخاطبا نبيه : «وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمتم فتوكل على الله » ، ولقد جاء في كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية :

« قد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة من النبي صلى الله عليه وسلم » وقد قيل ان الله أمر بها نبيه ليتألف قلوب

أصحابه وليقتدى به من بعده ، وليستخرج منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحرب والأمر الجزائية وغير ذلك ، فغيره صلى الله عليه وسلم أولى بالاشورة ، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بذلك فى قوله تعالى : « وما عند الله خبير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يفترون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » وإذا استشارهم فان بين بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو اجماع المسلمين ، فعليه اتباع ذلك ولا طاعة لأحد فى خلاف ذلك وان كان عظيما فى الدين والدنيا . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتهم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » *

وان كان أمر قد تنازع فيه المسلمون ، ينبغى أن يستخرج من كل منهم رأيه ، فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عمل به كما قال تعالى : « فان تنازعتهم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » *

والتأويل فوق أنه قد يراد به تفسير الشريعة ومعرفة الأمر فيها يطلق على معرفة المسائل ، كما قال تعالى : « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ، قد جاءت رسلنا ربنا بالحق ، فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، فقد خسرنا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » *

والتأويل هنا المسائل بلا ريب ، وان الأخذ بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالشورى فى فهمهما وبناء المصالح الدنيوية عليهما من غير خلع للبرقة ، ولا خروج عن الجادة المستقيمة ، ينتهى بالمسلمين الى أحسن مآل والى خير حال ، وانه بضدها تتميز الأشياء ، لقد جعلنا القرآن مهجورا وتركنا سنة النبى الله عليه وسلم وراء ظهورنا ، فالتقمنا أفواه الشر . وتوزعنا الظالمون فى الأرض ، وصرنا فرصة المنتهزين ، يتسابق أعداء الله تعالى وأعداء الحق الينا ليستذلونا ، ونحن الأعزة بكتاب الله تعالى وبديننا « والله الأعزة والرسوله والمؤمنين » *

الشورى أساس الجامعة الإسلامية

١٢٦ — ان الجامعة الاسلامية يجب أن تبني على الشورى ، لأنها الأصل في كل أمر جامع للمسلمين ، لأن الحكم الاسلامى ، لا يقوم على أساس افناء الواحد في الجماعة ، بحيث لا يكون له رأى في تكوينها ، وانما يقوم على أن الجماعة القوية هى التى تتكون من آحاد أقوياء ، فالبناء القوى لا يبنى الا من ابناات قوية صلبة ، تتماسك كل لبنة مع أختها ، حتى تقوم الدعائم قوية ثابتة الأركان .

وان الشورى تربي الشعور بالعزة ، وتحمل التبعة ، وانه بالشورى يحس بكل واحد بحق الجماعة عليه ، وحق الاسلام الذى أوجبه في غير شطط ، ولا مجاوزة للحد ، ولقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار » فالشورى كتب الله فيها التوفيق ، والاستبداد أيا كانت صورته كتب الله تعالى فيه اضعاف النفوس ، وفساد المسالك ، ولا يمكن أن ينهض الاستبداد بأمر لا تنهض به الشورى ، وان بدا نجاح الاستبداد في أمر من الأمور فإنه نجاح الى زوال ان لم تؤيده الشعوب مخلصه مؤمنة حرة في التأييد ، وان المستبدين المخلصين ، وقليل ما هم ، ينتهون الى الرجوع الى الجماعات في مآل أمرهم ، والا باؤوا بخسران مبين ، ولذلك يجب لتحقيق الأمر بشأن تحقيق الجامعة الاسلامية أن يكون الحكم في كل اقليم اسلامى حرا تمام الحرية قد خلع سلطان الأجنبي فيه الشعب وحاكمه — يجب أن يكون الحكم فيه قائما على الشورى ، لا يستبد الحاكم بالمشكوم ، ولا تهمل ارادة الشعوب ، لأن في ذلك اذلالها ، ولا يعتر الاسلام بذليل قط ، وان الاستبداد صورة من صور الاسترقاق ، ولا يصح أن يسترق المؤمنون تحت حكم الاسلام ، ولا ندري بأى سلطان يفرض الحاكم على المشكوم حكما لا يكون مستمدا من كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ان محمدا الذى كان يوحى اليه كان يستشير في كل أمر لم ينزل به وحى ، وذلك كما قال ابن تيمية وغيره ليعلم الحكام من بعده أنه لا يستقيم أمر المسلمين الا بالشورى ، وليعلم كل انسان أنه ان استبد برأيه يخطيء وان أصاب وأصلح

فانه قد أخطأ أيضا ، لأنه بمقدار استبداده يكون اذلاله للشعب ،
وإذا ما ذل الشعب فانه يستسلم ، والاستسلام للحاكم سبيل للاستسلام
للأجنبي ، وإذا كان المستبد عادلا فان الاستسلام له يؤدي الى الاستسلام
للظالم ، ويكون من بعد ذلك الشر المستطير .

وان الاستبداد يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما عماد الرأي
العام الفاضل ، فالاستبداد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نقيضان لا يجتمعان،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شريعة الاسلام ومذهب الجماعة الاسلامية
وخاصتها ، قال تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون
بالله ، ولو أمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » .

وان الشورى ذاتها من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإذا لم تكن
منه ، فهي ملازمة له ، لأن المشاورة استرشاد من الحاكم للمحكوم ، وهي من ضمن
النصيحة لله ، والأولى الأمر .

وان الذى فرق الأمة الاسلامية ذلك التفرق بعد أن جمعها النبي صلى الله
عزبه وسلم هو اهمال ارادة الشعوب فقد تملكت القلوب ، واضطربت النفوس،
فانصرفوا عن أن يرشدوا الحاكم ، لأن شعار المستبد الغاشم « من قال انق الله
قطعت عنقه » ، وان الذين جعلوا غير المسلمين يتوزعون الأرض الاسلامية بينهم
هم الحكام المستبدون ، ولو راجعت أسباب سقوط الأقاليم الاسلامية فى أيدي غير
المسلمين لوجدته استبداد حكامهم وتفرقهم مشاعر واحساسا وعدم احساسهم
بالوحدة الجامعة ، وهذا الثانى ثمرة الأولى ، فاذا شعر المسلم بأنه لا رأى له فى
أمر بلده هانت عليه اذ قد استسلم للمستبد عادلا أو ظلما .

واننا ونحن نعمل على أن نجتمع اليوم يجب أن نتلافى عيوب المساخى ، وان
الجسم السليم لا يستعيد قوته الا اذا سلم من الأمراض التى أضعفته ونقى من
الأدواء التى أرهقته ، وقد أرهق المسلمين الاستبداد ، فيجب أن يصلحوا بحكم
النقرآن .

تنفيذ الأحكام الإسلامية قوام الجامعة

١٢٧ - ان الجامعة الاسلامية ليست اجتماع أبدان لقوم سمووا المسلمين ، وانما هي اجتماع أقوام يدينون بدين واحد ، فالجامع بينهم دين ، ولا يعد الدين جامعا الا اذا تحقق في ذات نفسه ، وقامت دعائمه ونفذت أحكامه في خاصة الآحاد ، وذلك بالعبادات التهذيبية ، الصلاة والصوم ، وبالعبادات الاجتماعية الزكاة والحج ، والصدقات والذور والكفارات ، وأحكام الأسرة التي تولى بيانها القرآن الكريم ، وفصل ما يحتاج منها لتفصيل النبي الأمين فقد تولى بيان أحكام الزواج والمحللات والمحرمات ، وحقوق الزوجين وأحكام الطلاق وأحواله وآثاره ، وأحكام الأولاد رضاعة ونفقة وغيرها وبين النبي صلى الله عليه وسلم أحكام الأقارب وحقوقهم في بيان يجمع بين التقنين والحكمة منه .

وبين القرآن الكريم أحكام الميراث ، ولم يترك فيها اجمالا الا قليلا بينته السنة النبوية الشريفة ، وهي كانت أحكام الأسرة كلها من القرآن الكريم مع بيان السنة النبوية الطاهرة ، لأن الأسرة قوام الجماعة ، والمجتمع القوى يبني على أسس قوية ، ولذلك كانت عناية القرآن بالأسرة ، وتولى أحكامها القرآن ، وبينها أكثر مما بين العبادات ، لأن الله تعالى العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علما ، علم أن أحكام الأسرة في الاسلام ستكون موضع المهاجمات ممن لا يرجون للاسلام وقارا .

ويسير ، مخالفين للدين ، أولئك الذين أشربوا حب المدنية الغربية ، وأرادوا أن يجعلوا الأسرة الاسلامية تحكم بأحكام الكنيسة التي منعت الطلاق ، ومنعت تعدد الزوجات .

وكان غريبا أن ينادى بعض المسيحيين أنه لا يمنع الأسرة الأوروبية من الانحلال الا اباحة تعدد الزوجات ، واباحة الطلاق ، بينما يصك آذانهم ذلك النداء ، ويستجاب له هنالك نجد من المتفرنجين هنا من يلحون في ضرورة تقبيد تعدد الزوجات أو منعه ، وتقبيد الطلاق أو منعه .

المعاملات :

١٢٨ — وفي المعاملات المدنية المسالية يجب أن يكون الاسلام هو الذى يحكم بالقرآن والسنة فأحكام العقود ، والحقوق والالتزامات يجب أن تسن تحت ظل القرآن ، فلا تكون العقود المحرمة فى القرآن والسنة ، فلا تباح العقود الربوية فى البيوع ، فربما البيوع حرام بالسنة لما ورد فى كتب الصحاح ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد والبر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والتمر بالتمر ، مثلا بمثل يدا بيد ، والملح بالملح يدا بيد وفى رواية الشعير بدل الملح ، الى آخر ما ورد فى ذلك من أحاديث تؤكد هذا المعنى ، وبيان الفقهاء فى علة التحريم المطردة التى يبنى عليها القياس فى غيرها .

وربا البيوع هذا ثبت تحريمه بالسنة ، أما النوع الآخر من الربا وهو ربا الجاهلية ، وهو ربا الديون ، وهو الزيادة فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل . فان تحريمه ثبت فى القرآن الكريم وابتدأ تحريمه فى مكة ، فقد قال تعالى فى سورة الروم المكية : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . وما آتيتم من زكاة تريبون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ونزل التحريم المقاطع فى القرآن الكريم بعد الهجرة النبوية ، فقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » والربا هو الزيادة ، ولا شك أن تكرار الزيادة سنة بعد سنة يضاعفها أضعافا مضاعفة فالضاعفة فى الزيادة لا فى أصل الدين كما فهم بعض الذين يأخذون بالألفاظ الظاهرة من غير تمحيص لمعناها . وتعرف دقيق لبنائها ، ولا محاولة لادراك الحكمة من تحريم الربا .

ولقد جاءت من بعد ذلك نصوص قاطعة فى التحريم ، قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيوع مثل الربا ، وأحل الله البيوع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا

ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خبر لکم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » •

هذا نص قرآنى قاطع فى تحريم ربا الديون ، وهو ربا الجاهلية ، وقد سئل الامام أحمد بن حنبل : ما الربا الذى لا يسع مسلماً أن يجله ، قال رضى الله تعالى عنه : أن تعطى الرجل ديناً ، وتزيد فى الدين نظير الأجل ، ولكن ناساً ممن استهوتهم المدنية الأوروبية بعجزها وبجرها قد حسبوا أن نظام الفائدة يقوم عليه النظام الاقتصادى فى العالم ، فكيف نحرمة ، وينسى أولئك أن الاستعمار الأوروبى كان يدخل وراء الربا ، وأن الربا نظام يهودى وأن الاستعمار يتخذ ذريعة لمآربه لدخول أى بلد اسلامى ، فمصر احتلت بالربا ، وبلاد أفريقيا كلها وبعض آسيا كان الربا فيها أحبولة الشيطان التى اصطاد بها ملوك المسلمين وحكامهم ، وقد يقول قائل المقلدين للفرنجة : كيف نتخلص من الربا ، وقد سأل سيده ، وعم ، ونقول لهم : قد تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد روى الامام أحمد بن حنبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قيل الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال النبى الكريم : من اى يأكله ناله غباره » • وان ذلك من دلائل النبوة ، فان هذا هو زماننا الذى ابتلينا به والذى تفرقنا فيه ، وأكلتنا ذئاب الأرض •

وأنة اذا كنا نحرم الربا فى كل صورته ، فاننا أيضاً نحرم القمار والميسر فى كل مظهره ، فقد وجدنا عقود القمار التى تسمى التأمينات التى تعقد بين الآحاد والشركات تسير مع الربا جنباً لجنب ، وهو يلازمها ، فعقود التأمين على الحياة ، وعقود التأمين على البضائع من القمار ، وليس منه التأمينات الاجتماعية التى يتصافر فيها جماعة من الناس فى ظل الدولة ، أو بتنظيمها فى أن يكلفوا لكل من نهلك بخساعته ، أو تذهب نفسه ويترك عيالا ضياعاً ، على أن يؤدى كل واحد جزءاً من المال بشكل رتيب شهري أو سنوى ، وأن تكون الفائدة للمجموع تصرف من هذه المحارف ، والخسارة على المجموع ، فان ذلك تعاون ، والله تعالى يقول : « تعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » •

وقد يقول قائل : ان النظام الاجتماعى يقوم على الاقتراض ، والاقتراض ، ولا يتم ذلك الا بالفائدة وان التأمينات بكل صورها ضرورات اقتصادية ، ولا مناص منها ، فكيف تريد أن تهمل ذلك الجامعة الاسلامية اهمالا ، انها بذلك تهدم البناء الاجتماعى ، ولا يمكن أن تقوم مدنية بغيره اسلامية كانت أو غير اسلامية ، ونحن نقول فى الجواب عن ذلك : اننا نريد مدنية فاضلة تخلو من سحت انفائدة وسحت القمار معا ، وليس فيهما خير لا يمكن أن يتحقق من دونهما ، فاذا كان الشر ينتج خيرا ، فالخير لا ينتج الا خيرا وهو خير لا يشوبه شر .

واذا أريد نظام اسلامى ، فانا نقيمه على أساس التعاون ، ومصارف الادخار التى يكون نظامها قائما على التعاون بين المقرض والمقترض ، بين المصرف ومن يعامله ، فان خسرا خسرا معا وان كسبا كسبا معا .

ويكون منه التأمين على البضائع ويكون القرض الحسن الذى لا هائدة فيه ، ولا ما يشبه الفائدة .

وأما التأمين على النفس فيكون بالتأمين الجماعى الذى هو التعاون على الصورة التى ذكرناها ، وفى الجملة نريد أن تكون الجامعة اسلامية فى نظامها ، وفى أحكامها وتأليفها .

الزواج الاجتماعى :

١٢٩ - ونقصد بالزواج الاجتماعى العقوبات التى تكون بجوار الجرائم ، ونقول فى ذلك :

لقد حدد الاسلام حدودا ووضع نظاما للعقوبات ، وتولى القرآن الكريم بيانها ، وبيان نوعها ، ومقاديرها ، وأوجب على القائمين على الأمر تنفيذها .

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى القصاص ، وذكره على شريعة ثابتة فى الديانات السماوية كلها ، وجعل ذلك علاجا للنفس البشرية التى من طبيعتها الحسد ، ويدفعها الحسد الى ارتكاب الجرائم ، والاعتداء ، وذكر قصة ابنى آدم

أذ قتل أحدهما أخاه لأنهما قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، ولنترك القول لبيان الله تعالى في كتابه ، اذ يقول تعالت كلماته :

« وائل عليهم نيا ابني آدم بالحق ، اذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال : انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تنوء بياثمي واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » *

هذه جريمة ترتبت على الحسد ، وهى تدل على أن الحسد يدخل حتى فى دبدبان التقرب ، وانك لترى أن أكثر الجرائم الانسانية تترتب على حسد فى النفس ، يترتب عليه حقد كمين يدفع الى الايذاء ، ولذا قال سبحانه بعد أن قص ذلك القصص الحكيم : « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » *

ولقد قال سبحانه وتعالى : « ولكم فى القصص حياة يا أولى الألباب » * وجاء النص بالقصص فى الأطراف والجروح مع القصص فى النفس ، فقال تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن ام يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » *

ولقد نفذ النبى صلى الله عليه وسلم عقوبة القصاص فى الأطراف ، كما نفذ عقوبة القصاص فى النفس ، وكما قرر القرآن *

وان الاسلام يقرر أنه لا يذهب دم هدرا ، ولقد روى عن على كرم الله وجهه فى الجنة « لا يطل دم فى الاسلام » *

ولذلك شرع الاسلام نظام القسامة ، وهو أنه اذا قتل قتيل • ولم يعرف قاتله حلف من أهل الحي أو القرية التي وجد فيها القاتل خمسون من أهل العدل والثقة ، يحلف كل واحد أنه ما قتلته ، ولا يعلم له قاتلا ، فاذا حلفوا كانت ائدية الأولياء المقتول ، يأخذونها من بيت المسال ، على أساس أنه واجب الدولة أن تحافظ على الدماء ، وما كان القتل الذي لا يعرف فيه القاتل الا بتقصير من الدولة ، فحق عليها أن تضمن دية من قصرت في حماية أرواحهم وهم في رعايتها ، أو من أهل الحي •

وأما أن تؤخذ من أهل الحي فلأنه يجب عليهم أن يتعاونوا في مقاومة الجرائم ، ورعاية الأخيار ، والضرب على أيدي الأشرار ، وذلك من قبيل التعاون على البر والتقوى ، وكل تعاون على الفضيلة ومحاربة الرذيلة تعاون على البر والتقوى وهو مطلوب ، والسكوت عن هذا التعاون يكون اهمالا للأمر واجب الأداء ، على أن كل مجرم أو قاتل يكون معروفا في قريته أو الحي الذي يسكنه في مدينة ، فلا يمكن عادة أن يجهله خمسون من العدول ، ويكون الجاني قد عرف من غير تحسس ولا تتبع للعورات ، ولا فتح باب للنميمة والسعاية والفساد •

الحدود :

١٣٠ — هذا بالنسبة للقصاص ، وهو العقوبات التي يكون الاعتداء فيها على حقوق العباد ، أو التي يكون فيها الاعتداء على حق للعباد غالبا •

وأما العقوبات التي تكون حقا لله فهي التي تسمى في الاصطلاح الفقهي بالحدود ، والفرق بينها وبين القصاص أن القصاص قابل للعفو ، بل حيب اليه القرآن الكريم في قوله تعالى في ختام آية القصاص : « فمن تصدق به فهو كفارة له » وقوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » أما الحدود فإنه لا يجري فيها العفو لأن ولى الأمر هو الذي يتولاها ، وهى حق لله سبحانه وتعالى ، ولأن اقامتها عبادة والعفو فيها يكون تخليا عن العبادة ، وقيامتها قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

فجرائم الحدود منكرات ، وانكار العقوبة عليها اثم * وقد وضع الله تعالى هذه العقوبات ، فلا يجوز لوال أو امام أن يتخلى عن القيام بها ، وهذه الحدود محاربة للذائل ، ومحاربة الرذائل واجبة على أولى الأمر في المسلمين ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » ولا شك أن أولى الأمر هو أقدر الناس على التغيير بيده *

والتغيير باليد له صورتان : الصورة الأولى المنع من الفعل عند الهم به ، وأخذ السبيل اليه ، وذلك عمل والى الحسبة ، فهو لمنع وقوع الجرائم قبل وقوعها ، فاذا وقعت أخذ بصاحبها الى القضاء لينفذ حكم الله تعالى فيه *

والصورة الثانية أن يحكم عليه بالحد الذى وضعه القرآن الكريم ، وبينته السنة النبوية ، وهو العقوبة التى قررها القرآن لتكون حدا بين الفضيلة والرذيلة ، وبين الصلاح والفساد ، وقد طالب النبي صلى الله عليه وسلم باقامة الحد اذا ظهرت الجريمة من غير تجسس ، ولا فتح باب للسعاية والنميمة ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

« يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله تعالى ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » *

وان الحدود هى حمى الله تعالى ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه *

اننا لن نكون أمة اسلامية الا اذا أقمنا حدود الله ، ويجب أن تكون سياسة الجامعة الاسلامية فى محاربة الفساد ، قائمة على تنفيذ هذه الحدود التى لا مناص من تنفيذها ، ولا سبيل لتركها وراءنا ظهريا ، كما هو الحال الآن ، الا أن بعض الأقاليم الاسلامية تقول انها تقيم الحدود ، وتنفذ الأحكام الشرعية جملة وتفصيلا ، وان صحح أن هذا الاقليم أو غيره يقيم الحدود وينفذ الشرع فيما يتعلق بها ، فانا نرجو أن يكون ذلك حكما عاما ، لا هوادة فيه ، لأننا اذا لم

نقم الحدود لم يكن مجتمعنا اسلاميا ، ولا تتكون قط جامعة اسلامية ، لأن الجامعة كيان معنوي ، وليست تجمعاً مادياً ، والاجتماع المعنوي يجب أن تقوم فيه الرابطة المعنوية وهي الدين ، وأحكامه المستمدة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والحدود كالتخصص ثابتة بالنصوص ولا مصدر لها الا الكتاب ، تعرض لها القرآن جميعاً ، وعين العقوبات في أكثرها ، وحددت السنة الباقي ، وكان أصل تحريم الجرائم في القرآن ، فالسنة النبوية بينت أثر الجريمة ، وما يرتبه الشارع عليها في الدنيا .

١٣١ — والحدود التي نص القرآن على عقوبتها حد الحرابة أو قطع الطريق ، وحد السرقة ، وحد الزنى ، وحد القذف ، واللعان ان عد حدا ، والبغى .

والحدود التي بينتها السنة حد شرب الخمر ، وحد الردة .

وحده الحرابة ثبت بقوله تعالى : « انما جزاء الذين يهاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصابوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفقوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن نتخذوا عليهم » .

وهذا الحد للذين ينتفضون على النظام العام في الداخل ، ويخرجون بقوة اغتصابوا من الناس أموالهم ، ويقتلوا حيث يكونون في مأمن من أن يغيب فريستهم مغيب ، ويسمون (قطاع الطريق) وتكون لهم قوة في افسادهم ، وأكثر انفقهاء يحصرون المجرمين الذين يعاملون هذه المعاملة فيمن يخرجون الأخذ للمال سرقة أو اغتصاباً ، أو يقتلون الأنفس في جمع قوى ، يخالبون به قوى الدولة ويعمم الامام مالك جرائم هؤلاء المجرمين فيشمل اسم الحرابة ، من يجتمعون في قوة لهتك الأعراض أو الاتجار فيها وفي المخدرات ، وانهم يشبهون في الجملة العصابات الأمريكية التي تضيق الدولة الأمريكية بقضها وقضيضها بهم ، وقد عالجهم الاسلام بتلك العقوبات القاسية التي تجعلهم عبرة للمعتبرين .

نعم انها عقوبات قاسية ، ولكنها زاجرة رادعة ، وهي تتكافأ مع جرائمهم لأنهم يقضون أمن الدولة ، وفريستهم الواعين الذين لا حول لهم ولا قوة ، ومع وجودهم لا أمن ولا سلام ، ولا تستطيع الدولة تمكين الناس من أن يعيشوا في سلام في حلهم وترحالهم * والحد الثانى وهو السرقة ثبت بقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح فإن الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم » *

وان العقوبة بلا شك قاسية ، ولكن يلاحظ أنها فيمن يعتادون السرقات بدليل سقوط العقاب بالتوبة على ما فهم من اقتران التوبة بالعقاب أحمد بن حنبل وبعض الشافعية ، وروى منسوباً للشافعى ، وهو ما نميل إليه ، ويلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، واننا لو أحصينا ما اتفق عليه الأئمة من الفقهاء ، لوجدنا أنه لا يبلغ نصف العشر من السارقين ، ولكن قطع يد واحدة في اقليم يكفى لردع السارقين * وتقليل هذه الجريمة الى حد ألا تكاد تكون ، واعتبر ذلك بحال الحجاز الذى يطبق فيه هذا الحد *

والحد الثالث حد الزنى ، وقد ثبت بقوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين * الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرّم ذلك على المؤمنين » *

وان العقوبات التى قررها الله سبحانه وتعالى في ذلك الحد ، انما هى ليكون المجتمع فاضلاً ، وليعيش في ظل الفضيلة وليحفظ النسل ، ولكيلا تفسد الأنساب ، ولكيلا تعم الرذائل *

والكلام في ذلك مفصل في الكتب التى بينت هذا (١) *

(١) باب الحدود في كتاب الجريمة والعقوبة للإمام محمد أبو زهرة - الناشر

دار الفكر العربى *

والحد الرابع حد القذف ، وقد ثبت بقوله تعالى : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فان الله غفور رحيم** » وان هذا جاء عقب بيان حد الزانى ، وذلك ليحمى المجتمع من الترامى بالفحشاء ، ورمى المحصنات الغافلات بالفاحشة ، واذا شاع ذلك فسد المجتمع ، وهانت الرذيلة على النفوس ، فأقدم عليها من كان يتصون عنها ، ولقد جاء فى القرآن فى سياق بيان الاثك ، الذى أفك به على أم المؤمنين عائشة « **ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يماهم وأنتم لا تعلمون** » ويقول سبحانه وتعالى فى هذا السياق أيضا : « **ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة** » (١) .

وان الذين يرجون الفسق فى أزمان الانحراف يتخذون من القذف ذريعة لمآربهم ، وأنه حيثما انتشر الزنا فى أمة ، أو استهان الناس بأمره لازمه الترامى به ، وفسد الجو ، وكان رأى العام فاسدا مردولا ، ولم يكن فاضلا مقبولا ، وان رأى العام الفاضل يهذب النفوس ، والرأى العام الفاسد يجيبى الرذائل ، ويحرض عليها ، ويستغل الناس فيه داعى الخير ، ثم يستحق اللعنة التى ذكرها الله تعالى لبني اسرائيل ، اذ قال تعالت كلماته : « **لعم الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون** » .

والحد الخامس عند من اعتبره حدا لللعان ، وقد جاء كشعبة من القذف ، فحد القذف يكون اذا رمى بالزنى امرأة لبيست زوجته ، أما اللعان فيكون اذا رمى زوجته ، ويقول فيه سبحانه : « **والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهود الا أنفسهم ، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين** » .

(١) كتاب الجريمة والعقوبة . للامام أبى زهرة .

هذا هو اللعان ، وإذا تحالفا ، فرق بينهما تفريقاً أبدياً إلا أن يكذب نفسه ، وبعض الفقهاء قال : لا يعودان ، ولو كذب نفسه ، لأن الثقة بين الزوجين قد فقدت ، والعلاقة الزوجية قائمة على الثقة والمودة ، ولا يمكن أن تتحقق المودة إلا مع الثقة « وإن ينفردا يعن الله كلا من سعته » (١) *

حد البغى :

وهذه حدود خمسة قد ثبتت بالقرآن ، وقريب منها في الثبوت حد البغى ، وهو يهمن في بحثنا بالنسبة للجامعة العربية ، وقد ثبتت جريمة البغى في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنشء الى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انها المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلمكم ترحمون » *

ويجب أن نفهم عند هذه الآية وقفة قصيرة وننبه في هذه الوقفة الى أمرين :

أحدهما - أن الفقهاء يفرقون بين البغاة ، وقطاع الطريق أو أهل الحرابة أن أهل الحرابة يريدون الفساد لذات الفساد ، من غير أن يعتمدوا في خروجهم على تأويل ديني ، وهم لا يريدون السلطان ، انما يريدون السلب والنهب والقتل فهم مجرمون ، وقد وجد فيهم الاتفاق الجنائي *

أما البغاة فانهم يخرجون بتأويل ، ولا يريدون القتل والسلب ، وانتهك الحرمات ، وانما يريدون أن يجعلوا أنفسهم سلطانا ، وقد يخرجون باجتهاد وقد يخرجون طالبين السلطان ، وقد نص القرآن على ذلك وهو أنه على جماعة المسلمين فرض كفاية أن يصلحوا بينهم ، فان عجز أهل الرأي من الجماعة عن الإصلاح فانه يكون على الجماعة ممثلة في قوتها أن تقاوم البغاة لأن خروجهم يكون فتنة ، والفتنة تقمع بالسيف *

(١) المرجع السابق *

الأمر الثانى — أن هذا النص الكريم يرشدنا الى ما يجب أن تتبعه الجامعة الاسلامية بالنسبة للذين يبغون على طائفة من المؤمنين بغير الحق ، فان هذا البغى يكون موجها الى احدى الطائفتين ابتداء ، وهو فى نهايته يكون موجها الى الجامعة الاسلامية كلها +

ولذلك يكون عليها أن تبتدىء بالاصلاح بين الطائفتين ، فان استمر البغى ، أو تبين بغى احدهما ، فان على الجامعة أن تقاتل الباغية حتى تفتىء الى أمر الله ، فان فاعت ، فان على الجماعة من بعد ذلك أن تعمل على جمع القلوب التى تنافرت ، والنفوس التى تدابرت وذلك بالتأليف والتقريب ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : **« فان فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »** +

وان النتيجة المؤكدة لذلك أن يكون للجامعة الاسلامية قوة رادعة ، ترد بغى الباغى وتنصف المظلوم وتمنع القتاتل بين المسلمين بعضهم مع بعض ، اكى يتحقق نص الآية ، ويتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » وقوله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يحقره ، ولا يظلمه ، ولا يبسلمه ، ولا يخذله ، ومن كان فى عون أخيه كان الله تعالى فى عونه » +

١٣٢ — وهناك حدان آخران ثبت مقدارهما بالسنة ، ولكن أصل التحريم الذى هو أساس التجريم قد ثبت بالقرآن وهما حد الشرب وحد الردة فشراب الخمر ثبت تحريمه القاطح الذى لا مجال للريب فيه بالقرآن اذ يقول سبحانه تعالت كلماته : **« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين »** + فهذا النص قاطح فى التحريم ، وقد تولى النبى صلى الله عليه وسلم بيان مقدار الحد ونوعه ، فقد روى أنه ضرب شارباً أربعين نعلاً ، فقدره بعض الفقهاء بثمانين ضربة ، لأن النعل جزءان ، وقدره

بعض الفقهاء بأربعين على حسب ظاهر اللفظ ، ورأى على بن أبي طالب أن يكون ثمانين جلدة ، آخذاً من ذلك النص ، ومن اجتهاد فقهي ، فقال انه اذا شرب هذى واذا هذى افتزى ، وحد الافتراء (أى حد القذف) ثمانون — فحد اشرب بهذا القياس العلوى ثمانون *

ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شارب الخمر « اذا شرب فاضربوه ، فاذا عاد فاجلدوه ، فاذا عاد فاقتلوه » *

وقد روى أن بعض المسلمين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « اننا نعيش بأرض برد . ونستدفع بالخمر أفنشر ؟ » قال صلى الله عليه وسلم : لا ، قالوا : انهم لا يطيعون ، فقال عليه السلام : فقاتلوهم » *

وفي الحديث الأول نراه صلى الله عليه وسلم تدرج في العقاب ، فجعل عقاب أول مرة بالضرب * فاذا عاد كان الجلد ، فاذا عاد الثالثة كان القتل ، لأن ذلك جحود بالتحريم فأشبهه الردة *

وفي الحديث الثانى كان قتالهم لأنهم يجحدون ، ويحادون أمر الله وطاعة الرسول *

١٣٣ — الردة هى الخروج عن الاسلام ، والاسلام لا يكره الناس على الدخول فيه ، فالقرآن الكريم ينفى الاكراه فى الدين ، وينهى عنه ، فقد قال تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاعات ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » ويقول تعالى مخاطباً نبيه : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، ويقول سبحانه : « أفأنت تكره الناس ، حتى يكونوا مؤمنين » *

ولكن من دخل فى الاسلام لا يخرج ، لأنه لا يمكن أن يكون قد دخل بنيته مخلصاً ثم يخرج ، انما الذى يدخل ثم يخرج ، هو من يظهر الاسلام ثم يخرج منه توهيناً لسأته ، ولا يهجم الناس بأنه لا يتبعه لأن الحق فى غيره ، وقد حدث فى صدر الاسلام يوم أن صارت كلمة الله تعالى هى العليا ، وصار هذا الدين

الكريم دين أهل القوة والغلبة أن دخل الناس فيه أفواجا ، ومنهم من دخل ، وقلبه مطمئن بالايمان ، ومن دخل اتباعا للقوة رغبا ورهبا ، ومنهم من دخل في الاسلام ليفسده على أهله ، فكانت حماية العقيدة ، وحماية الاخلاص في ظنّه توجبان أن يدخل حرا ، وتوجبان أن توحد الأبواب على من اختار الضلال على الهدى ، والنفاق على الايمان ، فكانت العقوبة الشديدة الرادعة التي تحمل من يريد الدخول في الاسلام على أن يدخل مؤمنا * وكان عليه أن يقدر الخروج قبل الدخول *

لذلك كان العقاب الشديد الرادع الزاجر ، وهو القتل للرجل ، والحبس حتى تتوب للمرأة *

وكانت شرعية هذا العقاب بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من بدل دينه فاقتلوه » * وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم الا في احدى ثلاث : نفس بنفس ، وزنية ثيب ، وردة بعد ايمان » * وقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين ، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، بل اشتهروا معه وعاونوه ، وردوا الردة في كل أنواعها *

قد يقول قائل : ان ذلك لغرض الطاعة ، وانهم قد خرجوا على الدولة ، فحق عليهم أن يحملهم على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة ، ولذلك قال لهم : « اما سلم مخزية ، واما حرب مجالية » *

وذلك حق لا ريب فيه ، وكما أنه يدل على ذلك يدل أيضا على أن القانون النظامي للدولة الاسلامية الذي يعد أساسا لقيامها هو الاسلام ، وهو الرابطة الوثيقة التي تربط أجزاءها آحادا وأقاليم ، وكل دولة تعد الخارج على قانونها المنظم لها خائنا أو خارجا ، فيحل قتله *

والاسلام في قتله المرتد لا يخرج عن ذلك *

وأولئك الذين يقولون ان قتل المرتد ضد حرية الدين نقول لهم غير مترددين : ان قتل المرتد بعد استتابته هو من قبيل حرية التدين ، وأن

تتكون حرية سليمة قائمة على ادراك الحقائق ، انها لمنع التلاعب بالأديان واتخاذها هزواً ولعباً ، مما يؤدي الى اضطراب في تطبيق القوانين ، واضطراب في الأسرة .

واعتبر ذلك بحال البلاد التي أهملت عقوبة الردة ، فقد صارت الأمور الى فوضى ، يريد رجل أن يترك امرأته . فيدخل في الاسلام لأنه يبيح الطلاق ثم يطلقها وهو ما دخل الاسلام حقيقة ، وانما أعلن ذلك ليقتضى لبانته ، وقد ضج المتدينون من ذلك .

ولو كانت العقوبة الاسلامية تطبق ماظهر ذلك الفساد ، ولا اضطربت الأحوال ذلك الاضطراب وما اتخذت الأديان هزواً ولعباً ، وقد اقترحنا علاجاً لهذا الفساد أن توضع عقوبة أيا كانت ، وان كنا نرى أن عقوبة الاسلام هي الأردع والأمثل .

أحكام القرآن والسنة نعم البلاد الاسلامية :

١٣٤ - ان الأحكام الثابتة بالقرآن والسنة ، سواء أكانت لتنظيم العلاقات بين الناس ، أم كانت لازواجر الاجتماعية واجبة ، فكل حكم ثابت بالقرآن أو السنة يجب أن يكون في ضمن النظام العام الذي لا يختلف فيه اقليم عن اقليم ، فلا يصح أن يحرم اقليم الربا ، ويبيحه اقليم آخر ، فانه حينئذ لا تكون جامعة اسلامية لأن أساس الجامعة الاسلامية هو تنفيذ أحكام الاسلام مجتمعين لا متفرقين ، والا كانت الفرقة أشد وأقوى ، لأن مؤداه أن بعض الشعوب الاسلامية تكون مستبيحة ما حرم الله . والأخرى طائعة ولا اجتماع بين عاص للاسلام وطائع له ، وان الذين غلبوا على ديارنا من الفرنجة وغيرهم هم الذين سهلوا لأبنائنا الخروج على المبادئ الاسلامية ليلتهمونا ، وليفرقوا ديننا ، ويفسدوا أمرنا ، وما جمعه الله تعالى لا يقبل التفريق وما فرقه أعداء الدين لا يقبل التصديق .

هذا بالنسبة للأحكام التي تثبت بالكتاب والسنة ، فانه لا مرأى في عموم تطبيقها .

انما الذى قد يكون الحكم فيه فى اقليم غيره فى اقليم ، فهو فيما وراء الكتاب والسنة من اجتهاد فى أبواب التعزير ، وما تقوم عليه المصالح فى المعاملات ، فان كل اقليم أدرى بمصالحه ، بشرط ألا يخرج عن نص شرعى ، أو يخالف ما علم من الدين بالضرورة وما انعقد عليه اجماع المسلمين مما حرمه الدين أو أباحه ونص على أنه حلال • فما جاء النص بأنه حلال لا مجال لتحريمه ، حتى لا يقع فى النهى ، فى قوله تعالى : « **ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب** » •

١٣٥ — ومن الناس من يثيرون اعتراضا تحت تأثير الأفكار الأوروبية التى نهجم الاسلام ، فيقولون ان الضمير العالمى ، لا يقبل تشويه الأجسام بقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو بصلب الجناة ، فان ذلك تعذيب للبشر ، وهكذا •• يرحمون الجناة ، ولا يرحمون فريستهم ، ولقد رد عليهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « **من لا يرحم لا يرحم** » ورد الله تعالى عليهم فى جلد الزناة ، بقوله تعالى : « **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » •

ونقول ما هذا الضمير العالمى ؟ أهو الضمير الذى أباح سفك دماء الأبرياء ، أم هو الضمير الذى سوغ الخراج المؤمنين من ديارهم وأموالهم يأكلهم العرى والجوع ، وأن لا مأوى لهم ، انه لا يوجد ضمير عالمى يستنكر المنكر ، ويقر العدل ويمنع الظلم ، انما هو قانون العاقبة الذى لا يرعى الا ولا ذمة ، ولا خلقا ولا فضيلة •

وان قطع الأيدي لا يوجد تشويها بل يمنع الجريمة ، وكم من أيدٍ قطعها السراق ليأخذوا حايها ، وكم جريمة قتل وقعت فى السرقات باكره ، وكم أجسام شوهدت فى سبيل اكمال جريمة ، ان كل ذلك يقع بسبب جريمة السرقة ، فهل تشويه الأجسام يباح للمجرمين ، ويحرم على العادلين الذين يريدون أن يمنعوا الفساد ؟

وأولئك الذين يستكثرون عقوبة الحرابة للعصابات نسالهم : كم انتهكت

العصابات الحرمات في المدن الأمريكية الكبرى ، حتى أن قائل الأميركيان يقول
ان بعض العصابات لها ميزان من المال يبلغ في مداره موازنة الولاية التي تعيش
فيها تلك العصابة .

اتنا في هذا المقام ننصح أمريكا أن تأخذ بحكم القرآن ، فان تنفيذه في
واحدة منها يقضى على جميعها ، ولكنهم تعمدوا أن يدافعوا عن الجريمة ،
ولا يرتضوا الفضيلة ، ولو كانت علاجاً لداء عندهم ، كئسان كل من استمرأ الشر
واستطابه ، فانه لا يذوق الخير ولا يستطيه .

اننا ضعفنا واستخذينا عندما كنا نسترضى أعداءنا على حساب الدين
والقرآن . فصرنا نهبا مقسوما ، يتقاسمنا الأعداء وتنوشنا ذئابهم .

ألا فلنرجع لديننا ، ولا يصح أن تكون جامعة الاسلام مستمدة للأحكام
من غير الاسلام ، ولا تستمد الأحكام من الاسلام ، اذا جعلنا القرآن مهجورا
وإذا كان قائلهم يقول « اذا كان القرآن في الأرض فلا سلام » . فنحن نقول
مقالة القرآن : ما دام القرآن قائما يطاع في حكمه فالسلام يقوم ، ولا استسلام
في الأرض انما نصر الضعفاء ، ودفح الظلم ، وسيادة الفضيلة ، ونقول لاذين
يريدون ارضاء أعداء الاسلام باسم الضمير العالمي ، وخشية ملام الناس نقول
لهم : أتخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ، توبوا الى الله ، وساهموا في
بناء الوحدة الاسلامية ، ولا تكونوا معاول هدم في بنيانها ، وتعاونوا أعداء الله
وأعداء الحق في تقويضها ، كما كانوا ، وكما هم كائنون .

١٣٦ — وقد يقول قائل : اننا اذا جمعنا الأقاليم الاسلامية في ظل القرآن
والسنة ، فبأى المذاهب تكون الجامعة ، وما القائلون المسطور الذي تنفذ
أحكامه ؟ ان الناس الآن لا يخضعون الا لقائلون مسطور ، فليس لدى كل انسان
من عامة الناس القدرة على فهم نصوص القرآن . وجمع الرويات عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فان ذلك اجتهاد ولا بد أن يكون الاجتهاد لأهله من
أهل العلم بالقرآن واللغة والسنة ، ومن لهم قدرة على الفهم والاستنباط ،
وايس ذلك متوافرا الا للخاصة من أهل الذكر ، ولقد كان منذ عصر الصحابة

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيهم المجتهد الذي يفتى كعلی بن أبی طالب ،
وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ،
ومعاذ بن جبل ، وفيهم المستفتى الذي ليس عنده دراية هؤلاء .

فما السبيل الى قانون مسطور ، وما المذهب الذي يفتار ؟

ونقول في الجواب عن ذلك أنه قد قدمت بحوث كانت فيها دعوة لأن تكون
الشریعة الإسلامية أساسا للقوانين في البلاد الإسلامية ، فما نقوله الآن ليس
بدعا من الفكر ، ولا بديئا من القول نقوله ، ولكننا فيه متبعون ، ونحن ممن
يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وقد دعا الى هذا الأمر مؤتمر مجمع البحوث
الإسلامية في انعقادين من انعقاده .

وقد حرك ذلك مجمع البحوث ، لاتخاذ الأهبة ، فالف لجنة لتقنين الشریعة
ووضعها في قانون مسطور .

وقد سنت لنفسها منهاجا مستقيما قويا .

(أ) جعلت لكل مذهب لجنة فرعية ، مؤلفة من رجال الفقه والقانون فرجال
الفقه : يجمعون الأحكام في المذاهب ، ورجال القانون يضعون الأحكام في
الصيغة القانونية ، وذلك لدربتهم على هذا .

فاخترنا لجنة فرعية لمذهب أبی حنيفة وثانية لمذهب مالك ، وثالثة لمذهب
الشافعي ، ورابعة لمذهب أحمد بن حنبل ، وخامسة للشيعة الامامية والزيدية
والظاهرية والاباضية .

وان هذه اللجان تسير في طريقها قدما ، في عزيمة ناهضة ، وقلوب مؤمنة
مخلصة ، وان هذه اللجان الفرعية سارت في عملها : تكلؤها عناية الله .

هذا ويلاحظ أن الأحكام التي دلت عليها النصوص القرآنية لا اختلاف
فيها ، واذا كان اختلاف في دلالة بعض الألفاظ التي تحتل عدة معان ،

والقرآن حمال وجوه كلها حق ، وكلها خير ، ولا حيرة فيها ، ولا ما يشبهه
الحيرة • وأحكام الأحاديث فيما يتعلق بالعبادات الاختلاف فيها جزئى وقليل
جدا ، وهو فى بعض التفريعات . ولا يكون فى أمر جوهرى قط ، إنما هو فى
بعض السنن فى الأركان ، وبعض النوافل •

وان السير فى طريق الجمع ليس بعسير ، بل هو تأليف بين مؤتلف ، وليس
جمعا لأمر مختلف ، والله يوفق العاملين للوحدة الإسلامية المقدسة •

الثقافة في الجامعة الإسلامية

١٣٧ - انه لا تتحقق الوحدة الاسلامية الجامعة الا بتوجيه النفس الاسلامية الى اتجاه واحد . وقد بينا ذلك في وحدة العقيدة ، ووحدة الحكم الاسلامى المأخوذ من القرآن والسنة ، بأن يكون الجميع خاضعين لحكمهما كما قال عليه الصلاة والسلام : « تركت لكم ما ان أخذتم به لا تضلون من بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » ، فذلك هو لب الاجتماع وبغيره لا تكون جامعة اسلامية ، وسمها ما شئت من غير أن تكون جامعة اسلامية ، بل سمها ، جامعة شرقية ، أو جامعة عربية ، لا تفلح جامعة من غير أن يكون الاسلام هو العروة التى تربطها والجانب الذى يركن اليه ، فالأحكام المقررة فى الاسلام هى عماد الجمع ، ودعامته .

ان الوحدة الثقافية تتضمّن وحدة التفكير بين الأقاليم الاسلامية .

وفى الحق أن أصل هذه الوحدة ثابت فى الجملة ، ولكنه موثق بأفكار غربية عند بعض المثقفين فى الأقاليم الاسلامية على مقدار تأثيرهم بأفكار الغرب اذ يخالطونها بالعقائد ، وانه يجب أن نقرر هنا أنه لا يوجد وحدة بين آحاد أهل دين ، أو أهل مذهب اقتصادى أو اجتماعى كما يوجد بين عامة المسلمين واخوانهم المؤمنين بشريعة القرآن . ولقد قدر لى وأنا فى الندوة الاسلامية التى انعقدت فى لاهور فى آخر ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، وأول يناير سنة ١٩٥٨ أن التلقى بالوفود التى نزحت من البلاد الاسلامية على اختلاف الطوائف فيها فما وجدت ثغرة فكرية تحول بينى وبينهم . لا فرق فى ذلك بين جماعى وشيعى ، ولا بين حسينى وروسى وتركى .

واذا كانت هناك فواصل بين أحد من الحاضرين ، فانها كانت بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمون بأسماء اسلامية ، كرجل كان يهدم أحكام آية المواريث ، ويدعى أنها وقتية ، وأمثاله ممن نبذ المؤتمر كلامهم ، كما كان ينبذ انشواذ فى صحراء الجاهلية . وان السبب فى ذلك الاتحاد الفكرى أو تقاربه

هو وحده المصدر وهي نصوص القرآن ، وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم ،
وان كان ثمة اختلاف في طريق روايتها لا في أصلها •

ونقول انهم يتفقون فكريا في هذا الأصل ، ولكن الأكثرين مع الأسف
عند العمل يتجانفون لاثم فلا يعملون بأحكام القرآن والسنة مع الايمان بأنهما
الأصل ، ونريد أن يفتن الفكر بالعمل ، فلا تكون الثقافة واحدة ، والعمل
غير واحد •

ان وجود أصل الوحدة في الثقافة الاسلامية أمر ثابت لا مجال للريب فيه ،
فنواة الوحدة الثقافية الاسلامية والنفسية ثابت في كل البلاد الاسلامية مهما
تختلف فيها الطوائف والمذاهب • انما الأمر الذي نريده هو العمل على انماء
هذه الوحدة ، وايجاد مجتمع فكري موحد يبنى دعائم الاسلام ويقف حاجزا
دون النزعات المنحرفة التي يحاول الأجنبي وصفائه أن تشغل في نفوس
المسلمين ، وبث الريب في الحقائق الاسلامية ، ويحارب الذين اصطفاهم أعداء
الاسلام ، ليحلوا عراه •

واننا في هذا السبيل نتجه الى أمور :

جمع التراث الاسلامي :

١٣٨ - يجب جمع تراث الماضي في كل البلاد الاسلامية ، لا فرق في ذلك
بين ما تركه فقهاء الأمصار ، وما تركه علماء الشيعة الامامية والزيدية ، بله
الاسماعيلية من مذاهب وآراء ، من فروع وأصول العقيدة مما لا يؤثر في أصل
التوحيد الذي هو ركن العقيدة الاسلامية مع شهادة أن محمدا رسول الله •

ان ذلك هو تراثنا جميعا لا تراث طائفة واحدة منا ، واذا كان الأوروبيون
الذين لا يؤمنون بالاسلام يتجهون الى المذاهب يدرسونها ، فنحن أهلها أولى
بها وبعلمها •

وقد يقول قائل : « ان في بعض هذه المنقولات ، ما يتجاني عن بعض المقررات
الاسلامية الثابتة » •

ونقول في الجواب عن ذلك ان اعلانها قد يكون سبيلا للقضاء عليها لأن النور يميمت ما لا ينمو الا في الظلام ، وانها تحمل في نفسها أحيانا كثيرة دليل بطلانها ، وبذلك يمتنع الناس من اعتناقها والأخذ بها ، وان على المؤمنين مجتمعين أن يهدوا الضال ، لا أن يتركوه في غيب من الخطأ لا يجد فيه رشادا .

وان أكثر هؤلاء لم يصنعهم أجنبي ، وأصل الاخلاص ثابت فيهم ، وكثيرون منهم طلاب حق فعلينا أن نبين الطريق الى النور وخطوهم لا يمنع أن يكونوا معنا ، ولقد قال الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه في الجنة « ليس من طلاب الحق فأخطاه - كمن طلب الباطل فأصابه » .

ومهما يكن في بعض الآراء من مخالفة لما نقول والمعقول فهو من التركة التي نقوم عليها ، ولا نرمل التركة ، لأن فيها بعض الزيوف ، بل يجب أن نحصنها فحس الصيرفي ليستبعد زيفها ، ويحفظ جيدها .

واننا بهذه الدراسة للتركة الاسلامية الثرية من غير محاولة لتفضيل طائفة على أخرى نحقق مقاصد ثلاثة :

١ - وصل ماضي الأمة بحاضرها ، فان كل حضارة لها اطار من الأفكار والموروثات تصل ما بين الحاضر والغابر ، وان تقدم هذه الأمة يجب أن يكون متصلا بتاريخها ، كما قال الامام جمال الدين الأفغانى حكيم الاسلام ، وأول داع الى الوحدة الاسلامية في عصرنا ، وباعث الوعي الفكرى في كل بلاد الاسلام .

٢ - وألا يكون العالَم الاسلامى منحاذا في جانب من جوانبه ، بحيث لا ينتجه الى الجانب الآخر ، ولا يتعرف ما فيه ، فتلك عصبية مذهبية أو طائفية تاتفى مع العصبية الجاهلية في نتائجها وثمراتها ، وان خالفت في منبعها وأسبابها ، فتلك نعرة جنسية نسبية ، وهذا انحراف فكرى وتعصب مذهبى .

٣ — أن تتقارب الطوائف الإسلامية ، فان دراسة التراث الإسلامى كله من غير تجزئة ، بحيث تدرس كل طائفة ما عند الأخرى — يقرب ما بين الطوائف ، ويزيل تلك النعرة غير الطبيعية التى خلفتها الاختلافات القديمة فى الماضى •

وان هذا يتحقق لنا به هدف مقصود ، وهو التقريب ما بين الطوائف ، بحيث يكون خلافها مذهبيا كالخلاف بين الحنفية والمالكية والحنابلة ونحن فى مصر ندرس بعض آراء الامامية على أساس أنه مذهب يؤخذ منه ، وكذلك ندرس الزيدية بل ندرس بعض آراء الاباضية •

ان التقريب بين الطوائف الإسلامية يجب أن يكون غاية مقصودة فى الجامعة الإسلامية ، ان أسباب الخلاف قد زالت ، ومن الخطأ أن يبقى الخلاف الطائفى مع زوال أسبابه ، وكيف يكون بيننا تنافر فكرى بسبب أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر ، أو أنهما أفضل منه « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت » ومعاذ الله تعالى أن يكون من ولئلك الأبرار من ارتكب خطيئة أو اثما نحو الاسلام ، ولقد سئل الامام الشافعى عن أهل صفين ، فقال رضى الله عنه « واقعة قد كفانى الله شهودها ، فلماذا لا أبرئ لسانى من الخوض فيها » •

اننا نقول مع الأسف الشديد أن الخلاف الطائفى يشبه أن يكون نزعة عنصرية ، وان الذين يريدون الكيد للمسلمين يتخذون من ذلك منفذا ينفذون منه الى صفوفهم ، ليقطعوا الوحدة الإسلامية ، فيجب أن نسد الطريق أمامهم • وقد جرب المسلمون ذلك فى الماضى الذى ذكرناه ، فيجب أن نعتبر به ، فالماضى نور يضىء الحاضر •

ان الخلاف بين الطوائف ليس فى أمر ما يتصل بعقيدة التوحيد وبشهادته أن لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بالأصول التى تعتبر لب الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وغيرها مما جاء به نص القرآن الكريم ، وجل الخلاف الطائفى ليس فى مسائل تتعلق باللب ، وان ادعت بعض الطوائف أنها من اللب •

لهذه الأمور نرى أن الطوائف الإسلامية يجب أن تتفق وتتلاقى على محبة من الله ورضوان ، تحت ظل كتاب الله تعالى ، والسنة الصحيحة ، والمقررات الصحيحة التي علمت من الدين بالضرورة * انه لا مانع من أن نختلف ، ولكن اختلاف آحاد في مسائل علمية ، ولا يكون اختلافنا اختلاف جماعات وطوائف تفرق شمل الأمة ، وتجعلها قطعاً متنازعة متنافرة *

تحويل الطائفية الى مذهبية :

١٣٩ — لسنا نقصد محق الطائفية ، وادماج المذاهب الإسلامية في مذهب واحد ، فان ذلك لا يجوز ، ولو جاز لا يكون عملاً ذا فائدة لأن ادماج المذاهب في مذهب واحد ليس عملاً علمياً عند العلماء فان كل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه ، تنتج في مجموعها الى النصوص الإسلامية والبناء عليها ، وهو ثمرات جهود الأكابر العلماء في كل مذهب ، وكل ادماج فيه افناء ، وليس من المصلحة العلمية في شيء افناء تلك الجهود الفكرية التي قامت في ظل القرآن والسنة الثابتة ، يجب أن تكون كل الجهود قائمة على أصولها ، يرجع اليها ويختار أصلها للعمل وأكثرها ملاءمة مع مصالح الانسان في كل الأزمان ، وأقواها اتصالاً بالقرآن مع بقاء المصدر في موضعه يرجع اليه *

وفوق ذلك فان المذاهب الإسلامية تراث علمي هو لجميع المسلمين ، لا لطائفة من الطوائف ، ومن المصلحة العلمية الاستحفاظ عليه ليبقى تراثاً خالداً *

وان الأمم الأوربية على اختلاف قوانينها تدرس القانون الروماني والشرائع القديمة ، لأنها ثقافة لا بد منها ، فكيف نفكر في اهمال جزء من ثقافتنا العالية التي كانت في القرون الماضية في ظل الاسلام ، وحملت معها صور الفكر في تلك القرون *

وفوق ذلك فان ادماج المذاهب بعضها في بعض فوق أنه لا يصح أن يكون — لا يمكن أن يكون ، بل هو أمر لا ينال ، اذ أن أساس الادماج هو الاتفاق على مذهب واحد ، وأن الاتفاق في الفروع على رأى واحد أمر غير

يمكن ، بل هو من قبيل المستحيل الذى لا يدرك ، فانا اذا خلصنا الفقهاء من التعصب المذهبى لا يمكن أن نقدر انفسناهم فى منازعهم الفكرية ، وبيئاتهم الاجتماعية .

وهنا يثور اعتراض يبدو بادىء الرأى وجيها . وهو : كيف يمكن محو الطائفية ، وبقاء المذاهب التى تحملها هذه الطوائف ؟

ونحن نقول فى الجواب عن ذلك : ان المذهب ليس ملازما للطائفة ملازمة لا يقبل الانفكاك عنها ، ولا يتصور له وجود من غيرها ، فان الطائفة جماعة تتجمع حول مذهب تعتنقه ، وتدعو اليه ، ويعد كل من لا يعتنقه خارجا عنها ، وليس منها .

أما المذهب فهو مجموعة علمية تبقى حافظة كيانها ثابتة ، لأنه تراث فكرى ، وهو أمر معنوى منفصل فى التصور عن الجماعة التى تعتنقه ، فاذا دعونا الى محو الطائفية فمعنى ذلك ألا يكون ذلك التجمع الذى يختص فى موضع من الأرض بعنوان طائفى ، ويعد المتجمعون أنفسهم موجودا منفصلا عن غيره من المسلمين .

واذا انفصل المذهب عن الطائفية كان لكل مسلم أن يعتنقه أو بعضه من غير أن يدخل فى تجمع طائفى ، فيصح للسنى أن يأخذ بفروع الفقه فى مذهب الامام زيد من غير أن يعد شيعيا زيديا ، وأن يتبع الامام جعفر الصادق فيما صح النقل فيه عنه ، من غير أن يكون اماميا اثنا عشريا أو اسماعيليا ، ويصح أن يختار بعضا من المذهب من غير أن يدخل فى طائفته .

وان ذاك ينمى المذهب ، ويحييه ، وينشره ، ويكثر أتباعه ، فان انحيازه فى طائفة معينة ، قد يكون حجابا يمنع غيرها من أن يدرك ما فى هذا المذهب من آراء قيمة صالحة ذات فائدة خاصة ، أو ذات دليل أقوى أو أكثر ملاءمة للناس من غير مخالفة للنصوص ولا للمقررات الشرعية الثابتة التى لا يصح لعالم أن يخالفها .

وأنه من الحق علينا أن نقول : ان مصر منذ نحو أربعين سنة قد أخذت نظام الأسرة من المذاهب المختلفة ، فأخذت من الامامية والمالكية والحنابلة وتحالت من التقيد بمذهب أبى حنيفة ، فاجتازت بذلك المحاجزات المانعة ، غير ملتفتة للمنزغ الطائفى .

ففى الطلاق المعلق أخذت بمذهب الشيعة الامامية ، فلم توقعه على تغيير قليل فيه اذ التفتت الى مقصد المعلق ، وأخذت بأن الطلاق الثلاث لا يقع الا طائفة واحدة ، وهو أحد الآراء فى مذهب الامام جعفر الصادق مذهب الامامية ، وقد قيل أنها أخذت من فتاوى ابن تيمية ، وهو قد حصر فى فتاويه بأنه أخذ من مذهب الامامية ، وان لم يصرح باسمهم فقد صرح باسم أئمتهم .

وفى القانون رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣ وهو قانون الميراث أخذ بمذهب الامامية فى جعل الميراث لمولى العتاقة أو كما سماه الامامية مولى النعمة اذا لم يكن وارث بالنسب أو السبب .

وفى القانون رقم ٧١ لسنة ١٩٤٦ ، وهو قانون الوصية أخذ بمذهب الامامية فى جواز الوصية للوارث .

والمشروع الذى وضعته لجنة الأحوال الشخصية التى ألفتها رئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٠ ، أخذت من مذهب الامامية أن الطلاق لا يقع الا أمام شاهدى عدل ، وأخذت من مذهب الظاهرية أنه لا يقع فى غيبة الزوجة الا بعد علمها .

وهكذا اجتازت مصر كل حاجز يمنعها من اعتبار الامامية مذهباً وأنه يحق لبعض العلماء فى مصر أن يفاخروا العالم الاسلامى بأنهم أزالوا الحجرات التى تفرق بين الأمة الاسلامية فى الفروع ، وكانت فى هذا ترجح تلك المذاهب بالدليل أحياناً وبرعاية المصالح أحياناً مادامت لا تعارض نصاً من النصوص الشرعية .

التعارف الاسلامى :

١٤٠ - نقصد بالتعارف الاسلامى أن يعيش كل مسلم فى أى اقليم من الأقاليم الاسلامية ، أو على الأقل يمكنه أن يعرفه فى دراسة للكتب أو برحلات بقوم بها ، أو نحو ذلك من طرق التعارف المختلفة ، وأن السبيل لذلك أن تكون عند كل اقليم اسلامى دراسة كاماة لغيره من الأقاليم ، كما يدرس الاقليم ، ذاته فان كل أرض الاسلام ملك لكل المسلمين ، ولا يجوز أن يجهل انسان أرضه ، فان جهل فقد سفه نفسه .

وانه لذلك يجب أن يدرس تاريخ دخول الاسلام فى كل اقليم اسلامى وكيف كانت حاله ، وما أقامه فيه من حضارات عادلة ، وما قوضه من عادات أو تفاليد لم تكن عادلة ، فيعرف تاريخ الاقليم فى جادليته واسلامه .

وتعريف حال كل اقليم ، وما فيه من ينابيع الثروة والخير ، وحال هذا الاقليم فى معاملته الخارجية ، وما ينبغى أن تكون عليه بعد الوحدة الجامعة ، فمثلا تعرف المنابع الطبيعية للثروة فى أندونيسيا وما فيها من خيرات الأرض مما لو تسابق اليه المسلمون لعمت فائدته لهم بدل أن يكون لأعداء الاسلام فى البلاد التى تقربص للاسلام بالمكيدة تدبرها ، وبالشديدة تنزلها .

ان كل معدن أو ركاز فى باطن أرض اسلامية هو للمسلمين أجمعين ، وليس لأهل الاقليم الا حصة فيه بمقدار نسبتته فى تعداد المسلمين .

وانه لأجل أن يكون هذا التعريف كاملا يجب :

(أ) أن يكون من ضمن مناهج التدريس فى المدارس الاعدادية والثانوية موضع لدراسة تاريخ كل اقليم اسلامى وجغرافيته الطبيعية والاقتصادية ، وما تصدده من خيرات ، وما تكتنزه أرضها من فيزات ، وأنه لمن التخازل الاسلامى الذى يعد عارا أن يدرس الطالب المسلم جغرافية انجلترا وفرنسا ، وأمريكا وتاريخ هذه البلاد ، ولا يعرف تاريخ باكستان ولا أندونيسيا ، ولا تعدادهما .

لنا أن نقول : ليس العار في دراسة البلاد الأجنبية ، لأن هذه الدراسة علم ولا عيب ولا عار في تعرف علم من أى جانب كان ، إنما العيب كل العيب ، والعار أن يجهل تاريخ بلاد الاسلام ، واذا ذكرت لا يعرفها المثقف الا عن طريق الفرنجة ، وعلمهم في ذلك شأنه تحرى كتابه ألا يذكر الحقائق كاملة ، أو لا يذكرها سليمة كل السلامة ، بل انهم ينقصون عدد المسلمين فيها ، ويطففون فيهم •

لقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا التقى المسلمان فلم يتعارفا نقص من ايمانهما » فكيف تكون الحال ، ونحن نجهل أهل الاسلام ، وهم أهلنا ، وأرضهم هي أرضنا •

ان الدين الاسلامي دين تعارف ، ولقد رويانا من قبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الاسلام أن تتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وللحديث معنى يؤدي من لفظه ، ومعنى يفهم بالاشارة وهو أن التعارف الاسلامي واجب •

وان الطلبة يجب أن يهيأوا وهم صغار على أن يفتحوا عيونهم الى المسلمين ، ليكون الاسلام وأهداه في قلوبهم منذ نعومة أظفارهم •

(ب) وأنه من طريق التعارف الاسلامي انيفاد بعوث علمية من علماء المسلمين أهل الخبرة في طبائع الأتسياء ليدرسوا أراضى الاسلام ، وما عساه يكون فيها من خير ينفع الجميع ، ولا يقتصر نفعه على الاقليم ، وأنه يجب مع ذلك القيام بتقويم للبلاد الاسلامية ، تحصى فيه مواردها ، وسكانها ، وتبين أحوالهم الاجتماعية ، وقد همت بذلك بعض الجماعات ، وأن تنتظم رحلات مستمرة من شباب الأمة وكهولها ، ليعرفوا اخوانهم في أقاليم الاسلام ، بحيث يوجد احساس عام ، باللقاء المستمر • ان كثيرين من المسلمين يتجهون الى المصايف الأوروبية ، والأثرياء ينفقون أموالهم اسرافا وبدارا هنالك في فرنسا وسويسرا اليهودية في منزعا ، وفي تعصبها ، وايطاليا ، وهكذا •• بينما في البلاد الاسلامية مصايف ومشات تهواها الأنفس ، وفيها متعة الرحلة ، ومتعة السياحة والاصطياف ، ومتعة اللقاء الاسلامي •

ونريد أن نذكر أمرا جديرا بالاعتبار ، واستخلاص العبرة والموعظة هو أن الأوربيين والأمريكان يستمتعون بالذهاب الى أسبانيا ، حتى ذكروا أنها أكبر بلد يستفيد من السياحة ، حتى قدروا مورده من السياحة بنحو مليار من الدولارات أو يزيد ، وما الذى يستمتع به الأمريكيون فى أسبانيا ، انهم يستمتعون بأمرين — أولهما — جمال الآثار التى تركها العرب وربما يكون ذلك بالمحل الثانى ، لا بالمحل الأول — وثانيهما — وهو المحل الأول — أن يستمتعوا بأنهم أخرجوا العرب ، وحولوا مساجدهم الى كنائس ، وما ذنبهم الى أجراس ، وهذا النوع من المتعة هو بالمحل الأول لا بالمحل الثانى ، فاعتبروا يا أولى الأبصار •

(ج) وهناك طريق للوحدة والتعارف مفروض فى الاسلام ان أدركنا معناه ، وعرفنا مغزاه ومرماه ، وهو الحج الى بيت الله الحرام ، فانه فريضة محكمة باقية الى يوم القيامة ، والحج كما أثرنا من قبل هو طريق للتعارف الاسلامى لو نظم على وجهه الشرعى الصحيح ، وكان المسلمون الأولون حريصين على أن يجعلوا منه سبيلا للتعارف الاسلامى ، والروايات للأحاديث النبوية والدراسات الفقيرية ، وانك لترى أن أبا حنيفة يلتقى بمالك فى موسمته ويتذكران مسائل الفقه ، ويلتقى بالأوزاعى فى سوق الخياطين بمكة ، وأحمد ابن حنبل يلتقى بالشافعى ويلتقى عليه فتهه فى البيت الحرام ، وكان أبو حنيفة يلتقى بالامام محمد الباقر ، وابنه الامام جعفر الصادق ، ويأخذ عنهما ، وهو يحج الى بيت الله الحرام •

وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على أن يرأسوا موسم الحج بأنفسهم ، وظل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه حريصا على أن يلتقى بعمل الأمصار فى موسم الحج طول خلافته ، وكان يتعرف أحوال الحجاج ومن وراءهم من أهالى الأقاليم • وكان ينزل الى الحجاج من كل اقليم اسلامى يتعرف شؤونهم واحوالهم ، ومعاملة الولاة لهم ، وكان يخطب فى عرفات خطبة جامعة ، يبين فيها علاقة الحاكم بالمحكوم ، وقد سن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى خطبة الوداع سنة التعريف بالاسلام وبحقائقه فى موسم الحج •

وكان أئمة الفقه كما أسلفنا حريصين على حضور موسم الحج فيلتقى علماء الأمصار بعضهم ببعض فيتذكرون مسائل العلم وأحوال المسلمين ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال فيما ذكرنا من بعض لقاء الأئمة * وهكذا كان الحج في الماضي مثابة للتعارف الاسلامي ، فهل لنا أن نطلب الى حكام الأقاليم الاسلامية الالتقاء فيه ليتشاوروا فيما بينهم ، وانه ان تكون لنا قوة في الأرض الا اذا حققنا مقاصد الاسلام في عباداته *

واننا نطالب الحكومة التي تتولى الآن ولاية البلاد في الحجاز ، وسدانة الحرمين الشريفين أن تعمل على أن تمكن المسلمين من أن يتعرف بعضهم ببعض وأن تتعرف بالعلماء الذين يقومون بفريضة الحج ، وتقيم ندوات علمية بينهم ، فالفقهاء يجتمعون في ندوات تتدارس الفقه الاسلامي ، والاقتصاديون يجتمعون في ندوات لدراسة الاقتصاد الاسلامي ، والعمل على تنفيذ أحكام القرآن ، وكذلك المهندسون والأطباء ، وبذلك يكون الحج طريقا للتعارف والمعرفة كما كان البيت الحرام مثابة للناس وأمانا ، وبذلك يشهد المسلمون منافع لهم *

ان هذا أمر يمكن تنفيذه من الآن ، وانه سينظم على وجه أكمل ، اذا قامت الجامعة الاسلامية *

اللغة العربية :

١٤١ — ان معرفة الداء سبيل معرفة الدواء ، وقد علمنا أن امانة اللغة العربية في الأقاليم الاسلامية ، واحياء اللغات الاقليمية كان هو الداء الذي عمل على تفريق المسلمين ، وذهاب ربيع الدولة الاسلامية ، وان ذاك يشير دلتنا الى أن من الأصول الأولى للجامعة الاسلامية احياء اللغة العربية في كل الأقاليم الاسلامية ، لقد كان المسلمون مجتمعين يوم أن كانت لغة الدولة ، ولغة الحكومات في الأقاليم ، فكان حقا عليها أن تردها الى مكانتها ، لأنها لغة القرآن أولا ، ولغة الاجتماع الاسلامي ثانيا ، ووعاء العلم الاسلامي ثالثا * فلا بد أن نعد هذا الوعاء ليكون للمسلمين أجمعين *

وانه مع هذا الاعتبار التاريخي لا يتم التعارف بين المسلمين الا اذا وجدت

لغة جامعة بينهم ، بحيث ينزل المسلم في أى اقليم اسلامى ، فلا يتعذر عليه أو يتعسر الخطاب مع أهله ، ولا يستعصى عليه البيان الا بترجم •

ولا نقصد بذلك اماتة اللغات الاقليمية التي انبعثت مع الشعوبية في القرون الخوالي ، كما أسلفنا في أسباب التفرق ، حتى لا تتحرك العصبية الاقليمية التي يحاول أعداء الاسلام أن يحاربوا بها الوحدة الاسلامية بتأجيج نيرانها وإنما نريد أن يتعلم المسلم المثقف بجوار لغة اقليمه اللغة العربية التي هي الجامعة بين المسلمين ، وهي لغة القرآن ، اننا نرى الشباب المثقف في البلاد الاسلامية يتعلم مع قومه لغة أوربية أو لغتين ، فلو قلنا أن على المسلم المثقف أن يستبدل باحدى اللغتين الأوربيتين لغة تجمع بينه وبين اخوانه المسلمين لا يكون في ذلك شطط أو ارهاق ، ولا نكون قد اعتدينا على قوميتهم ، وان كان يجب أن يكون نظره الى قومه من نظره الى الاسلام ، فلا يصح أن يعين قومه على خفض كلمة الاسلام ، وتعارف المسلمين ، اننا لنرجو أن يكون في قلبه موطن لدينه فوق تعصبه لقومه ، والا كان معيناً قومه على الظلم وتلك هي العصبية الجاهلية ، واذا كنا لا نعارض في انبعاث القومية أو في بقائها فانا نريدها قوة للمسلمين ، وبذلك يكون قومه في حماية المسلمين ، لا في حماية أجنبية لا تريد به الا الخبال والضياع ، كما ضاع من قبل •

اننا ننزل في أى بقعة من أرض الاسلام فنجد من يستطيع التكلم بالانجليزية أو الفرنسية ، ولذلك لا يكون الانجلىزى أو الفرنسى غريباً في أرض الاسلام • بينما العربى اذا نزل في أرض اسلامية يكون غريباً اذا لم يجد الانجليزية أو الفرنسية أو يجد مترجماً بينه وبين أخيه المسلم •

واذا دخل الانجلىزى أو الفرنسى اقليماً اسلامياً وجد من المسلمين من يسارع بالتحدث اليه بلغته مفاخراً بذلك ، ونحن لا نريد أن نلغى تعلم الانجليزية أو الفرنسية كما لا نلغى اللغة القومية من التعليم ، ولكن نريد أن يكون للغة العربية مكان مثل الانجليزية أو الفرنسية ليتمكن المسلم من أن يخاطب أخاه المسلم المثقف من غير توسط مترجم ، أو توسط لغة أخرى •

أليس من العار أنه في البيت الحرام ومهبط الوحي في موسم الحج حيث يلتقى المسلم العربي بالمسلم الهندي ، لا يستطيع أحدهما أن يخاطب الآخر إلا بالانجليزية أو الفرنسية .

وأليس من العرابة أن يدعو الله عالم السر وأخفى باللغة العربية ، ويخاطب أخاه المسلم بالانجليزية أو الفرنسية ، وإذا لم يكن العربي مجيذا لهاتين اللغتين كان المترجم بينهما .

ان وجود لغة جامعة أمر لا بد منه في تكوين الجامعة الاسلامية وإذا كان لنا أن نختار لغة فأى اللغات نختار ؟ ان البدهاه تقول : اللغة العربية . بل ان بعض القراء يجد غرابة في توجيه هذا السؤال ، اذ لا موضع له ، لأن الأمر المتيقن الذي تقره البدهاه لا يسأل عنه ، ويكون السؤال عنه غريبا في المنطق والعقل .

ولسنا ندعو الى العربية احياء للعصية العربية ، أو الأئى معنى يتصل بذلك ، ولكن ندعو اليها ، لأنها أولا لغة القرآن ، ولغة السنة ثانيا ، ولغة العبادة الاسلامية ثالثا ، فهل من المسلمين من يصلى بغير قراءة الفاتحة بالعربية ، وهل من المسلمين من يكبر تكبيرة الاحرام في الصلاة بغير العربية وهل في المسلمين من يحرم في الحج ، ويلبى بغير اللغة العربية ، وهل من المسلمين من يتلو القرآن بغير اللغة العربية . ويعتبر تلاوته عبادة .

لقد أوجب الامام الشافعى كما ذكرنا على كل مسلم أن يعرف قدرا من العربية يصحح به دينه ، وعلى ذلك بنزول القرآن باللغة العربية ، لا بلغة غيرها ، لأنه كيف يسوغ لشخص لا يعرف العربية أن يقرأ سورة الفاتحة من غير أن يفهم ما اشتملت عليه من حمد الله ، وضراعة اليه ، وبيان وحدانيته ورحمته ، وكمال سلطانه ، وكيف يسوغ له أن يقول : الله أكبر ، من غير أن يعرف معناها ، وكيف يسوغ لخطيب أن يخاطب على منبر خطبة الجمعة بالعربية من لا يفهمونها ؟ بل كيف يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يتلو القرآن أو يستمع اليه من غير أن يعرف آيات الترغيب والترهيب ، والآيات الكونية

والآيات التي تبين الأحكام الشرعية من نكاح وطلاق وميراث ، ومعاملات و• حدود وقصاص .

لذلك نجد أن اللغة العربية هي التي تجمع المسلمين في الحاضر ، كما جمعتهم في الماضي . فلسنا والحمد لله ندعو للعربية تعصبا للعرب ولكن ندعو اليها تعصبا للإسلام ، ورغبة في الوحدة الإسلامية .

وان المسلمين المخلصين في كل بقاع الأرض يدركون هذه الحقيقة ويؤمنون بها ، والمتفنون منهم يعلمون ذلك علم اليقين ، الا أولئك الذين طمس الله على بصائرهم فعموا وصموا « انها لا تعنى الأبهار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور » .

ان بعض هؤلاء الأعاجم الذين لا يعرفون من العربية شيئا سوغوا لأنفسهم الاجتهاد معتمدين على القرآن وحده . وهم لا يعرفون كلمة واحدة عربية واثم قوم بور ، أو كما قال الفخر الرازي مقتبسا من القرآن لأمثالهم : « انهم قوم سدى » لم يهتدوا ولم يستمعوا الى كلمة الحق التي تهديهم .

ان اللغة العربية ليست لغة القرآن والسنة فقط ، بل هي لغة التراث الاسلامي كله . فالفقهاء على شتى مناهجهم ومذاهبهم قد دونوا علمهم باللغة العربية وكذلك الفلسفة الاسلامية والتصوف الاسلامي ، وتفسير القرآن والحديث كل أولئك كان باللغة العربية .

وكيف يترك مثقف اسلامي علوم فخر الدين الرازي وعلوم الغزالي ، وعلوم محمود جار الله الزمخشري ، وعلوم أبي بكر الرازي الشهير بالخصاص ، وغيرهم من كبار علماء فارس وخراسان ، وعلماء ما وراء النهر الذين دونوا باللغة العربية كنوزا من العلم وآثار الفكر الاسلامي ، سواء أكانت في المعقول أم كانت في المنقول .

نعم ان بعض الآثار العلمية أو الأدبية كان يصدر بغير اللغة العربية ولكنه نادر ندرة تجعله غير مذكور في الحساب ، وكان في عصر محاربة اللغة العربية ومحاولة احياء اللغات القومية ، وليس على أي حال شيئا مذكورا .

١٤٢ — ان اهمال اللغة العربية اهمال لصدر تارينخنا ، وما ينبغى لمثقف مسلم أن يجهل تاريخ الاسلام ، ولا يليق بمثقف مسلم أن يقرأ عدة تراجم بالانجليزية لخطباء اليونان والرومان وخطب الانجليز ، وكتاباتهم ، ولا يقرأ خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطب على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وخليفة رسول الله صديق هذه الأمة .

ولكن هذه الأمور الغربية صارت أمراً مألوفاً عند أولئك الذين استضعفوا أنفسهم وارتضوا أن يكونوا تابعين لأعداء الاسلام . وذيولاً لدولهم .

ان الشعوب الاسلامية على تباعد أقطارها كل لغاتها متأثرة باللغبة العربية فالفارسية فيها ألفاظ عربية كثيرة . والأردية لغة باكستان أو لغة الهنود عامة فيها ألفاظ عربية تبلغ نحو ستين فى كل مائة أو تزيد .

وذلك لأن اللغة العربية كانت هى اللغة الجامعة فى الماضى ، حتى كان الافتراق ، فعندئذ ضاق ظلها ، أو تقلص ، واقتصر على من يتكلم العربية صحيحة أو عامية ، وان ندر الأول .

ولا أقول ذلك لأنها كانت المظهر الاجتماعى والتلاقى فقط ، بل أقول ذلك ، لهذا ولأن تعلم العربية للمسلم أسهل من تعلم أى لغة أخرى بالنسبة لتلك الأقاليم ، لكثرة الألفاظ العربية فى تلك اللغات ، ولأنهم يتلون القرآن ، بل منهم من يحفظونه وهو باللغة العربية .

ولذلك قال بعض أهل الخبرة : ان الباكستانى يستطيع أن يتعلم العربية وينطق بها فى مدة لا تزيد على ستة شهور مهما تكن سنه . ومهما يكن مقدار ثقافته .

ولقد حاولت باكستان أن تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية بدل الانجليزية التى لا تزال الآن اللغة الرسمية لهذه البلاد المسلمة ، ولكن حال دون ذلك أولئك الذين لا يزال يعيش فى رعوسهم الأجنبى بتفكيره ونزوعه .

وأنة بجوار أولئك الذين تملأ رؤوسهم الحضارة الأوروبية ونزع عنها يوجد وهم مضعف يتوهمون منه صعوبة تعلم العربية ، وغواش من الحواجز التي تحاجز بين الباكستاني وبين دينه الذى توجب حقائقه المقررة معرفة العربية لمن يريد أن يتعرف شؤون دينه من مصادرها العربية ، من القرآن والسنة النبوية ، والفقه الذى استنبطه الأئمة الأعلام ، وغير ذلك مما يتصل بالدين معرفته .

وأنة مما يثير السرور فى بعض النواحي الاسلامية بالنسبة للغة العربية أن كثيرين من العلماء المتخصصين فى الدراسات الاسلامية من الهند وباكستان وفارس وأفغانستان وغيرها يعلمون العربية ويدرسونها .

ولقد وجدنا ليبيا عندما خلعت نير الأجنبى ، وقذفت به فى البحر واستعانت جامعاتها ومعاهدها بمن يدرسن العلوم الاسلامية فى ذلك البلد العربى ، كان ممن استعين بهم بعض الثبان والكهول من عاماء الهند المسلمين ، وبعضهم من تلاميذنا الذين كانوا يؤثرون أن يدرسوا العلوم الاسلامية باللغة العربية .

١٤٣ — اذا كان حقا على كل مسلم أن يتعلم حظا من العربية يصحح به دينه ، كما قرر الامام الشافعى رضى الله عنه ، وكما شرحنا من قبل فانه حق على كل من يعرف العربية أن ينهض لتعليمها ، وان تعليمها لمن يجهلها من المسلمين فرض كفاية على جماهير العارفين بالعربية عامة . فعلى غير العرب أن يتقدموا لتعليمها .

ان كثيرين من البلاد الاسلامية يريدون معرفة العربية لغة دينهم ليفهموا القرآن العظيم من لغته وليتصلوا بمصادر الشرع من غير وساطة تتوسط .

وهناك الجماعات الكثيرة التى نذبت نفسها لهذا العمل الجليل ، وانى لأعرف أن بعض العلماء من الهند وباكستان يقومون بوضع معجم للقرآن باللغة الأردية ، ليسهل على من يحفظ القرآن أن يعرف بلغته معنى ما يقرأ ،

وان حفظة القرآن فيهم عدد كبير يضمن تواتر الفران حفظا وتلاوة في الأجيال .

وان وجود هذا المعجم بلا ريب يفيد من يتكلم الأردية ، ويسهل تعلم العربية ، فانه بهذا يحفظ عددا كبيرا من الألفاظ ، ومقابلها العربى فى أفصح وأبلغ كلام فى الوجود .

ان جماعات فى الباكستان تنشئ المدارس بامداد أهل الخير ، ولكنها لا تجد العدد الكافى من مدرسى العربية ، فعلى البلاد العربية مجتمعة أن ترسل المعلمين اليها ، فان تعلم العربية وتعليمها فريضة محكمة ، قال عليه الصلاة والسلام : « تعلموا العربية وعلموها الناس » . ولا تسقط هذه التبعة الا اذا أجبنا أمر النبى صلى الله عليه وسلم . وهى لسان القرآن . قال تعالى : « نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مهين » .

ترجمة العلوم الى العربية :

١٤٤ — قد يقول قائل ان تعلم اللغات الحية فى البلاد الاسلامية أمر لا بد منه ، لأنها لغات العلم الكونى والانسانى ، وهذا العلم فى تجدد مستمر . وزيادة دائمة ، وقد تغلغلت آثاره فى كل المجتمعات الانسانية ، ومما انتهى اليه العلم غرائب ، لو ذكرت لأهل القرن الماضى لكانت من العجائب المعجزات ، ولا يزال يخطو الى الأمام ، والتخلف عنه تخلف عن ركب الانسانية ، وما يسوغ أن تتخلف الجامعة الاسلامية عن المركب السائر ، والا كانت مأكولة لا محالة ، وكأنها تجتمع لتؤكل ، ولتلتهم ، فلا بد من دراسة اللغات الحية بين المثقفين فيها ، واذا كان العلم بالعربية فرضا كفائيا ، فانا نحسب أن العلم الكونى فرض كفائى أيضا ، لأنه لا تستغنى عنه الجماعات ، ولا بد أن يتولى كل اقلية من يتابع الزيادة المستمرة فى علم الكون وعلم الانسان ، والصناعات ، وما يستخرج من المواد الخام التى أودعها الله تعالى باطن الأرض ، ان ذلك أمر لا بد منه وليس لنا أن نخالفه ، وان ذلك لكائن فى كل البلاد المتحضرة .

ولكنه لا يكفى أن يكون بين المسلمين متخصصون فى هذه العلوم ،

متتبعون لما يزداد فيها ، وما تكشفه العقول الباحثة بل لا بد مع ذلك من أن تترجم هذه العلوم الى اللغة العربية لتستفيد منها انماء وحيوية ، ونجده في علمها * ولقد كان الأقدمون من أسلافنا يقومون بنقل العلوم الى العربية : وقد أبلى في ذلك غير العرب من المسلمين بلاء حسنا ، غابن سينا والفارابي وابن رشد وابن طفيل ، وغيرهم من العلماء ، جعلوا اللغة العربية تزخر بالعلم ، حتى صار العلماء المسلمون أساتذة الغرب ، في ذلك ، فنقلوا لهم منطق أرسطو ، وسياسة أفلاطون فيما سموه المدينة الفاضلة .

ولقد كانت دار الحكمة ببغداد ، مملوءة بعلماء الفلسفة ، والترجمة لكل العلم الهندي في تصوفه ، والعلم اليوناني في منطقته ، وموازن البيان ، كما يرى في كتاب الشفاء لابن سينا ، كانت الترجمة قائمة على قدم وساق ، حتى حالت عليها الحال ، كما قال تعالى : « **وذلك الأيام ندولها بين الناس** » *

وما ضعفت العربية الا يوم ضعف المسلمون ، وتخاذلوا عن نصرتها وعن القيام بحقها وانمائها المستمر ، كما فعل السلف ، وقد تركوا لنا في ذلك تركة قويمية مثرية بالعلم الفيلسفي في كل نواحيه *

ان اللغات الحية تتبادل العلم وما ينتجه العلماء ، فانه لا يظهر كتاب علمي في لغة من اللغات ، حتى تجده فيها قبل أن تنتهي طبعته في لغته *

وان أهل كل لغة عندهم قسم قائم بالترجمة ينتبع الجديد من الكتب التي تحمل جديدا من العلم فيسارعون بنقله الى لغتهم ، ان لم يكن بالترجمة المتتبعة المتقصية فبالتلخيصات الوافية ، ويتولونه بالدراسة والفحص ، وان العلم لا يصح أن تقوم الحاجزات الاقليمية دونه ، وكما قال صاحب كتاب أصيل القرن التاسع عشر الذي ترجم الى العربية بعنوان التربية الاستقلالية : ان العلم كالماء والهواء لا يقع في قبضة أحد ، فهو حق للانسانية كلها *

لهذا يجب أن يجتهد المسلمون ، لا فرق في ذلك بين أعجمي النسب وعربي في تغذية اللغة العربية بالعلم الجديد لتسير في الركب ، ولا يمكن أن يكون لنا مدنية اسلامية تفي وتكفي الا اذا زخرت لغة الجامعة الاسلامية بالعلوم *

ان الجامعة الاسلامية يجب أن تتبع ما ينتجه العلم في الطبيعة والكيمياء
وعلم الأحياء ، وعلم الفضاء ، فينقل الى أمتنا العربية الاسلامية التي هي لغة
جميع المسلمين ، لا فرق بين عربى وأجنبى •

ولا يقال أن العرب أولى بالقيام بهذا الواجب ، لأنها لغتهم ، لا يقال
ذلك ، لأنها لغة الاسلام ، وليست لغة قوم دون قوم ، ونحن نريد من المسلمين
خصوصا المثقفين أن يكونوا على علم كامل بالعربية ، ونريد لها الشراء بالعلوم
الكونية وعلوم الحياة •

ولقد كان الذين تولوا نقل العلم الهندي والفارسي واليوناني الى العربية
من الأعاجم في أنسابهم ، وان كانوا عربا باسلامهم ، والأوروبيون لا يعبرون
عن العلم الاسلامى الا بالعلم العربى وان كان الذين قاموا به من سلالة فارسية
أو بربرية ، أو غير ذلك •

وقد يقال أن اللغة العربية الترجمة اليها قائمة على قدم وساق ، والجامعة
العربية تتولى ترجمة كتب الى العربية ، وذلك القول حق لا ريب فيه ، فان
كبار الأدباء يترجمون •

ولكن الكتب المترجمة في الآداب ، لا في العلوم ، وفي البحوث الاجتماعية
لا في البحوث الكونية ، والجامعة العربية في قسمها الثقافى لم تخرج عن ذلك
النطاق ، بل سارت في ذلك الدرب ، بل انها ترجمت بعض الكتب الأدبية
والاجتماعية التي سبق أن ترجمت من قبل ، ولم تجر احصاء بما ترجم حتى
يكون عملها انشاء ولا يكون تكرارا •

اننا نريد أن تزخر لغة الاسلام بالعلم ، وتتولى ذلك الجامعة الاسلامية
ليتحقق الاكتفاء الذاتى بين الأقاليم الاسلامية •

وكما قلت ان تعلم اللغات الحية لا تغنى عنه الترجمة ، فان النقل عن
علم لغة يقتضى معرفة هذه اللغة ، ولقد نقل اليانا عن المرحوم الأستاذ الشيخ

عبد العزيز جاويش العالم العربى الأديب أن من تزجم كتابا من لغة الى لغة بلده ، فقد نقل علم أهل هذه اللغة الى بلده ، وهذا ما نريده .

ان دور الدراسة والانتاج يجىء دائما بعد دور الترجمة ، ان ذلك هو الترتيب الطبيعى *

لقد ابتدأت الترجمة فى آخر العصر الأموى ، وازدهرت فى العصر العباسى وخصوصا عصر المسامون ، وبعد أن زخرت العربية بالترجمة كانت الدراسة والبناء على العلم الذى نقل الى المسلمين ، ولذلك كان من فلاسفة المسلمين الذين تكلموا فى أرسطو وأفلاطون من لا يعرف اليونانية . كذلك نحن فى هذا العصر اذا زخرت البلاد الاسلامية التى تكون لغتها الرسمية العربية فيما بين أقاليمها وفى داخلها بالعلوم ، اذا أمكن وتحقق ذلك ، فإنه سيكون بعون الله تعالى من بين المسلمين علماء فى الكون يكتشفون خواص المسادة كما يكتشف علماء الغرب ، ويغزون العلم ، كما تغزى لغتهم به .

واننا نلاحظ أن بعض الدول العربية أراد القائمون على الجامعات فيها أن يدرس الطب ، وأن تدرس العلوم الكونية باللغة العربية ليسهل فهمها ، وابتخر العربية بنتائج علمهم . ولتتسع الترجمة فى هذه ولتتكون مكتبة عربية فى هذه العلوم .

وقد نفذت ذلك جامعات فى الدول العربية ، ولكن استنكرت ذلك مصر ، وما كان استنكارها ، الا لأنهم استنقلوا ذلك ، وأخفوا هذا بأن قالوا ، ان اللغة العربية عاجزة عن أن تتسع لهذه العلوم ، وما كان العجز الا فيهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وان ادخال العلوم الكونية فى اللغة العربية ليس بدعا أو جديدا ، انما هو فى المدارس الثانوية منذ زمن بعيد ، ولكن فى المدارس العربية ، وخصوصا بعد أن خرجت من الحكم التركى ، وخلعت الربقة الأجنبية ، ولا يزال بعضها ممن استنقل قريبا يرزح تحت نير اللغة الأجنبية ، وان الله تعالى منقذ لغة القرآن ، وان ترجمة العلم الكونى والطبيعى الى اللغة العربية يقتضى أمرين :

أحدهما : نقل كل المعلومات الى اللغة العربية بالألفاظ التي تتسع لها ألفاظ اللغة العربية من غير اجهاد ولا اعنات *

ثانيهما : الاتجاه الى تعريب الألفاظ الأفرنجية بصقلها بصقل عربي * فان ذلك يزيد اللغة نماء *

جماعة علمية :

١٤٥ — ابتدأت مصر من بين البلاد الاسلامية الى تكوين مجمع البحوث الاسلامية الذي يدعو الى مؤتمر كل عام منذ سنة ١٩٦٤ ، ولم يتخلف اجتماعه الا سنة ١٩٦٧ الأحوال كانت خاصة بمصر أو بالأحرى بالبلاد العربية ، وفي معناها العميق كانت تعم العالم الاسلامي كله ، لأنه يتصل بنكسة الجيوش المصرية سنة ١٩٦٧ ، وقد أخذ اليهود أعداء الله وأعداء الانسانية بيت المقدس وقال طاغوتهم : الآن قد فتح الطريق لمكة والمدينة حيث جثمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أعقاب ذلك حرق المسجد الأقصى مسرى النبي صلى الله عليه وسلم * ولذلك كان الأمر المانع من الانعقاد أمرا يهم المسلمين أجمعين *

كانت المؤتمرات الخمسة التي عقدت يدعى اليها ممثلون الأربعين دولة اسلامية لا يتحرى فيها مذهب ، بل انها جامعة في الجملة للمذاهب الاسلامية من حنفية وشافعية ومالكية ، وجعفرية ، وزيدية *

ولقد قرر كل مؤتمر قرارات كثيرة تهتم المسلمين جميعا ، وخصوصا فيما يتعلق بالمسجد الأقصى ، وانتهاك الحرمات الاسلامية في فلسطين ، وايبياء أرض الله المقدسة التي جبن بنو اسرائيل أن يدخلوها في عهد موسى ، وقالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » *

ولقد كانت القرارات تكتب وتحرر ، وارجع اليها في قرارات المجمع من أول مؤتمر الى الأخير ، ولكن لا تنفذ ، ومهما يكن الأمر في ذلك ، فان عدم تنفيذ قراراته ليس بتقصير من المجمع ، ولكن الذين يجيئون اليه من الوفود الاسلامية يحضرون اليه على أنهم دعوا اليه ، وساهموا في مناقشاته أو لم يساهموا ثم ينفض ، ويعودون الى بلادهم *

والحق أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ، لأن فعل أى شىء يوجب أن يكون للحكام رأى فيه ، وأن يكونوا مؤيدين له ، ولكنهم فى جانب ، والذين حضروا فى جانب آخر ، وما أحسب أن وفدا منهم حاول أن ينفذ أمراً مما قرره المؤتمر كانشاء صندوق لتأييد المقاومة أو نحوه .

ومهما يكن الأمر فى مجمع البحوث الاسلامية الذى أنشأته حكومة القاهرة وتولت تكوين أعضائه ، فإنه يصلح أن يكون نواة لتكوين مجمع اسلامى شامل ، لا يكون تحت رعاية دولة اسلامية واحدة ، بل يكون تحت رعاية الجامعة الاسلامية ممثلة فى مجالسها الذى سنتكلم فى تكوينه من بعد .

وان الخواطر التى تجول فى نفوسنا بالنسبة لهذا المجمع المرتقب ، أن يكون ممثلاً لكل المسلمين من أقصى الصين الى المحيط ، وأن يكون للأقليات الحق فى رفع أمورها وبيان أحوالها لذلك المجمع ، وأن يكون فيه ممثلون لها ، يكون لهم الحق فى تعرف أحوال المسلمين ، وبيان أمورهم ، والنظر فى رفع الظلم عنهم .

ان الملاحظ أن المجمع القائم ، وكله خير ، وان لم يكن فيه كل الخير ، ان أعضائه جميعاً من البلاد العربية فليس فيه عضو من باكستان ، ولا الهند ، ولا أفغانستان ولا ايران ، بل ان بعض البلاد العربية غير ممثلة فيه ، فليس فيه عضو من البلاد الحجازية ، ولا من سوريا ، بينما فيه عضوان من لبنان ، وربما يكونون ثلاثة وليس فيه عضو من المذهب الجعفرى . ولا المذهب الزيدى ، وان كان الجعفرية يدعون الى مؤتمره ، وليس فيه أعضاء من المسلمين فى وسط آسيا ، وان كان يدعى الى المؤتمر علماء من فضلائهم ، ويكون بهم التعارف الاسلامى ، وان لم يكن كاملاً ، لأنه لم يكن بين كل المسلمين أو كل علمائهم .

١٤٦ — ان مجمع البحوث الاسلامية كان فى الأصل الباعث عليه أن يكون جامعاً للمدراسات العلمية الاسلامية فى كل البلاد الاسلامية ، وليكون حلقة اتصال علمى اسلامى بين المسلمين أجمعين .

وما كان يؤدى ذلك الواجب الا اذا كان له استقلال فى دراسته عن كل الأقاليم ، حتى عن مصر الذى أنشأته ، وقد حافظ الذين أشرفوا عليه على

استقلاله ، فكانت آراؤه لا تتقيد بالآراء التي تدعو الى بعضها الحكومة المصرية ذاتها .

وان ذلك بلا ريب فخر لحكومة مصر ، وللمشرفين عليه ، اذ لم يحاولوا أن يفرضوا عليه آراء معينة ، وان الاستقلال الفكري في جماعة علمية هو طريق نجاحها .

وإذا كان ثمة من تجاهل هذا الاستقلال ، أو تجاهل قراراته ، فان ذلك لا يضير المجمع ، وقد انتهى الى قرارات علمية أعلنها ، ودرس أمورا أخرى وحاول أن يشرك فيها علماء المسلمين في كل البلاد الاسلامية ، فله قرارات في نظام الفائدة ونظام التأمين بكل ضروبه ، وقد أرسل الى العلماء نتيجة هذه الدراسة في التأمين ، فلم يجد مجيبا الا بين عدد قليل ، لا يمكن أن نقول : انهم يمثلون الفكر الاسلامي تمثيلا كاملا .

وان ذلك المجمع أراد أن ينشئ له مراكز اسلامية في كل بلد اسلامي ، وتتولى هذه المراكز دراسة الاسلام والمسلمين دراسة علمية ، كل مركز يدرس حال الاسلام في بلده ، ويعمل على تثقيف شعبه والشعوب القريبة منه بالاسلام .

ولكن لم يتم شيء من ذلك ، لأنه يجب أن تتوافر مع رغبة الشعب ارادة الحكومة ومعاونتها ، وقرر أن ينشأ في كل بلد اسلامي صندوق مالي ليمد المجاهدين من الفدائيين المرابطين حول الأرض المقدسة ليجعلوها سما زعافا على محتليها ، وهم يريدون منها أن تكون لبنا وعسلا .

وأردنا أن ننشئ مكاتب للدعوة العامة الى الجهاد ، لأن العدو احتل جزءا من أرض الاسلام بل من أقدسها على المسلمين ، فأصبح الجهاد فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ، بل على كل مسلم ومسلمة كل في حدود ما يستطيع ، فالكاتب يقلمه والخطيب يبيانه ، وذو المال بماله ، ومن يستطيع حمل السيف بسيفه استجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم) واننا ان تقاعسنا عن الاستجابة لله ولنداء رسوله صلى الله عليه وسلم ألقينا نحن المسلمين بأنفسنا الى التهلكة ،

أولم نستمتع الى أمر الله تعالى في قوله: « وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » *

لقد دخل العدو بيت المقدس ، وتحقق نبأ الله تعالى في القرآن : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسوعوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ولينبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » *

لقد دخلوا المسجد وتبروا ما علوا تتبيرا ، بل حرقوه ، فهل نعود الى الله تعالى ونجتمع ؟ هل ننتظر الى أن يذهبوا الى الروضة الشريفة ، والمسجد الحرام بعد المسجد الأقصى ؟ *

قرر مجمع البحوث الاسلامية أو قرر مؤتمره الأخير وما قبله انشاء مكتب لبيان ذلك ، ولكن لم ينشأ المكتب ، ولم يبدأ العمل *

١٤٧ — لقد ذكر من قبل في ذلك البحث أن مجمع البحوث الاسلامية نواة لمجمع أوسع شهولا ، وأعم نفعا وأكثر عملا ، ولكن ثمة معوقون لا يؤمنون به ، فقد حدث أن أحد المسئولين ذهب الى أحد المؤتمرات الاسلامية في آسيا ودعا الى نقيض ما قرر المجمع في مصر ، نعم ان المؤتمر لم يوافق على ما طلب ولكن هذا صور أن المجمع في مصر يوجد من لا يؤمن به ، وبعضهم من المشغولين بالمسائل الاسلامية ومن له اشراف عليه *

واذا كان نواة للمجمع المرموق المطلوب ، فانه بلا ريب يجب أن يكون في ظل الجامعة الاسلامية ، ومجلس ادارتها الذي سنتكلم عنه قريبا ، لكي يكون له الاستقلال الكامل ، وان كانت حكومة مصر قد راعت استقلاله ابتداء ، ولم يمس استقلاله الا أخيرا ، وان كان مسا خفيفا *

وانه اذا كان في ظل الجامعة الاسلامية ، وقد تكونت ، فان قراراته ستكون

موضع التنفيذ ، إذ أن الحكومات الإسلامية ستكون منفذة لقراراتها وقرار
الهيئات المستقلة بظلم الوارف •

وانه يجب أن يكون له فروع في البلاد الإسلامية كلها تتولى دراسة الاقليم
وحاله الحاضر ، وما يحتاج العلم الاسلامي فيه ، ويكون لفرع المجمع نوع
اتراف على الدراسة الدينية في تلك البلاد ، وتوجيهها بحيث لا تكون مجانية
لما تدعو اليه مقاصد الجامعة الاسلامية التي هي القوة المسيطرة على
الثقافات كلها •

وغير بعيد ما ذكرناه من أنه يجب أن يكون ممثلا لكل الأمم الاسلامية في
مركزه العام ، بحيث يكون المركز العام له أعضاء ، ممثلون للمجامع الفرعية •

وان المجمع الرئيسي وفروعه يجب أن يعنى عناية خاصة بالأقليات
الاسلامية في كل البلاد ، بحيث يمدّها بالثقافة الاسلامية ، ويعينها على رفع
الظلم ان كان ، ويسهل لها الانتقال الى بلد اسلامي قريب ان لم يتيسر رفع
انظلم لكيلا يعيشوا مستضعفين في الأرض ، والله تعالى يقول : « ان الذين
توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض
قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت
مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة
ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا ،
ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من
بيته مهاجرا الى الله ورسوله ، ثم يدرکه الموت ، فقد وقع أجره على الله وكان
الله غفورا رحيفا » •

وانه يجب على المجمع بعد دراسته أن يبلغ مجلس ادارة الجامعة الاسلامية
حيال هؤلاء المستضعفين ، وليستعد لعمل ما ينبغى عمله سياسيا ودوليا ، بل
حربيا ان أوجبت الحال ، حتى لا يخذل مسلما في موضع يحتاج فيه الى النصرة ،
فان رفع الضيم هو سبيل العزة •

وقد سارت الدولة العثمانية تنحدر نحو الهاوية من وقت أن تركت الأندلس تأكلها ذئاب الانسانية ولم تمنعها قوتها الحربية من التردى وان حاول حكامها أن يسموا أنفسهم أمراء المؤمنين *

الجماعة العلمية أوسع شمولاً :

١٤٨ - اذا كان المجمع الاسلامى واسع الشمول فى الاتصال بالبلاد الاسلامية وهو المنبه لما يجب من الدراسات الدينية عامة ، واليه ينتهى التجمع العلمى الدينى للاسلام ، واذا كان كذلك ، فان الجماعة العلمية أشمل فى موضوعاتها من مجمع البحوث وفروعه ، وان شئت فقل ان مجمع البحوث الاسلامية مع شموله هو وفروعه ، عندما توجد ، شعبة من الجماعة العلمية ، اذ هو شعبة العلم الاسلامى واحياء تراثه ، ونشره ، وتثقيف المسلمين بالثقافة الاسلامية الصحيحة ، والجماعة العلمية يدخل فى عموم موضوعاتها ، اذ أنها تشمل كل علوم الحياة والدين *

فهى التى تنظم الدراسات الاقتصادية ، والدراسات الهندسية والدراسات الكونية والطبيعية والدولية وهكذا *

انه لا بد أن نتسلح بكل ما يتسلح به أعداء الاسلام ، وهم الآن يتسلحون بالعلم ، بل ان سلاحهم ثمرة لعلومهم فاذا لم نعد لهم العدة ضعنا بينهم ، والله تعالى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وقوة هذا العصر العالم فهو قبل شجاعة الشجعان ، بل ان شجاعة الشجعان لا تغنى شيئاً بجواره *

وان هذه الجماعة العلمية المكونة من كل خبراء العلم فى الهندسة والطب والكون ، والطبيعيات ، والكيمائيات ، والفضاء وغيرهم من أهل الخبرة *

وان عمل هذه الجماعة العلمية :

أولاً: دراسة ما تحت يديها من العلوم ونشره فى الأوساط العلمية فى البلاد الاسلامية ، ومتابعة تنفيذه لدى جهات الاختصاص *

ثانيا : متابعة الدراسات المختلفة فى اللغات الحية ودراستها والاشارة الى ترجمة ما ينبغى ترجمته منها * وما يكون فيه فائدة للعلم فى البلاد الاسلامية فى دأب ومن غير قصور *

ثالثا : تشجيع الدراسات الخاصة * وتهيئة الأسباب للدارسين الباحثين فى الطب وسائر العلوم *

رابعا : أن يكون لهذه الجماعة فروع فى كل الأقاليم الاسلامية توافيها بالبحوث المبتكرة ، والمتبعة ، وما يستجد فى البلاد الأجنبية من معلومات فى الكون والانسان * اننا يجب علينا أن نساير ركب العلم * ولا نتخلف عنه ، فان من يتخلف عنه يعيش فى ضلالة عمياء ، لا يعرف فيها ما يعوقه وما يحميه *

انه قد أنشئ فى مصر مراكز قومية للبحث العلمى ، وهى بسبيل أن تنتج ، ولكن افنتاج التابع ، وأحيانا تجيئنا الصحف السيارة بخبر عن طبيب مصرى ينسب اليه اختراع دواء أو مهندس ينسب اليه ابتداء آلة من الآلات * ونتمنى أن يعم ذلك البلاد الاسلامية وأن يكون العمل اسلاميا ، والانتاج اسلاميا *

لقد علم أسلافنا أوربا علم الطب ، وغيره ، ولا نريد أن نعود معلمين لهم كما ابتدأنا ، ولكن نريد أن نسايقهم فى الركب ، ولا نتخلف عنهم ، وانما يذهب ضياعا من يكون وراء القافلة التى تسير ، لا يصح أن نرضى بمقام المخلفين عن العلم ، بل نريد السبق اليه ، فلهم عقول ولنا عقول *

ان المتعصبين من الأوروبيين ، ومن لف لفهم ينسبون تخلفنا الى ديننا ، « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » ولو عكسوا لكانوا منصفين ، لأننا ما تخلفنا الا يوم تركنا ديننا ، ولم نتدبر قرآن ربنا ، وهو الذى يحث على العلم ، ويطلب النظر فى الكون *

ابن أوله آية نزلت من القرآن الكريم هي الدعوة الى العلم ودراسة الانسان
اقرأ قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ
وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » *

وان الدعوة الى النظر في الكون منثورة في القرآن لا تكاد تجد سورة من
سوره الا وجدت فيها دعوة الى النظر ، اقرأ قوله تعالى : « قل انظروا ماذا
في السموات والأرض » *

واقرا قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل
زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبداً منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً ،
فأنبتنا به جنات وحب الحميد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقنا للعباد ،
وأهيينا به بلدة مينا ، كذلك الخرج » وهكذا نجد الكثير من تلك الآيات
البينات في القرآن الكريم ، ولكننا تركنا التبصرة ، وتبصر أعداؤنا فسرنا
وراءهم ، فهل لنا أن نعلم علم الكون ، وأن يكون لنا معشر المسلمين جماعة
تقودنا اليه . *

الوَحْدَةُ الاِقْتِصَادِيَّةُ

١٤٩ — قلنا أننا نقتبس أحكام الوحدة ونظمها مما سـنه الفاروق في عصره رضى الله عنه • فقد كان لكل اقليم شخصيته ، وأمير المؤمنين مسيطر عليهم • وموجه أوامره اليهم ، خصوصا ما يتصل ببيان الأحكام الشرعية ، فكانت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي التي يصدر عنها بيان الأحكام الشرعية •

وكان الاقتصاد الاسلامى متحدًا بلا بين أجزاء الدواة غير منقطع ، وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام فى حكم الأقاليم الاسلامية فى عهد الفاروق ، ومن بعده فى عهد عثمان وعلى ، ثم من بعد ذلك فى عهد الملوك الذين حكموا باسم الخلافة الاسلامية ، وكانت الوحدة الاقتصادية قائمة حتى بعد تفرق المسلمين ، فلم يكن ثمة جمارك مانعة ولا مكوس ظالمة ، الا ما ابتدع من ذلك فى عهد العثمانيين •

وان الارتباط الاقتصادى جزء جوهري من الوحدة الاسلامية ، لأن قوى الامم فى هذا العصر تقوم على الاقتصاد ، فأمرىكا مثلا قوتها قائمة على الاقتصاد الأمريكى ، وان مواردها أعظم الموارد ، ومصانعها من أعظم المصانع ، والاقتصاد أداة من أدوات الحرب بل هو أقوى عدة •

وهو فى كثير من الأحيان يبعث الحروب، وليست الحروب الآن أكثرها الا تنازعا على ينيابيع الثروة فى الأرض ، فحيثما كانت هذه الينيابيع أشربت اليها الأعناق ، وتحركت المطامع نحوها ، وكان التكالب للودول اليها أو الاحتفاظ بها ، والمغالبة المستمرة فى خفاء وعلان هي الاستيلاء على ركاز الأرض ومعادنها •

وأنه بسبب تفرقتنا الذى أنتج ضعفنا قد صارت ينابيع الثروة عندنا التى هى فى حوزتنا وفى أرضنا وفى ملكنا معشر المسلمين موضع تنافس أعدائنا ، بل قد أخذها الذين يقاثلوننا جهرا وفى الخفاء ، يأخذونها منا لتكون قوة لهم يمدون بها أعدائنا ، وحكامنا يصادقون الذين يدبرون قتلنا ، ويغتالون الخير فى أرضنا ، ويأخذونه أخذا لما ، ولا يلقون إلينا إلا الفتات المتساقط من أيديهم .

يجعلون منا أدوات الاستغلال ، وآلات العمل ، والنتائج لهم ، فنحن مسخرون لهم ، وما أبقونا إلا لهذه السخرة . وأضعفونا وأمردوا اليهود وغيرهم بالأسلحة التى يقتلوننا بها . وليمكنوهم من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ويفتحوا لهم الطريق إلى البيت الحرام ، والروضة الشريفة الطاهرة .

لذلك كان لا بد أن يكون لنا اقتصاد موحد لينتفع المسلم بخيرات أرضه ويذهب عنه رق الاستغلال بعد رق الاستعمار ، ورق السخرة التى تجعلنا نحن المسلمين كأننا عبيد الأرض ، وأن الوحدة الاقتصادية تتقاضانا أن نتعاون جميعا على استغلال ينابيع الثروة التى تجود بها أرضنا والتى تكتنزها فى باطنها لتكون لنا أولا وبالذات ، ولا يكون لغيرنا إلا ما يفيض عن الأقاليم الاسلامية ، بعد أن تستوفى حاجاتها منها .

ان الأجنبى يستولى على نפט الحجاز كله وعلى نפט الكويت كله وعلى نפט العراق كله وعلى نפט ايران كله، ولا يعطى أهل البلاد الا القليل ، ويجعل له أصدقاء ممن يطوعون أنفسهم لصدافته ، ويؤثرونه على قومهم ولا يؤثرن قومهم ودينهم عليه . ويتعللون بالتعللات لتبرير تلك الصداقات ، وأنه لمن المؤسف حقا وصدقا أن مدخرات الدول المنتجة للنفط ترسل إلى المصارف الأوروبية ، وتخترن فى خزائنها ، وتنفق من غلاتها تلك الدول فيما يفيدها ولا يفيدينا ، فهى تأخذ منا الأصل ، وتأخذ بعض ثمرات الأصل من أموالنا ، وكل هذا يستخدم ضدنا ، ويرسل أسلحة تستعمل للفتك بنا فى ميادين القتال . ولازعاج الأمنين .

وفى المجتمعات الدولية يلوون ألسنتهم بالباطل ، وان وجد فى بعضهم

شعور بالحق جمجموا ولم يتكلموا * لأن العداوة المستكنة فى قلوبهم تجعلهم يترددون فى الحق * وان رأينا من بعضهم كلمة ، فليست للانصاف المجرى ، إنما هى من قبيل المغالبة فى أمرنا أو الرغبة فى أمر يريدون أخذها بتلك الكلمات المعسولة *

١٥٠ - ان البلاد الاسلامية قد جمعت خيرات الدنيا ، ففيها معادن الأرض ، فاذا اتجهنا الى استخراج كل هذا من أرضنا لأنفسنا فأقمنا المصانع ، حيث يكون وقودها بجزارها ، وجمعنا حصاد الأرض ، ووزعناها بالقسطاطس بيننا كانت لنا قوة ، وكان لنا العيش الوفير والخير الكثير ، وما كنا عالة على غيرنا فى قوتنا أحياناً ، ولا كلاً فى ثمرات أرض مثلها عندنا ، وما كنا من بعد ذلك أجراء لغيرنا ، وكأننا الغرباء فى ديارنا * اننا لا نستطيع الانتفاع بخيرات أرضنا الا اذا تعاوننا جميعاً على استغلال ينابيع الثروة ، ولا يكون لغيرنا منها الا ما يكون فائضاً عن حاجة كل اقليم اسلامى كما أشرنا * لقد كان المسلمون الأولون يعرفون ذلك التعاون فى صدر الاسلام ، ومن بعده حتى تفرقوا وتدابروا * وتدخل عدو الاسلام فيما بينهم ، فحاربوا تابعين لغيرهم ، ليس لهم ارادة فى شؤون أموالهم ولا تصريفها ، يؤكلون ، ولا يأكلون ، ويسخرون لمنافع غيرهم ، ولا ينتفعون ، ويتنازع الأعداء على أرضهم ، كما تتنازع الذئاب على قطيع من الشاء *

ان التعاون الاقتصادي الذى أوجبه القرآن الكريم ، وهو الذى يكون الوحدة الاقتصادية ، يتقاضانا أموراً :

أولها : أن يكون أهل الخبرة الذين ينظمون الاقتصاد فى أرضنا منا لا من غيرنا ما دامت فينا الكفايات ، واذا نقصت كفايات رجالنا — زودناهم بالعلم فى بعوث نبعثها ، أو برجال ندعوهم يزودوننا بما ينقصنا من علم على أن يكون توجيههم هنا ، تحت سمعنا وبصرنا *

واننا اذا اتجهنا مضطرين الى احضار خبراء من غيرنا ، نطلبهم من البلاد التى لم نجرب عليها شراً أو تكون مصلحتها فى أن يقوم الاقتصاد بيننا على أسس سليمة ، وعلى أى حال نشدد الرقابة عليهم ولا نترك الأمر فرطاً *

ثانيها : أن تكون المؤسسات الاستغلالية منا ، وتكون رؤوس أموالها منا ، لا من غيرنا ، فتكون لنا بالرجال والمال ، فان الأجانب عنا لا يريدوننا الا مسخرين ، ولا يلبثون الا قليلا حتى يتخذوا أموالهم سبيلا للتحكم فينا ، كذلك كانوا يفعلون في الماضي ، وانهم يتربصون بنا الدوائر لنفخ فيما وقعنا فيه من قبل ، فعلينا أن نتخذ من الماضي عبرة ، والا وقعنا فريسة أيديهم ، ان شركات النفط في الأراضي الاسلامية ليست في أرض الاسلام ، انما هي في انجلترا وأمريكا ، ويجب علينا أن نجعلها في أيدينا بشركات منا ، فان كسبت هذه المؤسسات ثلثنا الكسب كاملا * وان خسرت خسرتنا وعالجنا أسباب الخسارة *

ان هذه الشركات تستمد حكوماتها القوة منها ، وتمدها حكوماتها بالقوة *

ثالثها : ان التعاون الاقتصادي أو الوحدة الاقتصادية التي نتغيماها توجب أن يكون للمسلمين نقد موحد ، يكون للتعامل فيما بين الأقاليم الاسلامية بعضها مع بعض ولا يلغى بذلك النقد الاقليمي ، بل انه يبقى ليسهل التعامل بين الشعب في الاقليم *

فيكون بجوار النقد الاقليمي نقد موحد جامع تنسب اليه كل النقود الاقليمية بمقاديرها ، فيقدر فيه الدينار العراقي والكويتي ، والليرة السورية ، وغيرها من النقود الاقليمية *

وذلك ليسهل التعامل بين البلاد الاسلامية من غير أن يتخذ النقد الأجنبي وسيطا في التعامل بين البلاد الاسلامية فيرفع ويخفض على حسب ما يريد الأجانب فينا *

مصرف اسلامي عام :

١٥١ - رابعها : يجب أن يكون للمسلمين مجتمعين مصرف كالمصرف المركزي في أمريكا ، ولكن يكون هذا اسلاميا خالصا ، ويقوم على ما يحله الاسلام ، وما يحرمه يكون ممنوعا ، وان ذلك المصرف يجب أن يكون خاليا من ايداع

المنقود بفائدة . فان مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية قرر فيما قرر أن فوائد المصارف ربا ، ما دام المقرض يأخذ الفائدة من غير أن يعرض للخسارة ، وقد جاء ذلك القرار في المؤتمر الأول وقد أيده المؤتمرون ، وأرسل الى علماء المسلمين في كل البقاع الاسلامية ، فلم ينكر ذلك أحد من علماء الدين وان ضج حوله بعض علماء الاقتصاد الذين يؤمنون بالاقتصاد الحاضر المشوب باليهودية أكثر من ايمانهم بالقرآن الكريم ، ومبادئ الاسلام .

وان المصرف يقوم بأعمال جلييلة منها :

(أ) أنه يمدد المؤسسات الاسلامية التي تستخرج خيرات الأراضي الاسلامية من يئابيها ، والمؤسسات التي تصنع من هذه الكنوز التي تخرجها الأرض ، ويسهل تبادل السلع بين المسلمين .

على أنه في امداده للمؤسسات الانتاجية لا يستغلها بالفائدة ، بل يكون شريكا لهذه المؤسسات ان ربحت شاركها بسهم مقدر في ربحها ، وان خسرت كان عليه من الخسارة بمقدار ما أسهم في رأس مالها المستغل .

وقد حقق ذلك صديقنا المرحوم الأستاذ محمد عبد الله الخولي ، وقد قام في مصر مصرف ابناً صغيراً وحرّم الفائدة تحريماً قاطعاً ، وسار على نظام الاقراض مع المشاركة في الكسب ان كسب من أقرضه ، وعلى تحمل الخسارة معه بمقدار ما أعطى ان خسر .

وقد قام ذلك المصرف بأعمال جلييلة ، واتسع نطاقه ، وانتقل من مدينة الى مدينة ، ولكن سرعان ما حاربه الذين يؤمنون بالاقتصاد الربوي اليهودي ، أكثر من ايمانهم بالقرآن، فوئدت فكرته في مهدها ، بعد أن بدا خيرها . ومنشئ ذلك المصرف استدعته ألمانيا لتستفيد من تجربته وخبرته ، فكان خيره لغيرنا .

(ب) ومدار أعمال ذلك أنه يسهل تبادل النقد الموحد بين البلاد الاسلامية ،

ريكون له فروع فى كل بلد اسلامى ، ليسهل التبادل النقدى ، ولا يكون ثمة
عسر فى ذلك التبادل *

(ج) أنه يسهل نقل حاصلات البلاد الاسلامية بعضها الى بعض ، مع
الاحتفاظ بقيمتها من غير وكس ولا شطط *

ومن الحق علينا أن نقول : اننا وجدنا بادرة خير تتجه بالمسلمين الى
الوحدة الاقتصادية *

فقد كان من قرارات المؤتمر الاسلامى الذى انعقد فى باكستان فى الشهر
الماضى (شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٠) — من وزراء خارجية البلاد الاسلامية
أو من اندبنتهم الحكومات لحضور ذلك المؤتمر — تكوين مصرف اسلامى ، وعهدوا
الى المندوب المصرى أن يعمل على اعداد مشروع لانشاء هذا المصرف مع من
يرى الاستعانة به من الخبراء فى الاقتصاد *

ونحب هنا أن ننبه الى أمرين لا بد من العناية بهما :

أولهما : أن يكون الخبراء الاقتصاديين الذين يعينون برأى المندوب
المصرى الفاضل من الذين يؤمنون بالقرآن ، أكثر من ايمانهم بالاقتصاد المولود
فى أحضان اليهود *

ثانيهما : أن يكون ذلك المصرف خاليا من المعاملات ائربوية ، والا لا يكون
اسلاميا ، بل يكون له من الاسلام الاسم دون الحقيقة *

وصار مصرفا ككل المصارف وفائدته تكون سياسية لا دينية ، والله الهادى
الى سواء السبيل *

لا جمارك بين المسلمين :

١٥٢ — وخامسها : أن تزال المحاجزات الجمركية بين المسلمين ، فلا مكوس
ولا ما يشبهها. تؤخذ من الحاصلات الزراعية ، والمعادن التى تصدر من بلد

اسلامى الى آخر ، وذلك لأننا أمة واحدة بحكم الاسلام وهو الحكم الذى لن ترضى حكومة غيره ، وأن المكوس أو الجمارك هى نوع من الاحتكار وتؤدى اليه ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال « المحتكر خاطيء ، والجالب مرزوق » فاذا نحن فتحنا الأبواب ليأخذ كل اقليم حظه من خيرات الاقليم الآخر ، فقد فتحنا باب الجلب ، وغلقنا باب الاحتكار ، وبحسب المال فتحنا باب الرزق الحلال وغلقنا باب الحرام .

وان عمر بن الخطاب الذى فتحت أول ما فتحت فى عهده الأقاليم ، ما كان يضع محاجزة بين اقليم وآخر ، لأن خيرات الأرض لملك الأرض والسموات ، توزع على عباد الله كل بحسب حاجته .

واذا كان لا بد من وضع جمارك فعلى ما يخرج من الديار الاسلامية الى غير المسلمين ، فانه لا يصدر الى غير المسلمين الا ما يفضل عن حاجات المسلمين جميعا ، فلا تصدر مادة تكون نادرة فى اقليم اسلامى الا بعد أن يستوفى حاجته ، ولا يستورد من بلاد غير اسلامى مادة تكون موفرة فى اقليم اسلامى ، ولو كان الاقليم المستورد محتاجا الى هذه المادة ، فانه يستوردها من الاقليم المسلم .

ولذلك يجب أن تكون هناك دراسة اسلامية شاملة لخيرات كل اقليم ، وما يحتاج اليه مما لا يكون عنده ، ويرسل فائض خيره الى من يحتاج اليه ، ويرسل اليه ما لا يكون عنده .

وبذلك يتحقق الاكتفاء الذاتى للمسلمين ، وأرضهم تكفيهم ، ويفيض منها فائض يرسل فى تنظيم دقيق الى غيرهم .

ان الأراضى الاسلامية فى آسيا وافريقية وبعض أوروبا ، فيها من الخيرات ما يكفى البلاد الاسلامية الضرورى منها والحاجى والترفيهى .

ان الوضع القائم غير سليم ، ان من البلاد الاسلامية كمصر من يستورد

القمح من أمريكا ، ومن فرنسا ، بل من استراليا ، وهى فى أشد الحاجة • بينما للجزائر وحدها تستطيع أن تمد البلاد العربية كلها ، وهى تتجاوز المائة فى النسبة ، وقمحها أجود قمح ، ولكنها تصدره بالثمن لغير المسلمين لتشتري به أسلحة ، ولعله من بعد ذلك يباع للمسلمين •

وهكذا غير القمح مما يحتاج اليه ، ولا يستغنى عنه ، يجتلب من البلاد الأوروبية ، ولعله فى الأصل محبوب من أرض اسلامية ، والوسيط يتحكم فى المسلمين شراء وبيعها ، فهو يشتري بأبخس الأثمان ، أو بأقل ما يمكن أن يشتري به ، ويتحكم فيه ، ويضن به على البلاد التى تحتاج اليه من البلاد الاسلامية حتى تخر له صاغرة ، ويشترط لها ما يشاء من الشروط لأنها محتاجة اليه ، وهى فى الحقيقة غنية بأرضها من الأقاليم الاسلامية ان اتجهت الى توحيد الغاية •

ان الأرض الاسلامية فى كل الأقاليم الاسلامية تكفى أهلها ، ولا تحتاج قط الى غيرها ، وغيرها هو الذى يحتاج اليها •

ان البلاد الاسلامية فيها كل الأجواء ، ففيها النباتات التى لا تنبت الا فى الأجواء الحارة ، وفيها الدوحات من الأشجار القوية البعيدة الجذور فى الأرض التى تكبر فى البلاد الباردة ، وفيها المعادن والكنوز ، وفيها كل ما يتصور أن تنتجه أرض ، ولكن كان الاستعمار فى الماضى يجرمها من ثمراتها ويستبد هو بكل خيراتها ، وما يبقيه لا يكفى الا ما يقيم الأود •

وانه اذا كانت الوحدة الاقتصادية بين البلاد الاسلامية لا تحتاج الى غيرها ، وغيرها يحتاج الى ما عندها ، وأتينا اذا اعتمدنا على أرضنا وعلى أنفسنا اتجهنا الى استخراج كل ينابيع الثروة فى بلادنا ، فاذا كنا لا نطالب أمريكا بقمحها ولا روسيا بما عندها • ولم نستجد من هنا وهناك ، فاننا لا محالة واجدون فى أرضنا كل شئ وسنعمل على استخراجها ، فنستخرج من السودان ما نطيب به أرضه ونحبي موائمه ، وأن فيه سبعة ومائة مليون من الأمدنة سالحة للزراعة ، وفيها أطيب الفاكهة التى نترك من غير جنى ، حتى نتعفن ،

وتصير مصدر داء ، بدل أن نجنى منها ثمرا يانعا ، وطعاما شهيا ، والعراق فيه نحو ستة وثلاثين مليونا من الأفدنة ، لا يزرعون منها الا نحو سبعة ، والباقي واحات شاسعة قد أهملناها ولا نأخذ منه قليلا ولا كثيرا ، ونتكف مع ذلك أيدي الذين لا يألوننا الا خبالا .

اننا حينئذ نحیی موات أرضنا ، ونستنبت نباتها ونستغل خيراتها . وانه اذا كان لدينا ، الاكتفاء الذاتي ، وقد صار فينا مهندسون ، وصناع مهرة أقمنا المصانع لتصنيع بلادنا ، وأصبحنا لا نحتاج الى آلات نستوردها ، ولا الى معدات نطلبها ، بل نقدم لغيرنا ما يفيض عن حاجات الأقاليم الاسلامية ، ونمد الانسانية بكل طاقاتها ، ولا نكون فرصة تنتهز ولا منالا لمن يريدنا أتباعا له من هذا المعسكر أو ذاك المعسكر ، بل نكون سادة في أنفسنا ، وسادة لنا وهبنا الله تعالى من خيرات ، ولا نكون طعمة يتطعمها غيرنا .

الهجرة

١٥٣ — يقول الله تعالى مرشدا هاديا : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور ، أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ، فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » يحرضنا القرآن الكريم على ألا نكون أحلاس الأرض ، بل نهاجر حيث السعة وورغد العيش ، ويقول سبحانه فيما تلونا آنفا « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » *

وانه يلاحظ أن الأمريكان الآن بمالهم يأخذون أبناءنا اليهم ، ليعمروا ديارهم ، ويقوموا بالواجبات التى تتقاضاها الحياة عندهم *

وانه فى الوحدة الاسلامية يجب أن تكون الهجرة الى أرض الاسلام ، فيهاجر أهل الخبرة من الأقاليم التى فيها علم مادى بالحياة وما فيها من مادة ليستخرجوا ينابيع الثروة فيها ، ويمنعوا أن يجيء اليهم الذين يستغلونهم الأنفسهم ، ويتعرفون الينابيع ليستلبوها *

نريد أن تهاجر هذه الكفايات العلمية الى الأقاليم الاسلامية ، وفيها الخير العميم والنفع العظيم ، وارضاء الله سبحانه وتعالى ، ورضوانه تعالى أكبر *

وانه فوق هجرة العلماء فى داخل البلاد الاسلامية بحيث يتوافر فى كل بلد اسلامى رجال من أهل الخبرة فى الزراعة والصناعة ، وادارة الدور المالية خصوصا فى الشعوب المتخلفة فيها *

انه فوق هذه الهجرة العلمية ، يجب أن يفتح باب الهجرة ، من البلاد الآهلة بالسكان الى البلاد القليلة فى أعدادها ، لأن السكان فى البلاد الاسلامية يتكاثرون فى اقليم ، ويقاؤون نى اقليم ، وكما يفيض كل اقليم اسلامى بما عنده

من فائض الى الأقاليم ؛ فخير فائض هو الأنفيس البشرية ، فالبلاد الذى تتناسب أرضه مع عدده لقلتها نسبيا بالنسبة لعدد السكان تفيض بالأيدى العاملة على البلاد التى فيها هذه الأيدى •

ان كل الأراضى الاسلامية فى مجموعها يزيد على ما يحتاجه كل السكان لو تعاونت كل الأقاليم فى توزيع سكانها على حسب الحاجات •

اننا نجد بعض البلاد الاسلامية قد اكتظت بسكانه حتى بانغ أقصى درجات الكظة •

ونجد بعض البلاد الاسلامية خالية ممن يعمرها ، كما ذكرنا فى السودان ، وفى العراق ، ومثلهما كثير •

فاذا فتح باب الهجرة ، ونخلت ، وأحس كل مسلم أنه اذا انتقل الى أرض من أرض الاسلام ، انما ينتقل الى أرضه ولا يكون غريبا بها ، فان ذاك يكون فيه الخير ، وتستخرج خيرات المسلمين ، ولا تكون مجاعة فى بلاد اسلامى ، ويمن الغرب بأنه يسارع الى اغاثته ، وهو يأخذ ماله ، ويدفعه الى هذه المخرصة •

وبهذه الهجرة وبما ذكرنا ينتفع المسلمون بكل قواهم ومواردهم من زراعية ، وصناعية ، ومعدنية ، وانسانية •

اللهم هبىء لنا من أمرنا رشدا • وأذهب عنا الأهواء التى فرقتنا ، واهدنا الى ما يجمع الشمل ، ويكشف الغمة •

وحدة السياسة الخارجية

١٥٤ — نقصد بوحدة السياسة الخارجية أن تكون علاقة الأقاليم الإسلامية متحدة في عداوتها وولائها ، وذلك يقتضى أمرين :

أحدهما : ألا يكون بين أى إقليم وآخر من الأقاليم الإسلامية خلاف سياسى يجعل أحدهما يناوئ الآخر فى سياسته بالنسبة للعلاقات الخارجية *
ولكل سياسته الداخلية ، ونظمه الدستورية والقانونية بشرط ألا تكون على خلاف القرآن والسنة ، فالأحكام الثابتة بالقرآن والسنة من غير تأويل عامة بالنسبة للمسلمين أجمعين ويتبع ذلك بلا ريب أن تكون الشورى هى أساس النظام وعلى أساسها يكون النظام * ومن غير تدخل فى أصل الحكم أياكون فى بيت واحد ، أم يكون من غير تعيين ، وسواء أكان هذا أم ذلك ، فإنه يجب أن يتحقق مبدأ الشورى فى الاختيار وفى الأحكام ، وتنفيذها ، فلا استبداد ولا ما يشبهه ولا ما يؤدى إليه بأى صورة من الصور *

ثانيهما : ألا يدخل أى إقليم من الأقاليم الإسلامية فى أى اتفاق سياسى منفردا ، لأن ذلك قد يؤدى الى أن يتخالف المسلمون فى اتفاقاتهم ، فيوالى هذا دولة يعاديهما إقليم آخر من الأقاليم ، فسادا للذريعة لا يجوز الاتفاق الانفرادى لأى ولاية أو إقليم إسلامى ، حتى يكون الجميع على ولاء واحد ، واننا فى وحدتنا الإسلامية نتبع التجربة التى حدثت فى عهد الراشدين ، ثم فى عهد ملوك المسلمين : عندما كانت الوحدة الإسلامية قائمة ، وان لم يكن النظام إسلاميا من كل الوجوه على ما أشرنا من قبل ، اننا نريد وحدة فيها حرية الأقاليم فى ادارة شؤونها ، ولكن لها وحدة جامعة هى الجامعة الإسلامية ، وقد يكون لها استثناء جزئى بأن يكون إقليم ناء قد اضطرته الأحوال لأن يعقد عقد عدم اعتداء مع الدولة التى تجاوره ، فان ذلك يجوز أن يقع ، ولكن يجب اعلام مجلس ادارة الجامعة الإسلامية ، ولجلس الادارة أن يوافق عليه ليكون موثقا من الجامعة الإسلامية ، ويشترط لموافقته ألا يكون فيه ما يمس اقليما أو ولاية إسلامية *

وان الوحدة في السياسة الخارجية توجب أن يكون المسلمون مجتمعين
قوة دولية موحدة ، فلا تشذ واحدة منها عن الأخرى •

وقد يكون من الخير أن يكون لكل اقليم صوت مستقل في المجتمعات
اندولية ولكنهم عند التصويت في أمر يجب أن يكون صوتهم متحدا ، ليكونوا
قوة مرهوبة يحسب حسابها ، وان ذلك التكتل يقع في المجتمعات الدولية على
بقاء كل دولة من الكتلة بصوتها الذي تبديه ، فدول أمريكا الجنوبية تكون
كتلة دولية ، ولكل دولة صوتها المستقل مع اتحادها جميعا ، وهي تتفق قبل
التصويت : والدول الاشتراكية تكون كتلة ، ولكل دولة صوتها ، ولكنها متحدة
في السياسة العامة والاتجاه السياسي العام •

وان ذلك المبدأ يسير على أساس أن الوحدة الاسلامية ليست دولة
واحدة ، ولكن لكل اقليم شخصيته مع الاتحاد العام في العمل والغاية ورفعة
البلاد •

الأحلاف :

١٥٥ — أساس السياسة للوحدة الاسلامية أن تكون محايدة في الجملة
لأنه مع تنازع المآرب والغايات في دول العالم لا يصح أن تتنازع لمجموعة
من الدول ضد مجموعة أخرى ، لأنها لا تكون عاملة للاسلام ، بل تكون عاملة
أن انحازت اليه •

ولذلك لا يصح أن تشترك الوحدة الاسلامية في أي حلف ، وذلك
لما يأتي :

أولا : انها ان اندمجت في حلف فقادة الحلف ، والدول العظمى فيه هي
التي تسيره ، وتوجهه ، وفي هذه الحال تفقد جزءا من استقلالها السياسي ،
ولأنها تكون سائرة مع القوى ، ظلم أو عدل ، استقام أو اعوج ، واعتبر ذلك
بحال بعض الدول الاسلامية التي دخلت في حلف الأطلنطي فانها لا تسير
سياسته ، وليست عندها الطاقة لأن تسير سياسته ، أو يكون لها دخل في

تسييرها • ولقد حدث أن أسلحة الأطنطى كانت مسخرة لضرب البلاد الإسلامية التي تريد أن ترفع نير الاستعمار عنها ، كالجزائر ، فان أسلحة ذلك الحلف هي التي كانت تضرب ثورة الجزائر التي انتهت بأن ألفت الاستعمار في البحر المتوسط •

وانه عندما أراد أعداء الحق إنشاء حلف سموه حلفا اسلاميا كان المقصود منه أن يجعل المسلمين جميعا في قبضة الأمريكان الذين لا يرجون للاسلام وقارا ، وسياستهم ضد الاسلام على خط مستقيم •

وثانيا : ان الأحلاف تجعل الجامعة الإسلامية تتعرض للهجوم ممن كان حلف ضدهم •

وثالثا : أن هذه الأحلاف في واقعها في هذه الأيام تتناقض مبدأ الاسلام في أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، اذ يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » ويقول سبحانه تعالت كلماته : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » وفوق ذلك فان الأحلاف العسكرية في حروب هذا العصر الذي أساسه التغالب ، ولا يتحرى العدل ، بل يقع في الظلم ، هو تعاون على الاثم والعدوان ، والله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » •

ورابعا : أن الاسلام دعا الى ألا يقاتل المسلمون من لا يقاتلون ، بل يكون غير منحاظ ، ولقد قال تعالى بعد الأمر بقتال المعادين للاسلام الذين يعتدون على المسلمين ، قال سبحانه وتعالى : « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، وإن شاء الله لسلمهم عليكم فلقاتلوكم ، فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا اليكم السلام ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ويأمر المسلمين بألا يقاتلوا من يلقي السلام ، فيقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله ، فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام : لست مؤمنا ، تبنغون عرض

الحياة الدنيا ، فعند الله مغام كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ،
فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيراً » *

وهكذا نجد النصوص القرآنية وأعمال النبي صلى الله عليه وسلم تدل
على أن التحالف الذى يدعو الى التكتل ، وأن يكون المتحالفون ضد طائفة من
الناس ، ولا يكون أساس التحالف دفع الظلم ، ومنع الأذى ، بل يكون
الاساس هو المغالبة بين مذهبين ، أو اتجاهين ، أو نوعين من الناس ، ويكون
فيه خروج عن الاسلام وبذلك يفترق الحلف عن الميثاق الذى يكون للمودة
والمعاونة *

المهود أو المواثيق أو الأحلاف الفاضلة :

١٥٦ — اذا كانت المحالفات مع غير المسلمين لا تجوز ، فالمعاهدات
تجوز ، وفرق بين الحلف والمعاهدة لأن الحلف اتفاق على الحرب ، والاتفاق
على الحرب مع غير المسلمين يجر الاقليم الاسلامى الى أن يحارب ، سواء
أكانت الحرب جائزة فى الاسلام أم لا ، لأن الحرب فى الاسلام لا تجوز
الا لدفع الاعتداء ، أو لدفع الفساد فى الأرض كما قال الله تعالى : « ولولا دفع
الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »
فالحرب الاسلامية حرب فاضلة تدفع اليها الفضيلة وتظلها الفضيلة ، وذلك
غير مضمون فى الأحلاف المطلقة التى تكون ضد مذهب ، أو ضد جماعة ، أو
نكون عوناً للقوى فى الأرض غربية وشرقية ونحو ذلك *

وان هذا يدفعنا الى أن نقول ان نوعاً آخر من المحالفات العادلة يجوز ،
كالمحالفات التى تكون للعمل على معاونة الضعفاء ، كحلف الفضول الذى عقد
فى مكة قبيل البعثة المحمدية ، فقد عقد فى دار عبد الله بن جدعان حلف قوامه
أن المتحالفين يتحالفون لينصروا الضعيف على القوى ، وليأخذوا على يدي
القوى ، مارسوا حراً وثبير ، وما بل بحر صوفة *

فان هذه محالفة دفعت اليها الفضيلة والنخوة العربية ، وهو فضيلة فى

ذاته ، ولذا يقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « حضرت بدار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » ، فهذا النوع من الأحلاف لا يوجد مع الأسي والأسف ، انما الذي يوجد هو الأحلاف الآثمة التي يتحالف فيها الأقوياء ، ليحتازوا العالم ، ويفرضوا على الناس ما يفرضون وهي أحلاف في أساسها كما ذكرنا تعاون على الأثم والعدوان *

وهذا النوع الذي نستنكره ، وندعو الجامعة الاسلامية الى ألا تؤيد غير الحاف الفاضل الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم ، وندعو الجامعة الاسلامية أن تكون الجامعة الدولية التي تحت على الفضيلة في الجماعات ، كما يبحث الاسلام على الفضيلة بين الأحاد *

وان نصره الضعفاء ولو كانوا غير مسلمين أشد أنواع البر تقربا الى الله تعالى ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « ابغونى في ضعفائكم فانما تنصرون وترزقون بضعفائكم لأن العدل خلق الاسلام » ، والله تعالى يقول : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » *

هذا هو الأمر بالنسبة للأحلاف حلالها وحرامها *

أما العهود الموثقة ، فانها تكون انتهاء للحرب ، أو تنظيميا للسلم * وانه كان لا بد للاسلام من أن يضبط العهود والمواثيق ، لأنه جاء لنقض ما يكون باطلا ، وبن ما يكون حقا ، وينظمه *

وان المعاهدات قبل الاسلام كما هي الآن يتخذها القوى لفرض سيطرته على الضعفاء ، حتى اذا قوى الضعيف نبذها ، وقاتل لاجراجه نفسه من ذل الضعف الى غطرسة القوة ، وهي الآن كذلك كما أشرنا من قبل ، والاسلام دين العدل لا يفرض المعاهدات الا لمنع الحرب ، أو لانتهاء القتال ، أو لتنظيم سام عادل *

وإذا كان الاسلام قد قرر فيما قرر أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو فساد يجب دفعه ، فالمعاهدات تكون لانتهاء حرب عارضة ، والعود الى حال السلم الدائم وقرار بها وتثبيت لدعائمها لكيلا يكون بعد ذلك اعتداء الا أن يكون نقضا لعهد +

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد العهود والمواثيق لتثبيت السلم فعقد مع نصارى نجران وعقد مع اليهود الذين كانوا ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه +

ولقد جاء في كتاب كتبه لليهود يثبت فيه عهده ، جاء فيه :

« لكم ذمة الله وذمة رسوله ، على أنفسكم ، ودينكم ، وأموالكم ، ورقبيقتكم وعلى كل ما ملكت أيمانكم + لا يظأ أرضكم جيش ولا تحشرون ولا تحشرون ، من سافر منكم فهو في أمان الله ، وأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أكراه في الدين » +

وهذا عهد تفيض معانيه بالأمان والحرية ، ولكنهم نقضوه ، وتآمروا مع المشركين ، والشدة تحيط بالمدينة ، والبلاء بلاء ، وما جزاء الخيانة الا أن ينزل بهم ما كانوا يريدون أن ينزلوه بخياناتهم لله ولرسوله ، وللحق والذمة ، وقد كان الصحابة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقدون المعاهدات للموادة والسلامة ، ولمنع الحرب ، ومن هذه المعاهدات معاهدة الامام عمر رضى الله تعالى عنه لأهل ايلياء « بيت المقدس » وقد جاء فيها ما نصه : « هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ، والأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئتها ، وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقض منها ، ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء أحد من اليهود » +

المعاهدات لا تنقر الظلم :

١٥٧ - ان المعاهدات الاسلامية تكون الأمرين : أولهما تثبيت السلم والعمل على استمراره ، وثانيهما : اقامة العدل ومنع الظلم ، ولذلك لا يقرر الاسلام اطلاق أيدي من يعاهدونه من الملوك أو الكبراء في ظلم الرعايا وارهاتهم *

وان الفقهاء المسلمين قد نظروا في المعاهدات التي تعقد مع الملوك أو المحكام وقرروا أنها تكون على أساس العدل ، ومصالحة الرعايا قبل مصلحة الملوك والحكام ، ولذلك كان العهد قائما على أن يعدلوا مع رعاياهم ، ولا يرهقوهم * ولقد جاء في كتاب المبسوط للسرخسي من فقهاء الحنفية ما نصه :

« اذا طلب ملك الذمة العقد على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الاسلام ، لم يجب الي ذلك ، لأن التقرير على الظلم مع امكان المنع حرام ، ولأن الذي يلتزم أحكام الاسلام فيما يرجع الي المعاملات فشرطه بخلاف موجب عقد الذمة باطل فان أعطى الصلح والذمة على هذا بطل من شرطه ما لا يصلح في الاسلام ، لقوله صلى الله عليه وسلم : كل شرط ليس في كتاب الله باطل » *

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين عند اقرارهم العهود والمواثيق التي تسوغ بقاء الملوك على عروشهم يحكمون في رعاياهم مع بقائهم في عهد مع المسلمين يشترطون العدل ، لأن الشروط التي تقبل في المعاهدات هي الشروط العادلة ، وكل شرط فيه ظلم للرعايا يكون باطلا ، وفي موضع اللغو ، ويبيح للمسلمين التدخل لمنع *

وان ذلك هو الذي يجب أن تعطيه الجامعة الاسلامية في عهدها لتضرب الأمثال للناس في اقامة العدل ورفع الظلم ، ولتكون جامعة أسست على تقوى من الله ورضوان ، ولينشر العدل ، ويذهب الظلم ، ولتهلأ الدنيا عدلا ، كما ملئت زورا وظلما *

الوفاء بالعهد :

١٥٨ - الوفاء بالعهد أمر أوجبه الاسلام ، وحث عليه ، ولو كان صاحب العهد مشركا ، ولقد قال تعالى في ذلك : « كيف يكون لامشركين عهد عند الله وعند رسوله ، الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين » *

ولقد جاء الأمر الصريح بالوفاء بالعهد في قوله تعالى : « وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسؤولا » *

وان دين الفضيلة والعدالة يوجب الوفاء بالعهد : ولقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » والوفاء بالعهد في ذاته فوق أنه عدالة وفضيلة هو قوة ، والنكث في العهد ضعف ، ولقد قال تعالى مؤكدا وجوب الوفاء بالعهد : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كاللتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ، ان تكون امة هي اربى من امة انما يبيلوكم الله به * وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، واو شاء الله لجمعكم امة واحدة * ولكن الله يغسل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ولنسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم ، فنزل قدم بعد ثبوتها ، ونذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم » *

وان هذا النص فيه تشديد على وجوب الوفاء بالعهد ، وتعليق لنقضه ، ويشير الى أن أشد النقص ما كان بين شعب وشعب ، ويريد الناقض أن يزداد قوة ، أو أن تكون رقعة أرضه أقوى *

وان الآية الكريمة تدل على أمور :

أولها : أن العهد الذي يذكر فيه اسم الله ، أو يعقد باسم الاسلام هو عهد الله تعالى ، فمن ينقضه ينقض عهد الله تعالى وميثاقه ، فجرمه عظيم ، وليس اعتدائه مقصورا على من نقض عهده *

ثانيها : أن العهد في ذاته قوة ، والتزامه قوة ، لأنه يأمن فينبه تجانب
الاعتداء ، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام ، والسلام تطمئن فيه الشعوب ،
وتستقر ، ولذلك شبه من ينقض عهده بحال الجمقاء التي تغزل بغزلها تبحمه ،
وتقوية ، ثم بعد ذلك تنقضه انكاثا أى أجزاء صغيرة متفرقة مشبعة ، وذكر أن
النكث فيه زلل للقدم بعد ثبوتها ، إذ أنها تثبت بالسلام الذى أوجده العهد ،
وفى السلم قوة وثبات ، والنقض إزالة للأمن وللثبات المستمر ، والاجلثتان
الدائم .

ثالثها : أن النص الكريم يشير الى ما يدفع الى النقض من طبائع الملوك
الذين لا يبعون سلاما ، وهو ارادة اتساع رقعة الملك ، ونماء القوة على أساس
من الظلم والارهاق .

ولذلك قال تعالى : « أن تكون أمة هى أربى من أمة » أى لا يصح أن
تدفعكم الرغبة فى زيادة الرقعة ، وكثرة عدد المحكومين ، وقوة الاعتداد على
النقض ، لأن النقض زلل يؤدى الى الضعف ، وإلى الانزعاج المستمر ، وإلى
الخوف ، وإلى التعرض لتهاكة الحرب ، وضعف ثقة الناس ، ومثى ضعفت ثقة
الناس فى دولة لا يطمأن اليها ، ولقد وصفت احدى الدول الكبرى المعاهدات
بأنها قصاصات أوراق ، فلما احتاجت الى عقد المعاهدات لم تجد من يطمئن
الى عهودها فنشرت منها كل الدول ، وكل القوى ، وانه يجب على المسلمين
ألا ينقضوا العهد الا اذا ظهرت بوادر الخيانة ، ولا يصح النقض لمجرد خوف
عدم الوفاء من غير بوادر الخيانة ، ولقد روى أن المؤمنين شكوا الى النبى
استعداد المشركين بعد صلح الحديبية ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم
« وفوا لهم واستعينوا الله عليهم » .

ولكن اذا ظهرت الخيانة ، وقامت امارتها وجب أن ينبذ اليهم عهدهم ،
وبعلنوا بذلك ، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : « وأما تخافن من قوم خيانة
فانبذ اليهم على سواء » أى يرد عليهم عهدهم ، ويعلمون .

الخلاصة :

١٢٤ - أما بعد ، فإنه يجب أن تتحقق الوحدة الاسلامية فى السياسة الخارجية ، وتتقوم على أساس من الحكم الاسلامى الصحيح ، والمصلحة الاسلامية التى يدعو اليها الاسلام ؛ وأن يكون العدل أصلا من أصول هذه العلاقات ، فإنه الميزان الحق والمقياس ، والميزان الذى لا يخطئ ، وهو مبدأ الاسلام فى المعاملات الانسانية آحادا وجماعات .

وانه يجب التنبيه هنا الى أمر ذى شأن ، وهو مبدأ من مبادئ الاسلام المقررة الثابتة .

ذلك الأمر أنه اذا حصل اعتداء على الأقليات الاسلامية من الدولة التى تعيش فيها فإنه يجب على الجامعة الاسلامية ، أن تتصل بهذه الدولة لتمنع الظلم الواقع على تلك الأقليات المسلمة ، فان المسلم أخ للمسلم لا يحقره ولا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ، كما صرح النبى صلى الله عليه وسلم .

وان النبى صلى الله عليه وسلم قرر ذلك المبدأ الجليل ، فلا مناص منه ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل الجيوش الاسلامية لمقاتلة الروم ، بعدما تبين أنهم يؤمنون من دخلوا فى الاسلام من الغساسنة فى الشام ، فكان القتال المرير فى غزوة مؤتة وتبوك ، ثم جهز جيش أسامة فى آخر حياته ، وأوصى بأنه ينفذ بعد وفاته .

وان ايذاء المسلمين ، كما هو واقع فى بعض البلاد الافريقية فتنة لهم فى دينهم ، وقد قاتل النبى صلى الله عليه وسلم قريشا ، لأنهم كانوا يفتنون المؤمنين فى دينهم والفتنة أشد من القتل . وقد قال تعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله** » .

انه يجب أن تكون الجامعة الاسلامية عزا للمسلمين فى قلتهم وكثرتهم ، فيكونوا أمة وسطا للخير فى هذا العالم الذى يموج بالفتن ويموج بالشر ، كما قال الله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » فلتكن تلك الأمة الوسط ، وهى المثلى .

وَحْدَةُ الْجَيْشِ

وحدة الجيوش في الجامعة الاسلامية :

١٦٠ - لسنا من رجال الحرب ، ولا من العارفين للأساليب ، ولا ممن عنوا بدراسة تاريخ الحروب العالمية من عهد نيبال الى عهد هندنبرج ، ولم ندرس الا تاريخ الحروب الاسلامية في غير استقصاء لمناهجها ، ولا تعرف دقيق للأساليبها ، ولذلك نترك الكلام في ذلك الى أهل الخبرة في الحروب الذين مارسوا بعضها ، ودرسوا جلها ، ولهم في ذلك بحوث في مجالاتها ، وكلامهم فيها هو المجدى في مثل هذا الموضوع *

ولكننا نريد أن نقول كلمة صغيرة في هذا المقام فيما يتعلق بالوحدة الاسلامية ، وما تتبعه الجامعة الاسلامية مشيرين غير مبينين ، لأننا لا نملك البيان ولكيلا نكون كحاطب ليل *

(أ) انه يجب أن يكون للمسلمين وحدة رئيسية لجيوشهم ، هي التي تدير وهي التي تهيب ، وهي التي تجيب عند أول هيلة ، ونكون قوة الجيش للمسلمين جميعا ، لا لقوم دون قوم ، ولا اقليم دون اقليم *

(ب) وانه يجب أن يكون في كل اقليم اسلامي قوة تحمي الاقليم من غارات من يجاورونه حتى لا يراد بسوء ، وأن يكون في كل اقليم وزارة للحرب *

ولكن يجب أن يكون نظام هذا الجيش الاقليمي خاضعا للجامعة الاسلامية ، وأن يكون تحت اشراف مجلس جامعة الدول الاسلامية والجيش الكبير الجامع لكل القوي *

(ج) ويجب أن تزود القوي الاسلامية كلها ، بالمواد الفتاكة التي تكون في قدرة كل دولة ، فان ذلك يدخل في مضمون قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، فان القوة تختلف في الحاضر عنها في الماضي ، وأن

نزويد القوى الاسلامية بكل ذلك فرض كفاية لا يصح أن تتخلى عنه الجامعة الاسلامية ، وأن ذلك يقتضى أن ينتجه علماء البحث والدراسة الى متابعة ما تتسلح به الجيوش فى البلاد المختلفة ، ولا ينى علماء المسلمين عن هذه المتابعة ، على أن تصنع فى الديار الاسلامية ، انه لا يمكن أن تكون الأمة حربية اذا كانت تستمد أسلحتها من فضل غيرها ، فقد يعطى ، وقد يمنع . وهو فى العطاء والمنع لا يلاحظ الا مصلحته هو ، وأن هذا الفرض الكفائى يجب على الأمة مجتمعة ، وممثلة فى مجلس ادارة الجامعة الاسلامية ، ويجب على الخصوص على العلماء الباحثين الذين يؤهلون لذلك وعلى الأمة الاسلامية مجتمعة أن تهيب لهم الأسباب ، بأن تعد لهم المعامل التى يجرون فيها تجاربهم ، والمواد التى تتكون منها ، وبالمسال الذى يحتاجون اليه .

ان البلاد الاسلامية أرضها غنية بكل ما يمكن أن تكون منه تلك الأسلحة المختلفة ، وان البلاد التى تستخدم الذرة بكل أنواعها ، يأخذون من أفريقية ومن غيرها المواد المكونة لها .

ولسنا نطلب ذلك ليكون من الجامعة الاسلامية اعتداء ، بل هو لدفع الاعتداء ، والمحارب مأخوذ بسلاح محاربه فيجب أن يكون فى يده ما يماثل ما فى يد خصمه ، وأن المعتدى ان شعر بذلك تردد فى اعتدائه ، أو امتنع عنه ، فالاستعداد أنفى للاعتداء ، ويجعل المعتدى يتردد فيه .

واعتبر ذلك بما بين أمريكا وروسيا ، فكلتاها لا تفكر فى الاعتداء على الأخرى مع شدة التنازع المادى ، واختلاف المذهب الاجتماعى ، لأن كلتيهما تخشى ما عند الأخرى .

فنحن نريد السلاح لا لنعتدى ، ولكن نريده لتكون فى أمن منه ، وان الشر يدفع بمثله ، وكما قال على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة : « ادفعوا الحجر من حيث جاء فانه لا يدفع الشر الا شر مثله » . وبعبارة أخرى لا يمنع الشر الا الاستعداد لدفعه ، وأبلغ أنواع الاستعداد هو الاستعداد العامى فى تلك الحرب العالمية .

وان وجد شر قاتل ، وهو الحرب بالمبيدات ، لأن الذين فقدوا سلطان الضمير الانساني يحاربون بالآفات التي تهلك الحرث والنسل ، وتبيد الزروع في منابتها ، فيجب علينا أن ندرس هذا لنعاملهم بالمثل أن أقدموا عليه .

وإذا كنا في بعض كتاباتنا قررنا أن الاسلام لا يعمل على الاعتداء على الشعوب الآمنة ، ويمنع ائتلاف الزرع وائتلاف الحيوان في غير مأكله ، فان ذلك كان في الحروب الماضية التي كانت لا تتجاوز معسكر السلطان ، أما الآن فان الحرب حرب شعوب ، والأنا نريد ان نمنع الأذى عن الشعوب الاسلامية ، بل نريد أكثر من ذلك أن نمنع التفكير في الأذى .

مجلس القيادة :

(د) وانه يجب مع ما سبق أن يكون ثمة مجلس للقيادة الحربية الاسلامية يجتمع فيه أولئك القواد من الأقاليم الاسلامية يمثل كل اقليم عضو أو عضوان أو أكثر ، وأن يكون هناك قائد اسلامي عام ، يضع الخطط بالاشتراك مع أهل ثورى الحرب .

(هـ) وانه يجب مع ذلك أن تكون في الجامعة قوة للأمن داخلية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وليكن من بين الشعوب الاسلامية في التكوين السياسى مجالس للأمن مكون من أعضاء يمثلون الأقاليم الاسلامية وأن يكون لهذا المجلس قوة تمنع اعتداء اقليم على اقليم .

فاذا اعتدى اقليم على اقليم كان لمجلس الأمن ، أو عليه أن يتدخل لمنع الاعتداء ، بل انه يجب أن يتدخل عند حصول الاختلاف الاقليمي ، وذلك تحقيقا لقوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » ، فان بغت اهداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفى الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين ، انكالمؤمنين اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، وانتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فهذه القوة الاسلامية التي تكون تابعة لمجلس أمن الدولة الاسلامية تكون لثردع الجانى ولتحمله على الجادة ، وليفى الى أمر الله •

اننا لا نضمن اخلاص كل الحكام ، ولا نضمن الدخيل المفسد ، فلا بد من قوة رادعة ، والله سبحانه بكل شىء محيط •

مجلس الجامعة الاسلامية :

١٦١ - هذه العناصر المختلفة من تنفيذ أحكام الله تعالى التي وردت بها النصوص الشرعية ، ووحدة السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات بين الأقاليم الاسلامية ثم تنظيم الحرب ، وكل ما يتعلق بها ، ومنع البغى من اقليم على اقليم كل هذا يحتاج الى رياسة موجهة ، تتفق مع بقاء شخصية كاملة لكل اقليم فى أرضه ودائرته •

وان هذه الرياسة لا يمكن أن نجعلها لواحد منفردا عن أهل الشورى ، فقد جربنا ذلك فى حكم الملوك الذين تسموا باسم الخلفاء اذ أنهم كانوا ينفردون بالأحكام ، ومن حولهم ظل لهم ، لا ارادة لهم بجوار ارادتهم ، واذا كانت لهم ارادة ، فانما يحطون بها على هوى هؤلاء الملوك الذين سموا أنفسهم خلفاء وأمراء المؤمنين •

واذا كانت خلافة كخلافة أبى بكر وعمر ، فانهم كانوا يستشيرون ، وما كان أهل شورا هم يقولون غير الحق مرضاة لهوى أحد وكان لعمر نوعان من الشورى :

أحدهما - الشورى الخاصة ، وهى التي كان يصطفى بها كبار علماء انصحابة مثل على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وهؤلاء كانوا يستشارون فيما يتعلق من الأمور •

وثانيهما — سُورى عامة ، كان بدعو فيها الى ظاهر المدينة كل البالغين الراشدين من أهل المدينة ، وذلك فى المسائل التى لا تعالج حالا خاصة ، بل يكون فيها تقرير الأمر دائم ، أو تكون علاجاً لحال لها خطر وشأن *

ومن ذلك ما دعاهم الأجله عندما أراد أن يترك أرض العراق وفارس فى ايدى زراعتها ، فقد جمع أهل البلاد وقال لهم رأيه : واستمعوا الى رأى مخالفه الذين كانوا يريدون تقسيمها كغنيمة *

وقد استمرت المناقشة ثلاثة أيام ، وانتهت بالخضوع لرأى عمر رضى الله عنه عندما ساق لهم الآية الدالة على أن الأرض تبقى فى ايدى الزراع ، وخراجها يكون للمسلمين ممثلين فى ولى الأمر وبيت مال المسلمين *

ومن شورا رضى الله عنه العامة أن بلغه تكاثر أهل فارس على المسلمين ، فأراد أن يخرج بنفسه الى الغزو فجمع أهل المدينة ليشيبرهم فى ذلك * فنتكلموا فى ذلك ، وأشار عليه على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة بأن ييشى حتى لا يكون ما يدع وراءه من العورات أشد مما يلقي المسلمين ، وحتى لا يشتد كلبهم على الجيوش الاسلامية ويقولوا هذا أصل العرب ، وان قتلناه ، تفرقوا ، فنزل عمر رضى الله عنه عند ذلك الرأى *

١٦٢ — من بعد أن جاء ملوك بنى أمية ، ثم ملوك بنى العباس ، وان تسمى ملوك الدولتين بأسماء الخلفاء وأمراء المسلمين — من بعد ذلك أهملت الشورى فتحكم الفرس والترک ، وانحلت الوحدة الاسلامية ، على ما ذكرنا مما أثر فى هذا الاجتماع الاسلامى وتفرق بعده المسلمون *

لذلك كان لا بد أن تكون الرياسة الاسلامية لغير واحد * وقد تنتهى الى واحد يختار من بينهم لمدة ، وليس لمدى الحياة ، وقد نعد هذا هو خليفة المسلمين ، ونعده أمير المؤمنين ، ويكون أميراً لهم حفاً وصدقا *

ولكن كيف يتكون هذا المجلس الذى ترجع اليه أمور ثمانمئة مليون مسلم موزعين فى الأرض ؟ يتكون هذا المجلس من عناصر ثلاثة :

رجال لهم خبرة في السياسة والادارة ونظم الدول ، ورجال لهم علم في الاسلام ، ورجال لهم خبرة في الحروب •

وهؤلاء يكونون أولى الأمر فينا الذين أمرنا الله تعالى بطاعتهم ، اذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ، ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » •

وان أولى الأمر الذين أمرنا بطاعتهم صنفان ، العلماء الذين يتعرفون الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، والثاني الحكام • وهذا ما يقرره العلماء وابن تيمية في هذا ، اذ يقول « وأولو الأمر في هذا صنفان : العلماء والأمراء وهم الذين اذا صلحوا صلح الناس . فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله وما يفعله طاعة لله ورسوله ، واتباع كتاب الله تعالى » وليس معنى كون العلماء من ولاة الأمر أن أقوالهم حجة في ذاتها ، فليسوا كالأخبار عند اليهود والنصارى أقوالهم حجة في ذاتها ، انما هم مستنبطون مفسرون للكتاب والسنة ، وليس كلامهم حجة الا بمقدار سلامته في استخراج الحكم من مصدره فالمصدر هو الأصل المتبع ، ولقد كان شيخ الفقهاء أبو حنيفة يقول : « ليس لأحد أن يأخذ بقوانا الا اذا علم من أين أخذناه » •

والأمراء هم الحكام ، ويدخل فيهم المحاربون ، فهم أمراء الحرب أو ولاتها •

كيف يختار مجلس الادارة :

١٦٣ — يختار غير الحربيين من مجلس الادارة وهم العلماء الذين يديرون السياسة الاسلامية ، ويوثقون الصلات بين الأقاليم المختلفة ، ويعرفون حاجات

كل اقليم ، ويراقبون شئونه ، ويوثقون العلاقات الاقتصادية ، يختارون بالانتخاب ويختار مدير السياسة بالانتخاب من المجالس النيابية في كل اقليم ، يختار مجلسه النيابي واحدا أو اثنين ، ليمثل الاقليم في مجلس ادارة الجامعة الاسلامية .

ويختار المجلس الأعلى الاسلامي في كل اقليم اثنين من العلماء أو أكثر ، وذلك للرقابة على تنفيذ القوانين الاسلامية ، في ظل القرآن والسنة وما ينبغى اتباعه في الاقليم . وذلك ليكون المجلس ممثلاً لكل عناصر التكوين للجامعة الاسلامية .

وان مجلس الجامعة الاسلامية هو الذي يختار من يرى أن يضمهم اليه . من قادة الحروب ومن يرى الأمور فيها ، ويلاحظ أنه ينبغى أن يكون مجلس الجامعة ممثلة فيه كل المذاهب الاسلامية ، فيكون فيه علماء من المذهب الزيدي وآخرون من المذهب الجعفري ، وغيرهم من المذهب الإباضي ، ثم المذاهب الأربعة ، ولا يلزم أن يبعث كل اقليم في مذهبين مختلفين ، بل يلاحظ أن يكون مجموع أعضاء المجلس فيهم هؤلاء الممثلون للمذاهب لا أن يختار كل اقليم ممثلين له من كل المذاهب ، فان ذلك يجعل العدد كثيرا ، وكلما كان في دائرة معقولة من حيث العدد كان الاتفاق أقرب .

وننبه الى أمرين جديرين بالاعتبار :

أولهما — أن هذا مجلس يختار رئيسا له ، ويعد ذلك الرئيس هو الأمام الأعظم للمسلمين أو هو الخليفة أو هو أمير المؤمنين ، كما أشرنا من قبل ، على أن يكون اختياره لأمد معلوم كما قلنا من قبل ، ولا يكون مدى الحياة .

ثانيهما — أن اختيار هذا الرئيس يكون بأكثرية خاصة ، وهي الثلثان للحاضرين على الأقل ، والعزل بهثلهما أيضا .

وقرارات المجلس تكون ملزمة لكل المسلمين ، ولا تجوز مخالفتها .

هذا واننا نرى أن يكون مكان مجلس الادارة هو المدينة المطهرة ،حيث
جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنها المدينة التي كان يقيم بها النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الاسلام ، ولأنها كانت موطن الخلفاء
الراشدين الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان ، وما خرج على عنها الا لأجل الحوادث *

أما بعد :

فهذه خواطر عرضت أبديتها، وقد دفعنى اليها أمران :

أولهما — ما نراه الآن من التدابير بين المسلمين ، حتى أنه ينظر حكام
القوم من المسلمين الى اخوانهم من المسلمين نظرة من لا يربطه به رابطة ،
ويؤثرون ولاء غير المسلم على ولاء المسلم ، وتنزل النازلة بقوم من المؤمنين
فلا يحس بأنه منهم ، وهم منه * ونجد هذا الفريق يوالى تلك الدولة من أعداء
الله والايمان ، ونجد الآخر يوالى دولة أخرى ، بينها وبين الأولى عداوة ونحن
تبع لهما فى عداوتهما ، وإن تحابا فليس لنا معهم أمر يراعى ، وخيرائنا لغيرنا ،
والله تعالى يقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن
يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتنقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه » *

الأمر الثانى : ما نراه فى تاريخنا وما أسعفنا به ديننا من وحدة اسلامية
دكنتنا من أن نهاجم الباطل فى مواطنه ، فأزلنا حكم الأكاسرة ، وحررنا
شعوبهم ، وأزلنا حكم الرومان فى الشرق ، ورفعنا راية الحرية والمساواة :
بالمؤاخاة التي كانت بيننا ، والمحبة التي كانت تربط بيننا ، والتي كان يتألم
المؤمن فى الشرق لما ينزل بأخيه فى الغرب ، حتى تحقق فينا قوله صلى الله عليه
وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو
منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » *

وان تلك الخواطر التي سقناها لا ندعى أنها نظام وضعناه ، ولكننا
استملينا من حال المسلمين فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، وعهد الراشدين
الذين أحيوا السنة وأماتوا البدعة *

وقد يقول قائلون اننا خياليون ، لأن الواقع لا يؤيدنا ، وكان يجب أن نوائم بين ما ندعو اليه وما يمكن تحقيقه .

ونحن نقول ان المبادئ الثابتة لا يمكن أن تستمد من واقع هو الداء الذي نشكو منه ، واذا كانت دعوتنا الرجوع الى حالنا في عهد النبي والراشدين خيالية ، فانه لا صلاح قط ، ولا سبيل الى الرجوع الى عزة الدين ، وقوة اليقين ، وخير لنا حينئذ أن نستبدل بدين العزة ديننا آخر نتسربل فيه سربال الذلة ، ان الحكمة القديمة تقول : « انما يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها » .

ان العمل يجعل الأمور حقائق واقعة ثابتة ، فلنعمل « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » .

« **ثم بحمد الله** »

المفردات

صفحة

- مقدمة ٣
- الوحدة الإسلامية (تكوينها - قبائلها - انتشارها - طريقة جمعها) ٧
- تعريف ٩
- ١٢ - الرسالة المحمدية للكافة ١٥ - النبي عربي وذللت الشريعة في العرب ١٨ - العرب حملة الرسالة المحمدية الى النادر كنانة ١٩ - الله اعلم حيث يجعل رسالته ٢٣ - العرب اصلاح الناس لتلقى الرسالة الى الكافة .
- ٣٠ تكوين الوحدة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ٣٥ - التقاؤه صلى الله عليه وسلم بقبائل العرب في موسم الحج .
- ٤٢ الى يثرب ٤٣ - العقبة الأولى ٤٥ - العقبة الثانية او بيعة المنعة والحرب
- ٤٨ الهجرة ٥٣ - ما بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ٥٤ - المؤاخاة ٥٩ - التأليف بين العرب جميعا ٦٣ - الوفود ٦٩ - السماح والعدالة ٧٠ - السماح في الحديبية ٧٦ - وفي فتح مكة المكرمة كانت السماح اوضح ٨٢ - التأليف الاخرى .
- ٨٥ تمام الوحدة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ٨٧ - حماية محمد (صلى الله عليه وسلم) الوحدة التي انشأها الله ٨٩ - المنافقون والوحدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ٩٢ -- الامك وخوض المنافقين .

الاتجاه بالدعوة الى غير العرب ٩٥

٩٦ — من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ٩٦ — من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ٩٦ — من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة ٩٧ — من محمد رسول الله الى المغوقس ملك معسر والاسكندرية ٩٩ — من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ١٠٢ — التآلف بين العرب وغيرهم .

ولاء الموالاته ١٠٤

الوحدة الاسلاميه في عهد الراشدين ١٠٩

١٠٩ — الاختلاف والردة ١١٠ — كانت الردة انبعثانا للعصبية ١١٢ — عهد الشيبخين ١١٢ — اتساع الحكم الاسلامي ١١٤ — ما رواه أبو يوسف في كتابه الخراج ١١٥ — الدولة الاسلاميه بعد الفتوح ١١٧ — سيطرة عمر على الزلاة ١١٩ — خطبة الفاروق عمر بن الخطاب ١٢١ — بعضاً من كتبه ١٢٢ — وكتب الى معاوية بن أبي سفيان ١٢٢ — عهده لأهل الله ١٢٣ — عنابة عمر بن الخطاب بالقيضاء ١٢٥ — دولة واحدة وأقاليم متعددة ١٢٧ — عصر عثمان بن عفان وما بعده ١٢٩ — دفاع عثمان بن عفان أمام جمع من الصحابة شهدوا له بالصدق ١٣١ — مساجلات كلامية بين علي بن أبي طالب وعثمان ابن عفان بشأن دعاة الفتنة ١٣٣ — الفتنة التي فرقت القلوب ولم تهزق الوحدة ١٣٥ — تنبؤ النبي صلى الله عليه وسلم بالفتن ١٣٨ — الخلافة والوحدة ١٤٠ — ماذا قال ابن حزم في كتابه الفصل ١٤١ — شروط الخلافة النبوية ١٤٤ — ومقال النورى ١٤٤ — ثم قال ابن حجر ١٤٦ — الوحدة مع الولاة والعصااف ١٤٨ — اذا لم يكن من هو أهل للإمامة ١٤٩ — ما قاله ابن تيمية ١٥٠ — ما قاله الامام أحمد بن حنبل في الجهاد ١٥١ — الفتنة والوحدة ١٥٢ — ويقول ابن تيمية حاكياً رأى أئمة السنة في الفتن والثورات .

الفرقة بعد الوحدة ١٥٥

١٥٦ — الأسباب المعنوية ١٥٧ — العرب والموالي ١٥٧ — الاسلام سوى بين الناس في الشرف ١٥٨ — تعصب الدولة الاموية العرب ١٥٨ — ما جاء في مناقب أبي حنيفة للمكي ١٥٩ — امتداد العصبية العربية حتى عصر المأمون ١٥٩ — ما جاء في العقد الفريد .

الفرق الإسلامية ١٦٣

- ١٦٣ - من أسباب الفرقة ١٦٤ - الشيعة والخوارج ١٦٥ - الشيعة والدولة التي قامت باسمها ١٦٥ - توام هذا المذهب مبادئ ثلاث ١٦٨ - فرق الشيعة ١٦٨ - والكيسانية ١٧٠ - خلاصة المبادئ التي يؤمن بها الكيسانية ١٧٢ - ما قاله البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ١٧٣ - الجارودية ١٧٤ - السليمانية ١٧٥ - البترية ١٧٦ - تمام دول على أساس المذهب الزيدي ١٧٧ - الهادي ١٨٠ - دولتان منفصلتان عن حكم بغداد ١٨١ - الامامية من الشيعة ١٨٢ - اثنا عشرية ١٨٣ - الاسماعيلية ١٨٦ - الحاكمة ١٨٧ - نتائج الطائفية ١٨٩ - تقطع الدولة في العهد العباسي ١٨٩ - الحكم الامري بالاندلس ١٩١ - الدولة الطولونية ثم الاخشيديية ١٩٢ - الحال في الدولة العباسية ١٩٤ - السامانية ١٩٥ - بنوية ١٩٩ - آل سلجوق ٢٠٢ - غارة الصليبيين ٢٠٣ - التتر ٢٠٥ - دخول التتر بغداد ٢٠٧ - الخلافة من بعد بغداد ٢١٠ - الاندلس والمغرب ٢١٢ - موت اللغة العربية ٢١٣ - العامية ٢١٤ - الشعوبية وحياء اللغات القديمة ٢١٦ - خلاصة ونتيجة ٢٢١ - الطائفية ٢٢٣ - احياء اللغات القومية .

كيف تكون الوحدة الآن ٢٢٥
٢٢٦ - اول طريق ٢٢٦ - الوحدة الإسلامية ووحدة العقيدة
٢٣٥ - شكل الوحدة .

الجامعة الإسلامية ٢٣٨

الشورى اساس الجامعة الإسلامية ٢٤١

تنفيذ الأحكام الإسلامية توام الجامعة ٢٤٣
٢٤٤ - المعاملات ٢٤٦ - الزواجر الاجتماعية ٢٤٨ - الحدود ٢٥٣ - حد البغى ٢٥٧ - احكام القرآن الكريم والسنة النبوية تعم البلاد الإسلامية ٢٦٠ - مجمع البحوث الإسلامية ودوره في هذا الشأن .

الثقافة في الجامعة الإسلامية ٢٦٢
٢٦٣ - جمع التراث الإسلامي ٢٦٦ - تحويل الطائفية الى مذهبية

مؤلفات الامام

الشيخ محمد أبو زهرة

- المعجزه الكبرى (القرآن) —
— الولاية على النفس —
- خانم النبيين (صلى الله عليه وسلم) —
— أبو حنيفة (حياته . عصره . آراؤه .
٣ أجزاء في مجلدين)
فقته)
- تاريخ المذاهب الاسلامية (جزءان في
— مالك (حياته . عصره . آراؤه .
مجلد واحد)
فقته)
- العقوبة في الفقه الاسلامى —
— الشافعى (حياته . عصره . آراؤه .
— الجريمة في الفقه الاسلامى
فقته)
- شرح قانون الرصية —
— ابن حنبل (حياته . عصره . آراؤه .
فقته)
- الأحوال الشخصية —
— احكام التركات والموارث —
— ابن تيمية (حياته . عصره . آراؤه .
فقته)
- محاضرات في النصرانية —
— ابن حزم (حياته . عصره . آراؤه .
فقته)
- في المجتمع الاسلامى —
— الامام الصادق (حياته . عصره .
آراؤه . فقته)
- مقارنات الأديان —
— الامام زيد (حياته . عصره آراؤه .
فقته)
- الدعوة الى الاسلام —
— تنظيم الاسلام للمجتمع —
- التكافل الاجتماعى في الاسلام —
— العلاقات الدولية في ظل الاسلام —
- محاضرات في الوقف —
— تنظيم الأسرة وتنظيم النسل —
- تاريخ الجدل —
— الخطابة —
- محاضرات في عقد الزواج وآثاره —
— بحوث في الربا —
- الملكية ونظرية العقد —

تطلب جميع مؤلفات الامام محمد أبو زهرة

من ملتزم طبعها ونشرها :

دار الفِكر العربي

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى — القاهرة

ت : ٣٩٢٠٩٥٦ — ٣٩٢٥٥٢٣

فروع البيع :

الفرع الرئيسي :

٦ أ شارع جواد حسنى — القاهرة ت : ٣٩٣.١٦٧

فرع الدقى :

٢٧ شارع عبد العظيم راشد — متفرع من شارع شاهين بالعجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر :

٩٤ شارع عباس العقاد — المنطقة السادسة — مدينة نصر ت : ٢٦١٩.٤٩

وكذا من جميع المكتبات الشهيرة داخل وخارج جمهورية مصر العربية

كما تطلب من :

مؤسسة دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

الكويت

ص.ب ٦.٥٦ / السالمية 22071

ت : ٥٧٤٨١٦٥ / ٥٧١٨٥٧١

شركة دار الإشعاع للطباعة

١٤ ش عبد الحميد — جنينة قاميش
السيدة زينب — القاهرة
ت : ٣٦٣.٤٦٩